

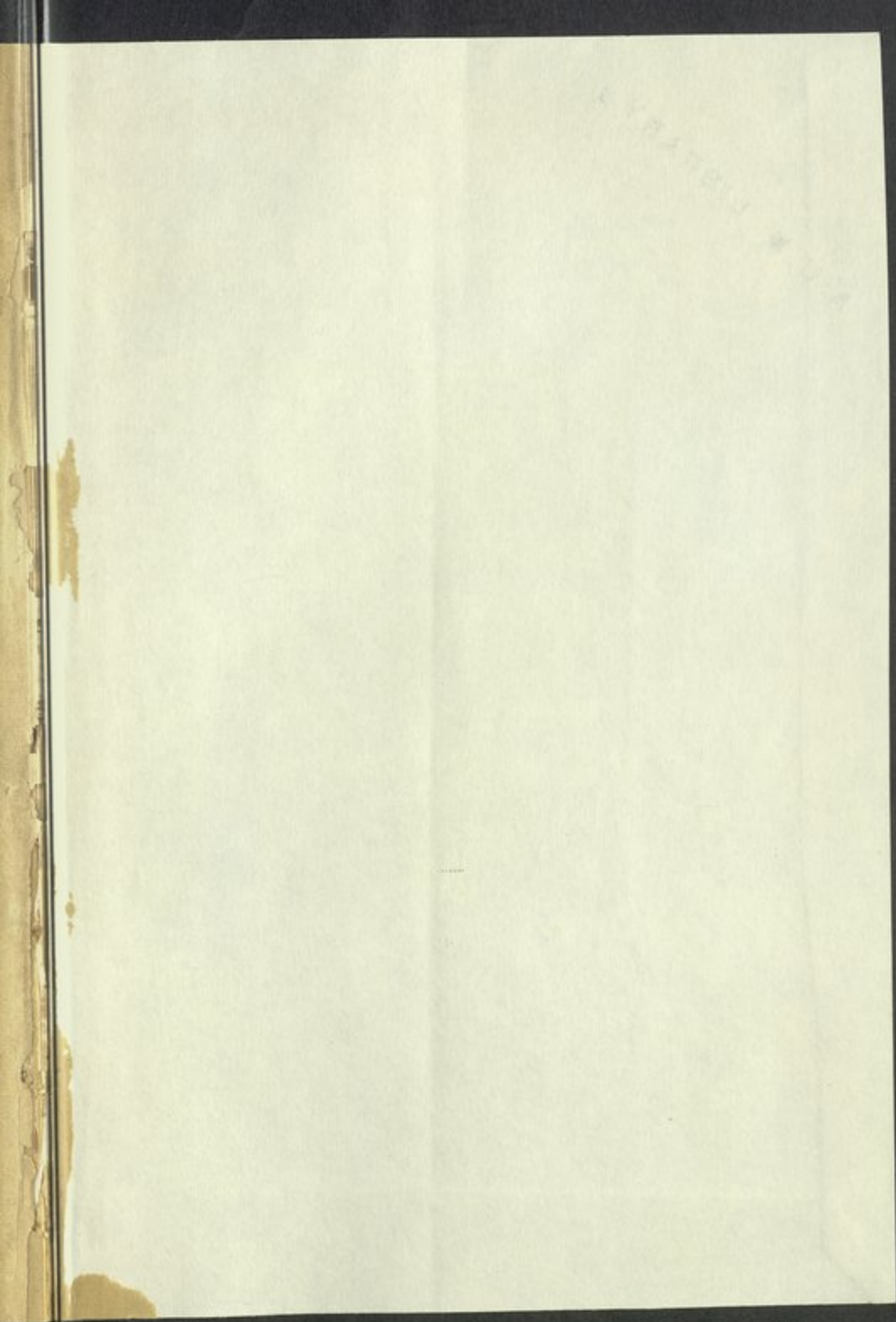
A. U. B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A. U. B. LIBRARY

h5586c 53



المكتبة العامة للعلوم

بغداد

301

W26w A

C.1

مكتبة الزمارة

1400

نور

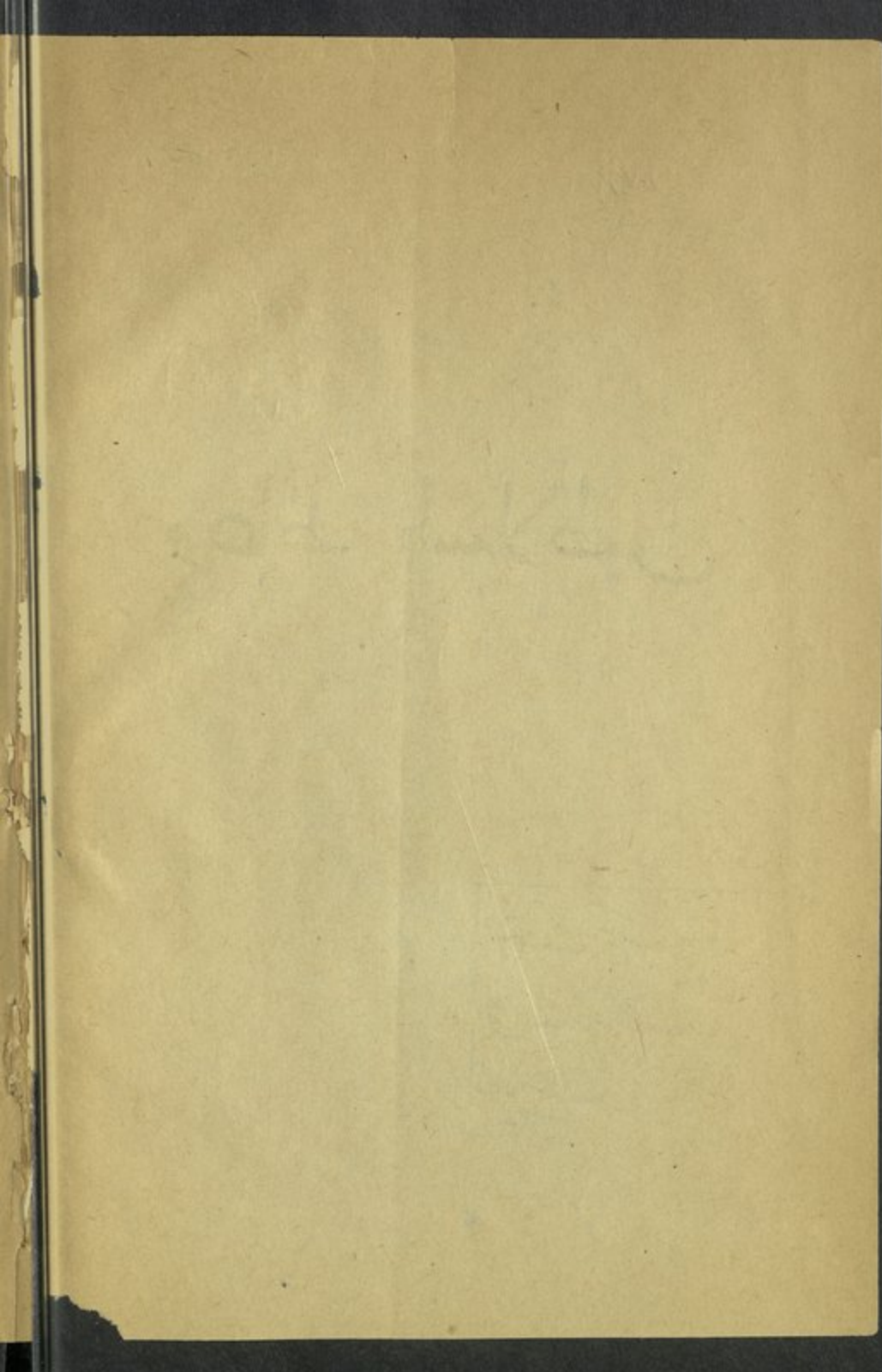
في سنة

وعاظ السلاطين

بحث صريح

في طبيعة الانسان

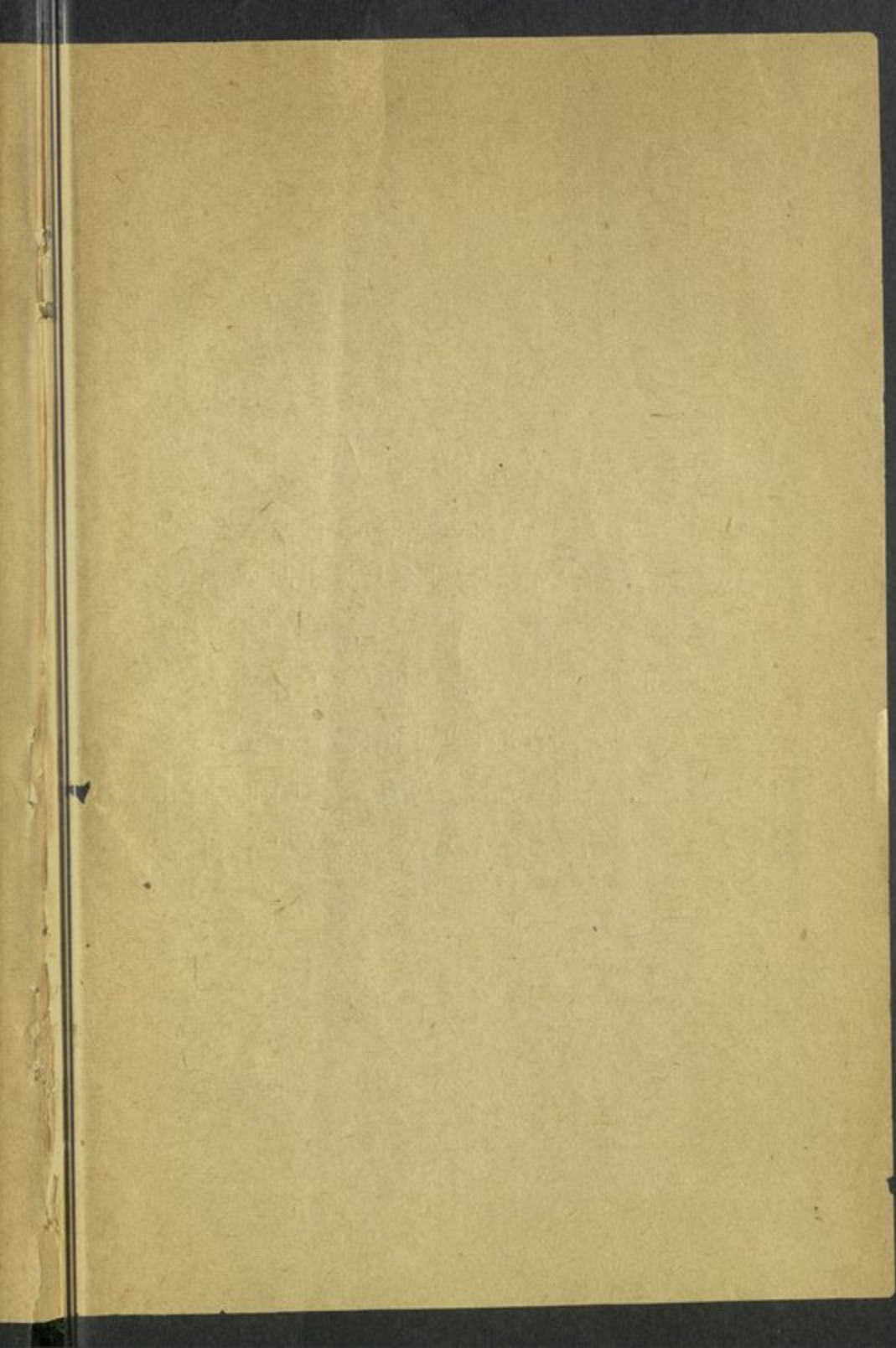
من غير تفريق



الاعضاء

أقدم هذا الكتاب الى وعاظنا . : فقد ظل المجتمع الاسلامي يستمع الى مواعظهم وخطبهم الرنانة مئات السنين ، فلم ينتفع بها شيئاً . وقد آن الأوان لكي نقلب لهم ظهر الحجن فنعظهم — كما كانوا يعظوننا من قبل .

إنهم دأبوا على وعظ المظلومين .. وتركوا الظالمين ! ولقد اتخذهم الطغاة آلات بأيديهم يصعقون بها الناس ويندرونهم بعذاب الآخرة ، فأنسوه بذلك ما حل بهم في هذه الدنيا من عذاب مقيم .
إنهم وعاظ السلاطين — وهذه هديتي إليهم .



المقدمة

أقدم بين يدي القارئ العربي بحثاً صريحاً لا نفاق فيه حول طبيعة الانسان . وهو بحث كنت قد أعددت بعض فصوله ، منذ مدة غير قصيرة ، لالقاءه من دار الاذاعة العراقية . فرفضه جلاوزة الاذاعة ^(١) ... لسبب لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم .

والاذاعة ، كغيرها من المؤسسات الثقافية في هذا البلد ، تجري على أسلوب في التفكير يحاكي أسلوب الواعظين .

وقد ابتلينا في هذا البلد بطائفة من المفكرين الافلاطونيين الذين لا يجيدون إلا اعلان الويل والثبور على الانسان لانحرافه عما يتخلون من مثل عليا ، دون أن يقفوا لحظة ليتبينوا المقدار الذي يلائم الطبيعة البشرية من تلك المثل .

فقد اعتاد هؤلاء المفكرون أن يعزوا علة ما نعاني من تنسخ إجتماعي الى سوء أخلاقنا . وهم بذلك يعتبرون الاصلاح أمراً ميسوراً . فبمجرد أن نصلح أخلاقنا ، ونغسل من قلوبنا أدران الحسد والافانية والشهوة ، نصبح على زعمهم سعداء مرفحين ونعيد مجد الأجداد .

انهم يحسبون النفس البشرية كالثوب الذي يغسل بالماء

(١) حق على المديع آنذاك أن يتادي : «هنا بلد الجلاوزة... هنا بغداد!»

والصابون فيزول عنه ما اعتراه من وسخ طارىء . وتراحم لذلك
يهتفون بملء أفواههم : هذبوا أخلاقكم أيها الناس ونظفوا قلوبكم !
فاذا وجدوا الناس لا يتأثرون بمنطقهم هذا انهالوا عليهم بوابل من
الخطب الشعواء وصبوا على رؤوسهم الويل والثبور .

واقي لاعتقد بأن هذا أسخف رأي وأخبثه من ناحية الإصلاح
الاجتماعي . فنحن لو بقينا مئآت السنين نفعل كما فعل أجدادنا من
قبل نصرخ بالناس ونهيب بهم أن يغيروا من طبائعهم ، لما وصلنا الى
نتيجة مجدية . ولعلنا بهذا نسيء الى مجتمعنا من حيث لا ندري .
إننا قد نشغل بهذا أنفسنا ونوهمها بأننا سائرون في طريق
الإصلاح ، بينما نحن في الواقع واقفون في مكاننا أو راجعون
الى الوراء .

إن الطبيعة البشرية لا يمكن اصلاحها بالوعظ المجرد وحده . فهي
كغيرها من ظواهر الكون تجري حسب نوااميس معينة . ولا يمكن
التأثير في شيء قبل دراسة ما جبل عليه ذلك الشيء من صفات
أصلية .

يقول (باكون) : لكي تسيطر على الطبيعة ، يجب عليك أولاً
أن تدرسها (١) . فالإنسان جزء لا يتجزأ من الطبيعة المحيطة به .
إن القدماء كانوا يتصورون بأن الإنسان حر عاقل مختار . فهو
في رأيهم يسير في الطريق الذي يختاره في ضوء المنطق والتفكير

(١) To govern nature , you must first study it .

المجرد . ولهذا أكثروا من الوعظ اعتقاداً منهم بأنهم يستطيعون بذلك على تغيير سلوك الانسان وتحسين أخلاقه .
دأبوا على هذا مئات السنين . والناس أثناء ذلك منهمكون في أعمالهم التي اعتادوا عليها لا يتأثرون بالموعظة إلا حين تلقى عليهم . فترام يتباكون في مجلس الوعظ — ثم يخرجون منه كما دخلوا فيه لثاماً .

لقد جرى مفكروننا اليوم على أسلوب أسلافهم القدماء ، لا فرق في ذلك بين من تثقف منهم ثقافة حديثة أو قديمة . كلهم تقريباً يحاولون أن يغيروا بالكلام طبيعة الانسان .
وكثيراً ما نراهم يطلبون الناس بمواعظهم أن يغيروا من نفوسهم أشياء لا يمكن تغييرها . فهم بذلك يطلبون المستحيل . وقد أدى هذا بالناس الى أن يعتادوا سماع المواعظ من غير أن يعيروا لها اذناً صاغية .

وانتشرت في الآونة الأخيرة عادة سيئة بين أبناء الجيل الجديد إذ نراهم يضحكون على ذقن كل واعظ . فأصبح الواعظون في واد وأبناء الجيل الجديد في واد آخر .

والغريب أن الواعظين أنفسهم لا يتبعون النصائح التي ينادون بها . فهم يقولون للناس : نطفوا قلوبكم من أدران الحسد والشهوة والأناية ، بينما نجدهم أحياناً من أكثر الناس حسداً وشهوة وأناية .
لعلنا لا نخطئ إذا قلنا بأن الحسد والشهوة والأناية وما أشبه

هي صفات أصيلة في الانسان لا مفر منها . فكل انسان تقريباً هو
حسود شهواني أناني . فقد يختلف إنسان عن آخر في هذا ، لكنه
اختلف بالدرجة لا بالنوع .

ولا يذم هذه الصفات البشرية إلا أولئك الذين أنعم الله عليهم
فأشبع شهواتهم وأنانيتهم وجعلهم موضع حسد لغيرهم . فهم يحرضون
غيرهم على نبذ الحسد ، وكأنهم بذلك يقصدون لاشعورياً أن
يدرأوا عن أنفسهم خطر المنافسين والمنازعين .
إن كل إنسان يحب نفسه . ولا تحب العين أن ترى من هو
أرجح منها — كما يقول المثل الدارج .

فاذا قلنا للناس : انبذوا الحسد والأنانية ، فمعنى ذلك أننا
نقول لهم : اتركوا طبيعتكم البشرية وكونوا ملائكة ! .
ومما يجدر ذكره في هذه المناسبة قصة ذلك الأزهري المترجم
الذي سافر الى فرنسا برفقة البعثة الأولى التي أرسلها محمد علي الى
هناك عام ١٨٢٦ .

يقول هذا الأزهري في مذكراته التي كتبها حول هذه السفارة
انه اندهش جداً حين رأى سفور المرأة الفرنسية وتبرجها واختلاطها
بالرجل . فهو يعيب ذلك الأمر ويعتبره من الفواحش والدع .
ولكنه يعطف بعد ذلك فيذكر من محاسن الفرنسيين أنهم لا يميلون
الى اللواط أو التعشق بالصبيان . فهو يقول عنهم ما نصه : « عدم
ميلهم الى الأحداث والتشبيب بهم ! فهذا أمره منسي الذكر عندهم .

فمن محاسن لسانهم وأشعارهم أنها تأتي تغزل الجنس في جنسه فلا يحسن في اللغة الفرنسية قول الرجل عشقت غلاماً فإن هذا يكون من الكلام المنبوذ^(١).

لقد مدح هذا الأزهري الفرنسيين لكونهم لا يعشقون الصبيان وذم نساءهم على سفورهن واختلاطن بالرجال . وما درى أنها أمران متلازمان فلا يوجد أحدهما إلا حيث يوجد الآخر .

دأب وعاظنا على تحييد الحجاب وحجر المرأة ، فنشأ من ذلك عادة الانحراف الجنسي في الرجل والمرأة معاً . فالإنسان ميل بطبيعته نحو المرأة ، والمرأة كذلك ميالة نحو الرجل . فإذا منعنا هذه الطبيعة من الوصول إلى هدفها بالطريق المستقيم لجأت اضطراراً إلى السعي نحوه في طريق منحرف .

وقد دلت القرائن على أن المجتمع الذي يشتد فيه حجاب المرأة يكثر فيه ، في نفس الوقت ، الانحراف الجنسي من لواط وسحاق وما أشبه .

ظن وعاظنا أنهم يستطيعون أن يمنعوا الانحراف الجنسي بواسطة الكلام والنصيحة وحدها . غير دارين بأن الانحراف طبيعة اجتماعية لا بد من ظهورها في كل بلد يحجب النساء فيه عن الرجال^(٢).

(١) انظر مجلة الهلال : المجلد ٦١ ، الجزء ١١ ، ص ٦٨ .

(٢) وبدون وعاظنا يستطيعون انتشار الانحراف الجنسي بين الناس ولا يستطيعون انتشار السفور . ولعلنا لا نقالي إذا قلنا أن الانحراف الجنسي منتشر بين الوعاظ أنفسهم أكثر من انتشاره بين غيرهم . وهذه هي عاقبة من يغفل أمر الطبيعة البشرية ويعط بما يخالفها .

وقد قيل قديماً « اذا أردت أن لا تطاع فربما لا يستطيع » .

واني لأعترف بما اعتراني من دهشة ، أثناء تجوالي في بلاد العرب المختلفة ، على ما رأيت هنالك من عناية بأمر الطبيعة البشرية ومن مداراة لها . فهم يمنحون الانسان حرية كافية يفصح فيها عن نفسه . فلا يشتدون في وعظه ، ولا يمنعون من اشاع شهوته أو أنانيته ضمن حدود معترف بها .

وتجد الطفل ينشأ هنالك وهو مؤمن بأن له الحق في ان يلعب وأن يشتهي وأن ينافس وأن ينازع في حدود مصلحة الجماعة التي ينتمي اليها . فاذا بلغ الكبر أصبح ذا شخصية طبيعية لا تكلف فيها ولا تفاق .

وقد قارنت هذا بما كان المعلم يلقننا به في أيام طفولتنا في الكتاتيب ، حيث تكون عادة الوعظ على أشدها . وبذلك ترى المعلم شامراً في وجوهنا سوطه وهو ينصحننا بالترام الوقار والأدب والسكون . فنحن نسكتم أمامه ما يجول في أنفسنا وننتظر له بما يريد منا من وقار مصطنع . حتى اذا خرجنا من عنده أقننا الدنيا وأقعدناها بالعريضة والصخب والهياج .

وقد عجبت حقاً حين رأيت الجماعات الغريبة تعنى بالشهوة كل العناية ، فلا تستحي ولا تعظ . فهي تخصص لطلابهم وطلابها أما كن للاختلاط والرقص ، وتساعدنهم على التعرف بعضهم ببعض .

ونهيء لهم أجواق الموسيقى وتشملمهم جميعاً بجو من المرح واللذة البريئة^(١) . وقد أبدت دهشتي هذه لأحد الأساتذة هنالك فأجابني الأستاذ : « اننا اذا منعنا طلابنا وطالباتنا عن الاختلاط المكشوف لجأوا الى الاختلاط المستور بعيداً عنا في جو ملؤه الريبة والاغراء . اننا إذ نعرف بما في الطبيعة البشرية من قوى ونهيء لها ما ينفس عنها في جو من البراءة والطمأنينة نكون بذلك قد وقينا الانسان من مزالق الشطط ومغريات الخفاء » . وأنهى الأستاذ كلامه قائلاً : « عوداً بآباءك على حياة النور تمكش فيهم نزع الظلام ! » .

حدث لي ذات مرة في بدء دخولي الحياة الامريكية أن حيث فتاة من فتيات صني الحسان فردت لي التحية بغمزة من عينها : وغمزة المرأة في أمريكا لا تعني غير اللطف وحسن المعاملة . أما أنا فقد فسرته تلك الغمزة تفسيراً شرقياً خبيثاً . وبقيت طول يومي أنظر وجهي في المرأة — وأضرب أخيراً بأسداس ...

إن ما نشأت عليه في بيتي الشرقية المترمة من وقار مصطنع ، جعلني أحس لدى تلك الغمزة البريئة بهمسة من همسات الشيطان .

(١) أقصد بالبريئة البريئة ما كان يعتبر كذلك في نظرم . والأخلاق نسبية كما لا يخفى . فما يعد في نظرم بريئاً قد يعتبر عندنا فسقاً وجوراً . وربما تنقلب الأحوال عندنا في المستقبل فيصبح مقياسنا في شؤون الأخلاق مخالفاً لمقياسنا الحاضر . ولست أسكر اني قد انذهلت حين رأيت في جامعات الغرب ذلك الاختلاط العجيب بين الجنسين لأول مرة ، واعتبرته من قبيل الاباحية والنسق حيث كنت آنذاك لا أزال نمت تأثير التفكير الوعظي الذي نشأت فيه في بيتي الشرقية المترمة .

ومن السهل أن يغري الشيطان انساناً اعتاد على الوقار المصطنع والتزمت الشديد .

ويبدو لي أن هذا التزمت الشديد الذي امتازت به حضارتنا الشرقية هو بقية من بقايا مجدنا الذهبي القديم . فقد كانت المرأة آنذاك تباع وتشترى . وكان الأمراء والأغنياء في تلك الأيام يكترون من شراء الجواري ويملؤون قصورهم بهن ^(١) .

وكان صاحب الجواري يحرص كل الحرص على عفاف جواريه . فهو يقيم الأسوار العالية حولهن ، ويشد في حراستهن ومراقبتن ثلاثا يطعم أحد الفقراء فيخطف منهن نظرة أو يحظى بغمزة .

وقد أخذ الوعاظ والفقهاء يؤيدون أصحاب الجواري على حرصهم هذا وشدتهم في مراقبة المرأة . فالوعاظ كانوا ، ولا يزالون ، يعيشون على ما ينفقه عليهم أصحاب الجواري .

نشر الوعاظ مبدأ الحجاب في المجتمع الاسلامي وأيدوه بالأدلة العقلية والنقلية . ولعلمهم أرادوا بذلك - لاشعورياً - أن ينشروا الفقراء بالويل والثبور وينعموهم من التطلع الى ما في داخل القصور الشائخة من بيض حسان .

فالوعاظ حين يقول : « لا تنظر الى المرأة » ربما أراد بذلك أن يقول : « لا تنظر الى جواري غيرك » . وهو حين يقول :

(١) يروي أن المتوكل ، رضي الله عنه ، كان يملك في قصوره أربعة آلاف جارية ... وطين جميعاً (انظر : Hitti , History of the Arabs , p 342)

« اياك والحسد » لعله قصد أن يقول : « لا تحسد غيرك على امرأة اشتراها بحلال ماله » .

والغريب أن نراهم يستنزلون غضب الله ، وويلاته جميعاً ، على رأس ذلك الفقير الذي يغازل جارية من الجواري ، بينما هم يباركون للمغني ويهنتونه على تلك الجواري اللواتي اشتراهن بماله من السوق . كأن الفرق بين الحلال والحرام ، في نظر هؤلاء ، هو الفرق بين وجود المال وعدمه (١) .

* * *

يروى أن الخليفة سليمان بن عبد الملك كان يتنزه ذات يوم في بادية فسمع صوتاً يغني من بعيد . وكان الصوت رخيماً مطرباً ، فغضب الخليفة منه إذ اعتبره خطراً على عفاف النساء وسبباً من أسباب اغرائهن وفسادهن . فأمر بخضاء المغني . وقد خصي المسكين فعلاً (٢) .

إن هذه قصة أحسب الواعظين يصفقون لها ويفرحون بها .

(١) والمدهش في هذا الباب أن بعض الفقهاء يفترون بين اللواط بالغلام المملوك وغير المملوك . فاللواط بغلام غير مملوك يستوجب في نظرم القتل أو الرجم ، أما من يلوط بغلام مملوك له فلا يستحق عتسدهم غير التعزير من القاضي . ومعنى ذلك أنهم يقتلون الفقير الذي يلوط ، أما الغني الذي يشتري الغلمان ليلوط بهم فعقابه أوت يقول له القاضي : « كف ... تبحك الله » .
(انظر : منز ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ج ٢ ، ص ١١٨) .

(٢) انظر : زبدان ، التمدن الاسلامي ، ج ٥ ص ٣٦ .

فهم قد يرون في عمل الخليفة هذا غيرة على الأخلاق . ولعلمهم يودون أن تسير حكومتنا الجليلة على اتباع سنة هذا الخليفة فتحصي المغنين ^(١) .

والواعظون لا يهتمون لو كان المغني يغني للخليفة فتهتز على صوته بطون الجواري ، ولكنهم يهتمون كل الاهتمام اذا رأوا صعلوكاً يغني لنفسه أو لأهل قريته من الفقراء والمساكين .

ويبدو لي أن هذا هو دأب الواعظين عندنا . فهم يتركون الطغاة والمترفين يفعلون ما يشاؤون ، ويصبون جل اهتمامهم على الفقراء من الناس فيبحثون عن زلاتهم وينقصون عليهم عيشهم ويندرونهم بالويل والثبور في الدنيا والآخرة .

وسبب هذا التحيز في الوعظ ، فيما اعتقدته ، راجع الى أن الواعظين كانوا ، ولا يزالون ، يعيشون على فضلات موائد الأغنياء والطغاة . فكانت معائشهم متوقفة على رضا أولياء الأمر ، وتراهم لذلك يعضون الطرف عما يقوم به هؤلاء من التعسف والنهب والترف — ثم يدعون الله لهم فوق ذلك بطول العمر .

ويخيل لي أن الطغاة وجدوا في الواعظين خير معاون لهم على إلهاء رعاياهم وتخديرهم . فقد انشغل الناس بوعظ بعضهم بعضاً ، فنسوا بذلك ما حل بهم على أيدي الطغاة من ظلم .

(١) وعلى هذا فن المحتمل أن تأمر الحكومة بخصاء محمد عبد الوهاب وفريد الأطرش ومن لف لفهما — والعياذ بالله .

فالواعظ حين يعظ الناس باتباع المثل العليا وتطهير نفوسهم من
أدران الحسد والأنانية ، إنما يطلب المستحيل كما أسلفنا . إذ
لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا الزادرون من الناس . أما بقية الناس
وهم الذين يؤلفون السواد الأعظم منهم ، فيسقون في حيرة من أمرهم
وقد انتابتهم الوسواس .

فالسوقي يرى نفسه مضطراً الى الاندفاع وراء أنانيته لكي
يعيش ، هذا بينما الواعظون يطاردونه في كل حين صارخين في
وجهه : ان الأنانية ذنب قبيح !. فهو قد يصبح بهذا متشاكماً يأساً
من اصلاح نفسه . وقد يجد نفسه متلبساً بالذنوب فلا يستطيع
الخلاص منها ، وتركه الخشية من عقاب الله وقد يتلى عند ذلك
بما يسمى في علم النفس بعقدة التقصير (Guilt complex) .

وعند هذا ينتهز الواعظ الفرصة ، فيهدف بالناس قائلاً : انكم
أذنبتم أمام الله فحق عليكم البلاء من عنده . والواعظ بذلك يرفع
مسؤولية الظلم الاجتماعي عن عاتق الظالمين فيضعها على عاتق المظلومين
أنفسهم ... فيأخذون بالاستغفار وطلب التوبة .

وبهذه الطريقة يستريح الطغاة . فقد أزاحوا عن كواهلهم
مسؤولية تلك المظالم التي يقومون بها ووضعوها على كاهل ذلك
البائس المسكين الذي يركض وراء لقمة العيش صباح مساء — ثم
يلاحقه الواعظون بعد هذا بعقاب الله الذي لا مرد له .

اني أكاد أجزم بأن منطق الوعظ الافلاطوني هو منطق المترفين

والظلمة . فهم يشغلون الناس بهذا المنطق قائلين لهم : لقد ظلمتم أنفسكم وبحتم عن حتمكم بظلمكم . وبهذا يستريح الظالم لاهياً بترفه وملذاته ، بينما يستغيث المظلوم ويطلب الغفران . وهنا ينطبق المثل الدارج : « أحدهما يحمل لحية ، والآخر يشكو من وخزها » .

وجدت الواعظين ذات مرة وهم يجدون أحد الطغاة على ما قام به من شدة تجاه اللصوص والسراق . فهو قد استعاد في نظرهم مجد الأجداد واستحق رضى الله ورسوله . لقد نسى هؤلاء الواعظون أو تناسوا تلك اللصوصية الكبرى التي يتعاطاها هذا الظالم المؤمن . إنه ينهب أموال الأمة وينذرهما على ملذاته وملذات أولاده وأعوانه . والله يؤيده في ذلك طبعاً . فاذا سرق الفقير درهماً واحداً زجر الله عليه وزجرت ملائكته معه ... وزجر معهم الواعظون أيضاً .

إن مشكلة الوعاظ عندنا أنهم يأخذون جانب الحاكم ويحاربون المحكوم . فتجدهم يعترفون بنقائص الطبيعة البشرية حين يستعرضون أعمال الحكم . فاذا ظلم الحاكم رعيته أو ألقى بها في مهاوي السوء ، قالوا : إنه اجتهد فاختأ ، وكل انسان يخطأ ، والعصمة لله وحده . أما حين يستعرضون أعمال الحكوميين فتراهم يرددون ويزجرون وينذرونهم بعقاب الله الذي لا مرد له ، وينسبون اليهم سبب كل بلاء ينزل بهم .

إني أريد بكتابي هذا أن ألفت الأنظار الى خطر هذا الطراز
الحديث من التفكير . فهو تفكير نما في احضان الطغاة وترعرع
على فضلات موائدهم . وقد آن الأوان لكي تتبع اليوم طرازاً
آخر من التفكير — هو تفكير البقال والحمال ، وتفكير البائس
والفقير .

إن أكثر مفكرينا اليوم يتبعون ، كما قلنا سابقاً ، ذلك
الأسلوب الذي يصفق للظالم ويبصق في وجه المظلوم .

لقد آن لنا أن ندرس الطبيعة البشرية ، كما هي في الواقع ،
فلا نعزو لها طبيعة ملائكية هي منها براء .

فالطبيعة البشرية هي لا تتغير ، سواء أكانت في القصر
الفخم أم في الكوخ الحقير . وكل إنسان يركض وراء ذاته ويود
إعلاء شأنها .

وليس من المجدي أن ننسب الأنانية والحسد للبقال أو الحمال
أو النجار وحدهم ثم ننسى ذلك النمط الغريب من التحاسد والتكالب
الذي يتعاطاه أبناء القصور .

والمؤسف أن نرى الفقير لا يستطيع أن يدافع عن نفسه .
فهو أناني كغيره من الناس ، ولكنه يتحمل وحده عبء الأنانية
التي يتهم بها الواعظون .

وتجد المترفين والأغنياء يتكالبون ويتحاسدون ، كما يفعل
الفقراء تماماً . ولكنهم يطلون أفعالهم بطلاء براق من الدعاوى

الرائنة ، والتظاهر بخدمة المصلحة العامة — ثم يأتي الواعظون من ورائهم يؤيدون ما يقولون .

ولقد أتيت لي في بدء حياتي فرصة ثمينة . حيث كنت أكسب قوتي بعرق جبين ، وعانيت من الدل والحرمان والمبانة قسوطاً كبيراً . فأدركت آنذاك مبلغ ما يقاسي أبناء السوق والصعاليك من عذاب ومثلة على أيدي الطغاة والمترفين والجلالوزة . وأدركت أيضاً مدى النفاق الذي يتعاطاه الواعظون حيث هم يندورنا دوماً بعذاب الله بينما هم يهشون ويهشون في وجوه الظلمة ويقومون لهم احتراماً وتبجيلاً .

فاذا اعتدى أحد المترفين على صعلوك ، وجدت الواعظين يضعون اللوم على عاتق هذا الصعلوك وحده . أما اذا اخطأ الصعلوك مرة فاعتدى على أحد المترفين قامت قيامتهم واخذت مواظهم تنهر على هذا المذنب من كل جانب .

لقد حكم الطغاة هذا البلد أجيالاً متعاقبة . فاعتاد سكانه بدافع المحافظة على الحياة أن يحترموا الظالم ويحتقروا المظلوم وأخذ مفكروننا يصوغون مثلهم العليا صياغة تلائم هذه العادة الاجتماعية اللثيمة . إن شر الذنوب هو أن يكون الانسان في هذا البلد ضعيفاً فقيراً .

* * *

إن المدللين والمترفين سوف لا يرضون عن هذا الكتاب طبعاً . فهو يعطيهم عن طبيعة الانسان صورة مخالفة لما اعتادوا عليه وألفوه .

إن المدلل المتترف قد اعتاد أن يرى الناس حوله وهم مغتبطون به
متزلفون إليه . فهو يظن أن الانسان يطلب الخير بطبيعته وينوب
شوقاً في خدمة الحق والحقيقة . وهذا الظن قد جاءه لكونه لم يلق
من الناس مهانة أو اعتداءً إلا نادراً .

أما أبناء الصعاليك ، من أمثالي ، فهم يمرون في حياتهم
بتجارب قاسية تكشف لهم عن حقيقة الناس من غير برقع أو طلاء .



الفصل الأول الوعظ والصراع النفسي

يكون الوعظ ذا ضرر بليغ في تكوين الشخصية البشرية اذا كان ينشد أهدافاً معاكسة لقيم العرف الاجتماعي .

فاذا ذهب الانسان الى المسجد ، أو الى المدرسة ، وأخذ يسمع وعظاً افلاطونياً يحضه على ترك الدنيا ، مثلاً ، أدى ذلك الى تكوين أزمة نفسية فيه .

فهو يحب الدنيا من أعماق قلبه ويود الاغتراف من مناهلها بكلمات يديه . وهذا دأب كل انسان في الغالب .

فالدنيا ، وما فيها من ملذات ومغريات ومطامع ، تفسد على الانسان صلاته وتخلب بصره . ولا يستثنى من ذلك إلا الشاذ النادر . والشاذ لا يقام عليه كما يقول الناطقة .

والانسان ، حين يسمع الواعظ يعظه بترك هذه الدنيا الخلابه ، يمسى حائراً . فضميره يأمره باطاعة الواعظ من ناحية ونفسه تجذبه من الناحية الثانية نحو الدنيا جذباً لا خلاص منه . فهو إذن واقع بين حجري الرحي ، لا يستطيع أن يترك الدنيا ولا يستطيع أن يترك الجنة التي وعد بها المتقون .

يحكى أن عمر بن سعد بن أبي وقاص وقع ذات يوم في مثل هذا المأزق الحرج . فهو قد وعده ابن زياد بامارة الري إن هو

خرج لقتال الحسين . فانتابته آنذاك الممساوس وبلغ منه التردد مبلغاً عظيماً . أرفض قتال الحسين وفي ذلك خسران للإمامة . أم يذهب لقتاله وفي ذلك ما فيه من وخز الضمير وسوء المنقلب . ويروى أنه كان يتقلب حينذاك على فراشه وينشد البيت التالي :

أأترك ملك الري والريّ منيتي

أم أرجع مأثوماً بقتل حسين

إن هذه رواية تروى . ونحن لا ندري مبلغ ما فيها من صدق . لكنّها على أي حال قصة ذات مغزى نفسي بعيد . فكثيراً ما تمر على أحدنا أحياناً أزمة نفسية تشبه هذه الأزمة التي مر بها ابن سعد ، حيث يقف حائراً لا يدري أي جانب يأخذ ...

وهذه الأزمة تنتاب النفوس عادة في المراحل التاريخية الحرجة التي يصطرع فيها عاملان متناقضان : عامل المبادئ العليا من جهة وعامل الاغراء والطموح من الجهة الأخرى . ولعل المرحلة التي قتل فيها الحسين بن علي تمثل هذا الصراع النفسي خير تمثيل .

وقد حدثنا المؤرخون أن كثيراً من الذين خرجوا لقتال الحسين كانوا يعانون شيئاً من هذا الصراع النفسي ، وظلوا أثناء المعركة يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى .

وهذا الصراع لم يكن معهوداً من قبل في معارك الفتوح التي كل المسلمون يحاربون فيها أعدائهم . ذلك أن كل واحد منهم كان مؤمناً آنذاك بأنه يحارب أعداء الله . فإذا حصل أحدهم أثناء

ذلك على إمارة أو غنيمة استبشرت نفسه بها فهو قد فاز بما يهفو اليه
فؤاده وما يرتاح به ضميره في آن واحد .

أما في مأساة الحسين فقد كان الأمر على خلاف هذا . إذ أن
قتلة الحسين كانوا كما وصفهم الفرزدق : « قلوبهم مع الحسين
وسيوفهم عليه » . وفي ذلك ما فيه من نزاع نفسي مريب .

شوهدهم أحدهم أثناء المعركة وهو يرتعد ويرتجف . وقد كان
معروفاً قبل ذلك بالشجاعة وشدة البأس . فستل عن ذلك فأجاب
ما معناه : « إنه يرتعد من الخيرة لا من الخوف ! » . وقد التحق
أخيراً بمعسكر الحسين وقتل معه ^(١) .

إن كلاً منا قد يصاب في يوم من الأيام بمثل هذه الأزمة
النفسية الخائفة . ولكن النادر منا من يستطيع أن يحسم هذه
الأزمة بضربة واحدة فيسرع نحو المعسكر الذي يعتقد فيه الحق
كما فعل هذا الرجل .

إن الدنيا خلاصة مغربة ، كما قلنا ، ولا يستطيع كفاح اغرائها
في نفسه إلا القليلون .

* * *

يحاول بعض الباحثين النفسيين اليوم أن يحلوا الصراع النفسي
على مختلف أنواعه ، وأن يجدوا له العلاج ^(٢) . فقد تبين لهم

(١) انظر : عباس العقاد ، أبو الشهداء ، ص ١٧٦ .

(٢) انظر على سبيل المثال : Horney , Inner Conflict .

بأن أكثر الناس مصابون بشيء منه ، قليل أو كثير . وقد وجدوا أنه قد يضمن في بعض الأفراد فيسبب لهم التواءات وانحرافات نفسية شتى .

استطاع فرويد أن يرجع كثيراً من ظواهر الحق والهستريا وارتباك الأعصاب الى التصادم الذي يحدث في داخل النفس بين مبادئ الانسان الخلقية وما يهفو اليه فؤاده من شهوات جنسية عارمة .

إن المرضى الذين عالجهم فرويد كان أغلبهم من النساء . وقد وجد فرويد أن سبب ذلك يعود الى أن المرأة كانت في ذلك الحين واقعة بين دافعين متعاكسين . فهي كانت تؤمن بأن الرغبة الجنسية إثم كبير بينما هي كانت ، من الجهة الأخرى ، مندفعه نحو اشباع تلك الرغبة اندفاعاً لا شعورياً عنيفاً .

إن المجتمعات الحديثة بدأت تقضي على بعض أسباب هذا الصراع النفسي ، حين اطلقت الحرية للمرأة ورفعت من مستواها الثقافي والاقتصادي وسمحت لها بالاختلاط مع الرجل وبمغازلته ومراقبته وملاعبته (١) .

* * *

(١) لا نكران أن المجتمعات الحديثة ابتليت من جراء هذا العلاج الذي اتبعته في شأن المرأة بأدواء اجتماعية أخرى . وكأن الداء لا يعالج الا بداء آخر . ولكن الرأي قد استقر أخيراً على أن أي داء ، مهما كان ، هو خير من داء الصراع النفسي الذي يورث النفاق في المجتمع والالتئام العصبي في الفرد .

ومما يورث أيضاً الصراع النفسي هو ما يشعر به الانسان من حب للمال أو الجاه أو الشهوة وما يوضع في معاكسة ذلك من مبادئ مثالية تتشدد في احتقاره وفي ذم الساعين اليه .

وقد يسمي الصراع النفسي على أشده حين يكون العرف الاجتماعي مقدراً للمال والجاه وإذا ذلك يكون الانسان حائراً : حيث تدفعه القيم الاجتماعية من جهة نحو جمع المال والحصول على الجاه ، بينما يؤكد الواعظون من الجهة الأخرى على أن جمع المال رذيلة وحب الجاه ذنب فظيع .

من خصائص الطبيعة البشرية أنها شديدة التأثر بما يوحى العرف الاجتماعي اليها من قيم واعتبارات . فالانسان يود أن يظهر بين الناس بالمظهر الذي يروق في أعينهم . فإذا احترم الناس صفة معينة ترى الفرد يحاول شتى المحاولات للاتصاف بتلك الصفة وللتباهي بها والتنافس عليها .

وشر المجتمعات هو ذلك المجتمع الذي يحترم طريقاً معيناً في الحياة في الوقت الذي ينصح الواعظون فيه باتباع طريق آخر معاكس له .

وفي هذا المجتمع ذي الوجهين ينمو الصراع النفسي لدى بعض الأفراد ، ويأخذ بتلايينهم . وقد يلجأ كثير منهم الى حياة الانزاع أو الزهينة . إنهم لا يستطيعون أن يوفقوا في أنفسهم بين تينك الدافعين المتناقضين ، ولذا نراهم طلقوا الدنيا وذهبوا

الى صوامعهم أو ابراجهم العاجية يجترونها مثلهم العليا اجتراراً .
أما الباقون من الناس ، من الذين لا يستطيعون الاعتزال ،
فغراهم يلجأون ، في سبيل التوفيق بين مبادئ الوعظ وقيم المجتمع ،
الى حيلة أخرى — هي ما نسميها بازديواج الشخصية ^(١) .

فنجدهم آنذاك قد تقمصوا شخصيتين مختلفتين . إحداهما تصفي
لما ينصح به الواعظون ثم تتمسك به ، والأخرى تندفع وراء
ما يروق في أعين الناس من مال أو جاه أو اعتبار .

ومن الجدير أن نذكر ان للانسان عقليين : ظاهر وباطن .
واننا ، حين نعظ الانسان في هذه الحالة ، لا نؤثر إلا في عقله
الظاهر فقط . أما عقله الباطن فهو لا يفهم من مواعظنا ونصائحنا
شيئاً إذ هو مشغول بما يوحي العرف الاجتماعي اليه من قيم
واعتبارات .

إن الانسان ، كما ألحنا اليه آنفاً ، يود من صميم قلبه أن
يكون محترماً بين الناس مرموقاً يشار اليه بالبنان . وقد يختلف
الناس في كثير من الأمور ، لكنهم متفقون في حب الشهرة
والمكانة الاجتماعية . إن هذا حافز كامن في أعماق النفس لا يستطيع
الانسان أن يتخلص منه إلا قليلاً . ومن قال لك : انه لا يريد
اعلاء مكانته الاجتماعية ، فهو كذاب يحاول أن يغشك أو يضحك
على ذقنك .

والانسان ، حين يرى قومه يحترمون المال ويقدرّون أصحابه ،
تجده قد اندفع نحو المال يجمعه فلا يبالي أن يسرق أو يحتكر أو
يرتشي أو يغصب . ذلك أنه يرى رأي العين ما يأتي به المال من
جاء ونفوذ في نظر الناس . فهو يسعى نحو الغاية التي يقدرها الناس ،
ويستسيغ آنذاك كل وسيلة في هذا السبيل .

أما اذا جاءه الواعظون أثناء ذلك يدكرونها بتقوى الله ،
فتلك موعظة لا تدخل الى اعماق نفسه . انه قد يعظ الناس مثلهم
عند الحاجة ، لأن عقله الظاهر قد امتلأ بهذه المواعظ منذ صغره ،
فهو يحفظها ويلقيها على غيره ، ولكنه لا يتأثر بها ما دامت
معاكسة لقيم العرف الاجتماعي الذي نشأ فيه .

وهو بهذا المعنى أصبح مزدوج الشخصية . وازدواج
الشخصية هذا يختلف من بعض الوجوه عن النفاق . فلنناقش ازدواج
في قوله أو فعله ، ولكنه يعرف انه مزدوج . إذ هو يتقصد
هذا الإزدواج لكي يتزلف الى شخص أو يطلب منه شيئاً .

أما مزدوج الشخصية فهو لا يدري بازدواجه وهو لا يريد أن
يدري . إن له في الواقع وجهين : يداري الواعظين بأحدهما
ويداري بقية الناس بالآخر . واذا ذكر بهذا أنكر ... وربما
أرعد وزمجر .

والمشكلة آتية من كونه يهاب مرارة الصراع النفسي . فهو

لا يريد أن يعترف بازدواج شخصيته لكي لا يشعر بوجود عاملين متعاكسين في نفسه .

وقد لاحظت ، بعد دراسة طويلة ، إن العرب مصابون بداء ازدواج الشخصية أكثر من غيرهم من الأمم . ولعل السبب في ذلك ناشئ عن كونهم وقعوا أثناء تطورهم الحضاري تحت تأثير عاملين متناقضين : هما البداوة والاسلام .

فهم في بدء أمرهم بدو عاشوا في الصحراء ، ثم جاءهم الاسلام بعد ذلك يحمل من التعاليم ما يخالف قيم البداوة القديمة (١) .

إن قيم البداوة تحرّض على الكبرياء وحُب الرئاسة وتفتخر بالنسب . أما الاسلام فهو دين الخضوع والتقوى والعدالة وما أشبه . ولعلي لا أبالغ إذا قلت بأن العربي بدوي في عقله الباطن ، مسلم في عقله الظاهر . فهو يمجّد القوة والفخر والتعالي في أفعاله بينما هو في أقواله يعظ الناس بتقوى الله وبالمساواة بين الناس .

ولست أقصد بذلك أن جميع العرب في هذه الحالة سواء . إن الازدواج يظهر جلياً في تلك المناطق من بلاد العرب التي هي قريبة من البداوة من جهة ويكثر فيها رجال الدين من الجهة الأخرى . فالعراقي ، مثلاً ، أكثر ازدواجاً من غيره من أبناء الأمم العربية الأخرى . ولذلك سببان :

السبب الأول : إن العراق كان ، ولا يزال ، يتلقى من

(١) انظر : أحمد أمين ، فجر الاسلام ، الباب الثاني ، الفصل الأول .

الموجات البدوية قسطاً يفوق ما تتلقى البلاد العربية الأخرى . فهو سهل منبسط كثير الخيرات ، وقد أدى هذا الى انثيال البدو عليه منذ قديم الزمان ، ولا يزالون حتى يومنا هذا يفدون عليه ويستقرون فيه تدريجاً . فالمجتمع العراقي إذن قد وقع تحت تأثير القيم البدوية أكثر من غيره من البلاد الأخرى — باستثناء المجتمع النجدي طبعاً .

والسبب الثاني : هو أن العراق كان منذ صدر الاسلام منبعاً من منابع الفرق الدينية ومهبطاً لكثير من مبادئ الاسلام وتعاليمه وافكاره . وفيه نشأ المناطق وارباب العلم والفلسفة ، وفي ارجائه بُجّت اصوات الواعظين والمرشدين .

لا غرو بعد هذا اذا وجدنا داء ازدواج الشخصية ظاهراً في العراق يتحلى به كثير من أبنائه ^(١) .

وقد يصح القول بأن ازدواج الشخصية يضعف كلما ابتعدنا عن الصحراء واتجهنا نحو مراكز المدنية . ونستطيع أن نصنّف البلاد العربية ، من هذه الناحية ، على أساس بعدها أو قربها من الصحراء — منبع القيم البدوية ^(٢) .

(١) انظر : علي الوردي ، شخصية الفرد العراقي ، ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) سوف نجد القاري تفاصيل أوفى ، حول طبيعة العرب بصورة عامة ، وطبيعة العراقيين بصورة خاصة ، في كتابنا القادم « العراق وقيم البداوة » .

إن المفكرين العرب قد حلتوا في سماء الوعظ كثيراً ، فلم
يقربوا أسلوب وعظهم من أسلوب الواقع الذي يعيش الناس فيه .
وبهذا أصبحت هناك فجوة واسعة بين واقعية الحياة ومثالية الفكر
عندهم . وكثيراً ما نجد واعظاً يعظ في مجتمع عشائري إذ يحض
الناس على التقوى والعدل والانسانية ، ثم نجده بعد ساعة يخرص
أحد الناس على قتل أخته لسوء سمعتها ، أو يذم آخر لأنه في زعمه
« مخنث » لا يرد الصفعة بعشرة أمثالها .

أعرف شخصاً من أولي الدين والتهجد حيث يقضي أكثر
أوقاته بالتسبيح وقراءة كتب الحديث وسماع المواعظ . ولكنه
كان في نفس الوقت عشائرياً في قيمه الاجتماعية . وقد رأيت ذات
يوم يذكر لي أعماله في الدفاع عن أبناء عشيرته على سبيل الفخار
والمباهاة . وأخذ يحدثني كيف أخرجهم ذات يوم من موقف
الشرطة بتوسطاته وكيف أخفى سرقاتهم عنده وجعل المسروقين
يندون إليه متوسلين خائعين يرجونه أن يرد المسروقات اليهم ،
وهو يتغطرس عليهم ويتعجرف ويذكرهم بفخار الآباء والأجداد .
وقد شاهدت في مجلس من المجالس أحد أبناء العشائر وهو
يردد أحاديث النبي في شأن العدالة والرحمة بالناس ويرفع صوته
بها . ثم علمت أخيراً أنه من أولي الغضب الشديد إذ هو لا يبالي
أثناء غضبه أن يقتل الناس الذين منع النبي من قتلهم .

رأيت في هذا الرجل مثلاً رائعاً لازدواج الشخصية . فكان

الموجات البدوية قسماً يفوق ما تتلقى البلاد العربية الأخرى .
فهو سهل منبسط كثير الخيرات ، وقد أدى هذا الى اثتال البدو
عليه منذ قديم الزمان ، ولا يزالون حتى يومنا هذا يفدون عليه
ويستقرون فيه تدريجاً . فالمجتمع العراقي إذن قد وقع تحت تأثير
القيم البدوية أكثر من غيره من البلاد الأخرى — باستثناء المجتمع
النجدى طبعاً .

والسبب الثاني : هو أن العراق كان منذ صدر الاسلام منبعاً
من منابع الفرق الدينية ومهبطاً لكثير من مبادئ الاسلام وتعاليمه
وافكاره . وفيه نشأ المناطق وارباب العلم والفلسفة ، وفي ارجائه
نُجحت اصوات الواعظين والمرشدين .
لا غرو بعد هذا اذا وجدنا داء ازدواج الشخصية ظاهراً في
العراق يتحلى به كثير من أبنائه (١) .

وقد يصح القول بأن ازدواج الشخصية يضعف كلما ابتعدنا عن
الصحراء واتجهنا نحو مراكز المدنية . ونستطيع أن نصنف
البلاد العربية ، من هذه الناحية ، على أساس بعدها أو قربها من
الصحراء — منبع القيم البدوية (٢) .

(١) انظر : علي الوردي ، شخصية الفرد العراقي ، ص ٣٩ وما بعدها .
(٢) سوف نجد التاري تفصيل أوفى ، حول طبيعة العرب بصورة عامة ،
وطبيعة العراقيين بصورة خاصة ، في كتابنا القادم « العراق
وقيم البداوة » .

إن المفكرين العرب قد حلقوا في سماء الوعظ كثيراً ، فلم يقرّوا أسلوب وعظهم من أسلوب الواقع الذي يعيش الناس فيه . وبهذا أصبحت هناك فجوة واسعة بين واقعية الحياة ومثالية الفكر عندهم . وكثيراً ما نجد واعظاً يعظ في مجتمع عشائري إذ يحض الناس على التقوى والعدل والانسانية ، ثم نجده بعد ساعة يخرّض أحد الناس على قتل أخيه لسوء سمعتها ، أو يذمّ آخر لأنه في زعمه « مخنث » لا يرد الصفعة بعشرة أمثالها .

أعرف شخصاً من أولي الدين والتهجد حيث يقضي أكثر أوقاته بالتسييح وقراءة كتب الحديث وسماع المواعظ . ولكنه كان في نفس الوقت عشائرياً في قيمه الاجتماعية . وقد رأته ذات يوم يذكر لي أعماله في الدفاع عن أبناء عشيرته على سبيل الفخار والمباهاة . وأخذ يحدثني كيف أخرجهم ذات يوم من موقف الشرطة بتوسطاته وكيف أخفى سرقاتهم عنده وجعل المسروقين يفلتون اليه متوسلين خائعين يرجونه أن يرد المسروقات اليهم ، وهو يتعطر عليهم ويتعجرف ويذكرهم بفخار الآباء والأجداد . وقد شاهدت في مجلس من المجالس أحد أبناء العشائر وهو يردد أحاديث النبي في شأن العدالة والرحمة بالناس ويرفع صوته بها . ثم علمت أخيراً أنه من أولي الغضب الشديد إذ هو لا يبالي أثناء غضبه أن يقتل الناس الذين منع النبي من قتلهم . رأيت في هذا الرجل مثلاً رائعاً لازدواج الشخصية . فكان

عقله الظاهر عند الوعظ مفعماً بحب النبي وبتريد أحاديثه ، أما عقله
الباطن فكان بدوياً لا يفهم من الاسلام إلا شهادة « لا إله إلا
الله » ... والركوع والسجود .

لا ريب انه استطاع بهذا الازدواج أن ينقذ نفسه من وبال
الصراع النفسي .

* * *

إن تاريخ التصير الاجتماعي الذي أدى الى استفحال الازدواج
في المجتمع العربي هو تاريخ طويل وقد مر في مراحل شتى .
والبنرة التي نشأ حولها هذا التصير انبعثت ، كما ينذا آفقا ، من
جراى النزاع الاجتماعي بين قيم الاسلام وقيم البداوة .
إن قيم الاسلام وقيم البداوة متناقضة بطبيعتها — كما قلنا سابقا .
ولكن هذا التناقض لم يظهر في عهد النبي وفي عهد أبي بكر وعمر
من بعده . وذلك لأن الكفاح المتواصل ضد الأجانب وحد
الهدف وأشغل النفوس بما أثر الغزو والفتح وتأسيس الدولة .
إن الطبيعة البدوية هي طبيعة الحرب . فالبدوى لا يفهم من
دينه غير التفاخر بالقوة والشجاعة والغلبة ، وهذه تؤدى عادة الى
حب التعالى والرئاسة والكبرياء .

وقد اشتهر البدوى انه مشاغب حسود مبال الى النزاع ، فاذا
لم يجد من ينازعه من الغرباء مال الى النزاع مع ابن عمه أو أخيه .
يقول القطامي — الشاعر الجاهلى — من قصيدة له معروفة :

فمن تسكن الحضارة أعجبه
فأي رجال بادية ترانا

ومن ربط الجحاش فان فينا
قنا سلبا وأفراسا حسانا

وكن اذا أغرن على قيل
فاعوزهن نهب حيث كانا

أغرن من الضباب على حلال
وضبة انه من حان حانا

وأحيانا على بكر أخانا
اذا ما لم نجد إلا أخانا

قد يتضح من هذا أن البدوي مهن على الغزو وأصبح جبلة فيه لا يستطيع منها خلاصا . وفي رأي البرفسور فيليب حتى : ان نزعة القتال أصبحت عند البدو حالة عقلية مزمنة فحياة الصحراء في رأيه على حافة المجاعة دائما ، والقتال يكون هناك بمثابة صمام أمن يمنع السكان من التكاثر . ولهذا أصبح الانتقام وطلب الثأر أقوى نظام ديني واجتماعي في مجتمع البداوة ^(١) .

ولا يخفى أن هذه الطبيعة البدوية تناقض روح الاسلام . ذلك أن الاسلام يدعو الى التواضع واللطف والتقوى والعدل والمساواة بين الناس . والبدوي لا يستطيع أن يكون مسلماً حقيقياً إلا في بعض الأحيان — وذلك حين يكون المجتمع الاسلامي في حرب مع أعدائه .

والاسلام كان في عهد النبي وأبي بكر وعمر منهمكاً في قتال الروم والفرس . وقد انشغل البدو بهذا القتال انشغلاً جعل الطليعتين المتناقضتين تستهدف غاية واحدة هي النصر على أعدائهم واعداء الله .

لقد وحد محمد القبائل العربية المتنافرة لأول مرة في التاريخ . وقنف بهم الى حرب الروم والفرس . . كان البدو قبل محمد يحارب بعضهم بعضاً . أما بعده فقد اخذوا جميعاً يحاربون عدواً مشتركاً . لقد بقيت فيهم نزعة القتال التي مرثوا عليها قديماً فاستثمروها في حرب العدو المشترك استثماراً عظيماً . وتم لهم بذلك تأسيس امبراطورية من اعظم امبراطوريات التاريخ القديم . وبهذا لم يجد البدو تناقضاً بين طبيعتهم القديمة وطبيعة الاسلام الجديدة . شغلوا بالفتح فنسوا عاداتهم الأولى ، أو لعلهم وجدوا لها منفساً في حرب عدوهم المشترك . أما حين وقف الفتح ، فقد رجع البدو يتنازعون فيما بينهم على طريقتهم القديمة .

ولسوء حظ الخليفة عثمان ، ان الفتح توقف في عهده . فلو كان الفتح مستمراً في أيامه لما حدثت على الأرجح تلك الانتفاضة الكبرى التي هزت أركان المجتمع الاسلامي كله ^(١) .

ففي المؤتمر الذي جمعه عثمان للتشاور في اصلاح الأمر وقمع الفتنة قبل اشتدادها ، قال عبد الله بن عامر أحد ولاته على الأمصار : « رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك وأن تجرمهم في المغازي حتى يذلوا لك فلا يكون همهم أحدهم إلا نفسه ... » ^(٢)

ولعل هذه النصيحة التي قدمها بن عامر الى عثمان هي النصيحة العملية الوحيدة التي كانت قادرة على محق تلك الفتنة . وقد استطاع الحجاج بعد ذلك أثناء حكمه العراق أن ينفذ هذه النصيحة تنفيذاً صارماً . ففي خطبته المشهورة التي افتتح بها عهده في ولاية العراق قال : « ... واني والله لا أعد إلا وفيت ولا أعم إلا أمضيت ولا أخلق إلا فريت ! فإياي وهذه الجماعات ، وقال وقيل وما يقول ، وفيم أنتم وذاك . أما والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده ! من وجدت بعد ثلاثة من بعث المهلب سفكت دمه وانتهت ماله . » ^(٣)

(١) سبغت في هذه الانتفاضة الاجتماعية في كتابنا القادم « منبأ الحركات

الاجتماعية في الاسلام » .

(٢) انظر : عباس العقاد ، عبقرية الامام ، ص ٧٢ — ٧٣ .

(٣) انظر : الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .

فأخذ أهل العراق إثر تلك الخطبة الجهنمية يهرعون الى جيش
المهلب بن أبي صفرة يتطوعون فيه . وقد فتح المهلب بهم فتحاً
عظيماً فيما وراء النهر .
هدأ أهل العراق في الحين الذي صعد فيه أهالي البلاد المفتوحة .

* * *

يبدو أن عثمان لم يستطع أن ينفذ السياسة التي نصحه بها عامله
ابن عامر . وأحسب أن خلقه الرضي وطبعه المسلم منعاه من الاصغاء
الى تلك النصيحة .

ومما زاد في الطنبور نعمة أن عثمان كان محباً لأقربائه حباً يلفت
النظر . وأقرباؤه هؤلاء كانوا ، فوق ذلك ، من الذين دخلوا
الاسلام بعد الفتح فلم يتغلغل الايمان في قلوبهم تغلغلاً عميقاً . فأخذوا
يحتكرون مرافق الدولة ويوزعونها على الأحباء والأصحاب (١) .
فثارت الثورة عليهم ، واشتعل بها الأخضر واليابس .
وصف علي بن أبي طالب اقرباء عثمان والثائرين عليهم وصفاً
حكيماً ، حيث قال ما معناه : استأثر هؤلاء فأساؤا الاثرة ،
وجزع اولئك فأساؤا الجزع .

ومعنى ذلك ان تلك الثورة كل لها دافعان : التطرف في
الاستئثار من جانب الحكم والتطرف في الجزع من جانب الرعية .
والواقع ان كل ثورة تنشأ عن مثل هذين الدافعين . إذ يبدأ

الاعتداء من جانب فينتقم منه الجانب الآخر انتقاماً فظيعاً.

والثائرون عادة يحتاجون الى نوعين من الحوافز : حافز عقلي
وحافز عاطفي .

ففي الثورة على عثمان كان الحافز العقلي لها هو ما يبثه القراء
والصحابة والأتقياء من مبادئ العدل والمساواة والزهد . أما الحافز
العاطفي فكان كامناً في طبيعة الحرب التي مرن عليها البدو ^(١) إذ
هم يحاربون أخاهم حين لا يجدون من يحاربون غيره — كما
قال القطامي .

كان عثمان يعاتب الثائرين عليه بأنهم ينقمون عليه أموراً كان
يفعلها عمر بن الخطاب . يروى أنه صعد المنبر ذات مرة فقال :
« ... ألا فقدنا والله عتيم عليّ بما أقررتكم لابن الخطاب بمثله ،
ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه فدنتم له على
ما أحبيتم أو كرهتم . ولنت لكم واوطأت لكم كفتي ، وكففت
يدي ولساني عنكم ، فاجترأتم عليّ ... » ^(٢)

وهذا القول من عثمان صحيح على وجه من الوجوه . فعثمان لم
يكن يختلف في سلوكه الشخصي عن عمر اختلافاً كبيراً . لقد كان ،

(١) انظر : Khadduri , The Law of war ... , p. 34

(٢) انظر : طه حسين ، الفتنة الكبرى ، ج ٢ ص ٢٠٤ — ٢٠٥

والحق يقال ، مؤمناً صالحاً . ولكنه كان يتحيز لأقربائه تحيزاً ظاهراً . والناس لا يحبون من الحاكم أن يتحيز لأي إنسان كائناً من كان . والحاكم البعيد النظر هو من يبعد عن نفسه شبهة التحيز ما استطاع الى ذلك من سبيل .

كان عمر يقسو على نفسه وولده قبل أن يقسو على الناس . وهذا أمر له أهمية اجتماعية كبيرة . فالناس حين يرون الحاكم شديداً على نفسه يتحملون شدته عليهم . ويفسرون كل عمل يقوم به تفسيراً حسناً .

أما الحاكم الذي يداري نفسه وأقربائه فيكون عرضة لانتقاد رعيته له وبخشم عن عيوبه . ومهما حاول هذا الحاكم أن يفعل الخير لرعيته ، فسروا ذلك منه تفسيراً غير صحيح ، ونسبوا اليه القصد السيئ .

كان عثمان يدلل أقرباءه وينعم عليهم ويفضلهم على غيرهم في الوظائف^(١) . وهو مهما كان حسن النية مخلصاً فان رعاياه لا يعترفون بذلك . إن الناس يعتمدون في احكامهم على ظاهر الأمور . وكل عمل يقوم به الحاكم في سبيل مصلحته أو مصلحة اقربائه يشيع خبره في الناس وتتناقله الأفواه وتشتد المبالغة فيه يوماً بعد يوم .

كان عثمان يجد لنفسه مبرراً شرعياً في تحيزه لأقربائه . قالوا له :

(١) انظر : Wellhausen , Arab Kingdom ... , p. 14 — 42

إن أبا بكر وعمر لم يتحيزا لأقاربهما كما تحيزت ، فأجابهم قائلاً :
انهما منعوا قرابتهما ابتغاء وجه الله ، وأنا أعطي قرايتي ابتغاء
وجه الله (١) .

ويروى أن عثمان منح زوج ابنته يوم عرسه مائتي
الف درهم . فجاء خازن بيت المال ، زيد بن أرقم ، يحتاج على
ذلك بائعاً ويسأله أن يعفيه عن عمله . فقال له عثمان مستغرباً :
« أتبكي يا ابن أرقم أن وصلت رحمي ؟ » فأجاب الخازن قائلاً :
« لا يا أمير المؤمنين . ولكن أبكي لأنني أظنك أخذت هذا المال
عوضاً عما كنت أنفقت في سبيل الله في حياة رسول الله . والله
لو أعطيته مائة درهم لكان كثيراً » .

فغضب عثمان من هذا القول وقال له : « إلق بالمفاتيح يا ابن
أرقم فانا سنجد غيرك » (٢) .

إن سياسة « المحسوبية » هذه التي اتبعها عثمان أثارت عليه
الناس . فأُمست هناك نخوة نفسية بينه وبين رعيته . وأخذ الناس
يفسرون كل عمل آخر يقوم به تفسيراً سيئاً .

أراد عثمان الخير للناس في كثير من أعماله مثل توسيع المسجد
النبيوي أو توحيد القرآن أو زيادة العطاء أو توفيد الأمصار أو
إطلاق الصحابة أو غيرها ، لكن الناس اعتبروها أعمالاً مضرة

(١) انظر : سيد قطب ، العدالة الاجتماعية في الإسلام ، ص ١٩١ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ١٩٠ — ١٩١ .

وشنعوا عليه بها . حتى قالوا اثناء توسيع المسجد ما معناه : « يوسع مسجد النبي ويترك سنته » ^(١) .

ومن غريب ما يروى في هذا الصدد ان العباس بن عبد المطلب ، وكان رجلاً معروفاً بعد النظر ، قال لعثمان ما نصه : « . . . فلو انك اتهمت نفسك للناس ، اتهم الناس أنفسهم لك . ولو انك نزلت مما رقيت ، وارتقوا مما نزلوا ، فأخذت منهم واخذوا منك ، ما كان بذلك بأس » ^(٢) .

فهذا القول من العباس يشير إشارة واضحة الى طبيعة المشكلة الاجتماعية التي كان يعانيها عثمان . إنها فجوة نفسية تزداد على مرور الأيام . فأبي عمل يقوم به عثمان يستاء منه الناس ، وأي عمل يقوم به الناس تجاهه يستاء منه عثمان .

وهكذا بدأت في المجتمع الاسلامي أول بادرة من بوادر الفجوة بين الحاكم والمحكوم .

أما في عهد عمر بن الخطاب فكان الأمر على النقيض من ذلك . إن عمر لم يكن معصوماً وكثيراً ما كان يخطئ . ويتطرف في أعماله . هذا ولكن الناس كانوا يحمدهونه ويقدرونه على كل حال . فقد كان بين عمر ورعاياه تجاوب نفسي عميق . والسر في ذلك هو ما كان عليه عمر من زهد وتعفف وعدل صارم .

(١) انظر : طه حسين ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٦٨

(٢) انظر : عمر أبو النصر ، عثمان بن عفان ، ص ١٨٦ .

علم ذات يوم أن أحد أولاده شرب خمرًا فأمر بجلده حتى مات .
فانتشر خبر ذلك في الناس واخذوا يتناقلونه ويبالغون فيه ، وبذا
أصبح عمر في نظر الناس فوق الشبهات . فاذا انتقده أحد على شيء
صرخ فيه الناس قائلين : اسكت . . لو كان عمر كما تقول لعفى
عن ولده وفلذة كبده .

وبهذا أصبح الحاكم والمحكوم جسمًا واحدًا لا فجوة فيه ،
وتماسك المجتمع تماسكًا قويًا .

إن الفجوة لا تكاد تظهر بين الحاكم والمحكوم حتى تأخذ
بالتوسع يوماً بعد يوم . ويأخذ الحاكم والمحكوم ، آنذاك ، بالتنازع
وأعلان الخصومة . كل يعمل من جانبه على ما يثير الشبهات
ويحفز الأحقاد .

إن الفجوة التي تحدث بين الحاكم والمحكوم هي فجوة اعتبارية
ونفسية أكثر منها حقيقية . وقد رأينا ذلك جلياً في حكومة العراق
الحاضرة . فكل عمل تقوم به هذه الحكومة يفسره الناس تفسيراً
سيئاً . وذلك لأنهم اعتادوا أن يروا حكامهم متحيزين براعون
أقرباءهم وأصحابهم أكثر مما يراعوا غيرهم .

إن كل فجوة نفسية بين الحاكم والمحكوم تؤدي حتماً إلى الثورة
ما لم تستأصل في وقت قريب .

حدث مثل هذه الفجوة النفسية في أيام عثمان . وكما
حاول عثمان أن يتقرب من رعاياه ويصالح الأمر وقف أقرباؤه

حجر عثرة في طريق ذلك وافسدوا عليه الأمر^(١) .
وكانت الثورة عليه فاتحة عهد طويل مملوء بالثورات والفتن
والانتفاضات المتنوعة .

كان مقتل عثمان حجة قوية اتخذها أقرباؤه لمكائفة الثورة
والوقوف دون الوصول الى أهدافها المقررة . رفع الأمويون قيص
عثمان على المنابر واتخذوه شعاراً لهم في حركاتهم التعويقية . وقد
اصحح « قيص عثمان » مشهوراً في التاريخ ، يضرب به المثل في من
يستعمل كلمة الحق في سبيل الباطل .

أخذت الثورات تتلاحق أيام الحكم الأموي . فالأمويون
استمروا فيما بدأوا فيه أيام عثمان من الاستئثار بالحكم والتعالي
على الناس .

ثابر الأمويون على اتباع طريق البداوة في الحكم . فلجأ الفقهاء
والزهاد يثيرون الناس عليهم ويأتون بتعاليم الاسلام الأولى لمكائفتهم
والانتقاص منهم .

ولو درسنا هذه الثورات المتواصلة دراسة نفسية لوجدناها عبارة
عن مظهر خارجي لما كان يحدث في داخل النفس من صراع دفين .
والفجوة بين الحاكم المحكوم تنبعث في كثير من الأحيان عن
ما يمكن في داخل النفس من نزاع بين نظامين متعاكسين من القيم .

(١) انظر : عباس العقاد ، عبقرية الامام ، ص ٧٣ — ٧٦

كان الناس في ذلك الحين مصابين بداء الصراع النفسي بشكل
عنيف . فهم كانوا بدوياً في أعماق نفوسهم . وكانوا يطالبون
الحكام باتباع تعاليم الاسلام .

وبعبارة أخرى : كانت قلوبهم بدوية وألسنتهم اسلامية .

فكانوا يطالبون الحاكم بالعدل والمساواة بينما هم كانوا في واقع
أمرهم كغيرهم من أبناء القبائل أولي كبرياء وتفاخر بالأنساب
والأحساب . وكان الفرد آنذاك يحتاج على الحكام بالحجة الدينية
ثم يثور عليهم بالسيف البدوي . فهو في أعماله قبلي فخور ، وفي
أقواله تقي زاهد .

إنه لا يستطيع أن يتبع مبادئ الاسلام اتباعاً عملياً ، فذلك
يناقض ما نشأ فيه واعتاد عليه من عادات بدوية . ولكنه مع ذلك
يطالب الحكام أن يكونوا مسلمين حقاً .

وكان الحكام يكرهون منه هذا الازدواج ويذمونه فيه .

والحكام عادة يمثلون في سلوكهم النمط الواقعي الذي يسير عليه
الناس في حياتهم العملية . فهم قد ينطبق عليهم قول النبي محمد
« كيفما تكونوا يولى عليكم » . إنهم لا يبالون بما يتفوه به الناس
في احتجاجهم واعتراضهم ، إذ يسرون في ضوء ما تقتضيه عادات
الناس بشكلها الواقعي . وهم بذلك يتدمرون حين يرون الناس
يقولون ما لا يفعلون .

والواقع أن معظم الثورات هي ذات طبيعة مزدوجة على هذا

النوال . ولا تلام في ذلك . فمن طبيعة الانسان أن يطالب بالعدل ولا يطبقه على نفسه . والمفروض في الحاكم العادل أن يستجيب لمطالب الناس دون أن ينظر الى أعمالهم أو يلومهم عليها . وبهذا تتقدم الحضارة البشرية تقدماً متواصلاً الى الامام .

* * *

وصف علي بن ابي طالب الناس في عهده قائلاً : « واعلموا أنكم صرتم بعد الهجرة أعراباً وبعد الموالاة أحزاباً ، ما تتعلقون من الاسلام إلا باسمه ، ولا تعرفون من الايمان إلا رسمه . تقولون (العار ولا النار) كأنكم تريدون أن تكفثوا الاسلام على وجهه ... » (١)

وعلي بن أبي طالب هذا لم يكن حاكماً بالمعنى المؤلف بين الناس . إنه كان ثائراً وظل ثائراً حتى مات — كما سندكره في فصل قادم . وهو قد كان ثائراً قلباً وقالباً فلم يكن مزدوجاً . ولذا وجدناه متألماً مما رأى في جماعته من ازدواج ، إذ كانوا يؤيدونه بأقوالهم ويثبطونه بأعمالهم .

وهذا كان من أوكد الأسباب في فشل الثورات المتعاقبة التي انتفض بها المجتمع الاسلامي في أيامه الأولى . قلوب الناس مع الثائر وسيوفهم عليه .

يقال ان معاوية سأل أحد الخبراء بأحوال الأمصار الاسلامية

عن طبيعة كل مصر منها فأجابه الخير : « أهل المدينة أحرص
الأمّة على الشر وأعجزهم عنه . وأهل الكوفة يردون جميعاً
ويصدرون شتى . وأهل مصر أوفى الناس بشراً وأسرعهم الى ندامة .
وأهل الشام أطوع الناس لمرشدكم وأعصام لمفويهم » ^(١) .

لا يخفى أن هذا التصنيف للأمصار الاسلامية هو تصنيف رجل
من المرتزقة يريد أن يتقرب به الى الأمير . فهو قد اعتبر جميع
الأمصار رغبة في الشر باستثناء أهل الشام . فأهل الشام هم الخيرون
الوحيدون في نظر هذا الخير . وفي نظري : انهم الوحيدون بين
أهل الأمصار الاسلامية في خلو أنفسهم من الصراع النفسي .
صعد عبد الملك بن مروان منبر المدينة فقال مخاطباً أهل المدينة
ومهداً لهم :

« ... ألا واني لا أداوي أمر هذه الأمّة إلا بالسيف حتى
تستقيم قناتكم ، وانكم تحفظون أعمال المهاجرين الأولين ولا
تعملون مثل أعمالهم . وأنكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك
من أنفسكم . والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا
ضربت عنقه » ^(٢) .

وقد ضرب الحجاج على مثل هذا الوتر مع أهل الكوفة عندما
عينه عبد الملك والياً عليها . فهو قد وصف أهل العراق بأنهم « أهل

(١) انظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج ٥ ص ٣٤

(٢) انظر : جرجي زيدان ، التمدن الاسلامي ، ج ٤ ص ٨٣

الشقاق والنفاق ومساوى "الأخلاق" (١) . وقد صار هذا الوصف مثلاً في افواه الناس حتى عصرنا هذا . فاذا ذكر أهل العراق ذكر ايضاً أنهم أهل نفاق وشقاق .

وقد حاول الجاحظ أن يعلل هذه الصفة الخبيثة التي عرف بها أهل العراق بالمقارنة مع أهل الشام ، فقال :

« العلة في عصيان أهل العراق على الأمراء وطاعة أهل الشام ان أهل العراق أهل نظر وذوو نظرة ثاقبة ، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث ، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال والتمييز بين الرؤساء واظهار عيوب الأمراء ، وأهل الشام ذوو بلادة وتقليد عن مغيب الأحوال ، وما زال العراق موصوفاً أهله بقلّة الطاعة وبالشقاق على أولى الرئاسة » (٢) .

إن الجاحظ لم يأت بشيء جديد في هذا التعليل . فهو يقول : إن العراق أهل نظر وفطنة وأهل الشام أهل بلادة وتقليد . وهو بهذا زاد المشكلة تعقيداً . فقد يعترض عليه معترض ويقول : ولماذا صار أهل العراق أهل نظر ، وأهل الشام أهل تقليد ؟

يبدو أن الجاحظ يحاول أن يعلل هذه الظاهرة الاجتماعية على أساس التفاوت الطبيعي بين جبلة أهل العراق وجبلة أهل الشام . وهذا تعليل لا يقره عليه علم الاجتماع الحديث .

(١) انظر : الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ص ٢٤٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٩٤ « الحاشية » .

إن طبيعة البشر واحدة في كل زمان ومكان . والاختلاف بينهم يرجع في الغالب الى اختلاف في تكوين المجتمع الذي ينشأون فيه . والظاهر أن السبب الذي جعل أهل العراق أهل فطنة ونظر ، وأهل شقاق ونفاق ، هو واحداً لا يتجزأ .

ومن يدرس المجتمع الاسلامي الذي نشأ في العراق يجده مختلفاً كل الاختلاف عن المجتمع الذي نشأ في الشام . لقد كان كلا المجتمعين مؤلفاً من البدو ، هذا ولسكن الطبقة العليا التي كانت تسود المجتمع العراقي تختلف عن تلك التي كانت تسود المجتمع الشامي . فقد لجأ الى الشام اشراف قريش - من الأمويين وغيرهم - اولئك الأشراف الذين كانوا يسودون مكة في أيام الجاهلية . أما العراق فقد لجأ اليه أشراف من نوع آخر . ومعظمهم من المهاجرين والأنصار الذين صعدوا مدارج السلم الاجتماعي عن طريق الاسلام والجهاد في سبيله (١) .

يتضح من هذا أن القيم الاجتماعية التي كانت منتشرة في هذين المجتمعين غير متشابهة . فلقد كان الوعظ الديني قوياً في العراق . أما أهل الشام فكانت القيم البدوية مهيمنة عليهم بدلاً من ذلك . فلم يحدث في أهل الشام صراع نفسي من النوع الذي شهدناه

(١) يقال إن عدد الصحابة الذين نزلوا الكوفة كان (١٤٨) صحابياً ، وعد الثمانية كان (٨٥٠) تابعياً — انظر : طبقات ابن سعد ، الجزء السادس .

في العراق . ان بني أمية في الشام كانوا يسرون حسب قيم البداوة ، ولم يعرفوا من الاسلام إلا شعائره ورسومه الظاهرة . وكان الأعراب الذين يتبعونهم مطمئنين لا يشعرون في أنفسهم صراعاً ولا تردداً ، إذ أن قيمهم واعتباراتهم القديمة كانت لا تزال محترمة في مجتمعهم الجديد .

أما في العراق فالأمر كان على النقيض من ذلك . فهناك نجد النزاع بين قيم البداوة والاسلام عتيفاً الى أقصى الحدود . وكانت قيم الاسلام في العراق واضحة المعالم قوية التأثير ، إذ أن دعايتها كانوا من النفر الذين جاهدوا مع النبي وتحملوا الاضطهاد معه وصاحبوه في ساعة العسرة .

كان الصحابة الذين سكنوا العراق يختلفون عن الصحابة الذين سكنوا الشام . ولو عملنا خطأ بياناً لمقدار الصفة التي عايناهم صحابة العراق وصحابة الشام في حياة النبي لوجدنا فرقاً كبيراً بين صفة هؤلاء وصفة أولئك .

يقول الدكتور أحمد أمين :

« الحق ان النزاع بين النفسية الاسلامية والنزعات الاسلامية ، والنفسية الجاهلية والنزعات الجاهلية كان شديداً ، وكان عهده طويلاً ، وأن الاسلام لم يصنع العرب صبغة واحدة على السواء ، بل ان خير من تأثر به السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، أولئك وصل الدين الى اعماق نفوسهم ، واخلصوا له وفتلوا

أوامره ، فأما من أسلموا يوم الفتح أو بعده وظلوا على كفرهم وعنادهم حتى رأوا النبي وأصحابه ينتصرون ، فلم يسعهم إلا الإسلام فهؤلاء كان دين كثير منهم رقيقاً » (١) .

والواقع أن المشقة التي عاناها المسلمون الأولون في حياة النبي كانت نوعاً من الغربة الاجتماعية . فلم يعتنق دين الإسلام أول الأمر إلا من كان مؤمناً مخلصاً في إيمانه . أما بعد انتصار الإسلام وانفشاع الاضطهاد الديني عنه فقد دخل الناس فيه أفواجاً أفواجاً . وكثير منهم دخلوه انتهازاً للفرصة وطلباً للغنيمة .

وكان من حسن حظ العراق ، أو سوء حظها ، أن سكنه أفراد من أولئك الذين أسلموا قبل الفتح وقاتلوا . ولهذا كان الوعظ الديني والنزعات الإسلامية قوية فيه .

فكان أهل العراق واقعين إذن تحت تأثير دافعين متناقضين : دافع النفسية البدوية القديمة من جهة ، ودافع النزعة الإسلامية الجديدة من الجهة الأخرى .

وعند ما نشبت الحرب بين أهل العراق وأهل الشام ، في واقعة صفين ، ظهر هذا الأمر بكل جلاء في أهل العراق . ففي الوقت الذي كان أهل الشام فيه طائعين مقلدين يستمعون إلى ما يقول أمراؤهم ويعتبرونه أمراً مقدساً ، نجد أهل العراق في شغب وتساؤل وجلب عظيم .

(١) انظر : أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص ٨٢

سئل معاوية ذات يوم عن العوامل التي جعلته يغلب علياً
فلخصها معاوية بما يلي :

أولاً : كان علي بن أبي طالب يظهر سره ، وكنت كتوما
لسري .

ثانياً : وكان في اخبث جند وأشدّه خلافاً ، وكنت في
اطوع جند وأقله خلافاً ...

ثالثاً : وكنت أحب الى قريش منه ^(١) .

يبدو لي أن هذه العوامل الثلاثة التي ساعدت معاوية على علي
كانت أوجهاً مختلفة لعامل واحد — هو العامل الاجتماعي الذي
ذكرناه آنفاً .

فقد كانت الطبقة العليا في المجتمع الشامي مؤلفة من اشراف
الجاهلية في الغالب ، كما رأينا . بينما كانت في المجتمع العراقي
مؤلفة من القراء واهل السابقة مثل عمار بن ياسر وغيره .

فكان علي لا يستطيع أن يكتنم سره مثل معاوية . ان اتباعه
من اهل العراق كانوا يسألونه في كل شيء ويجادلونه في كل عمل
يقوم به . ولذا كانوا يختلفون معه في كل صغيرة وكبيرة . أما اتباع
معاوية فكانوا يسرون معه كما كانوا يسرون مع مشايخهم في
الغزوات أيام الجاهلية .

ومما يجدر ذكره في هذه المناسبة أن علياً كان يساوي في العطاء

(١) انظر : الجاحظ ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٩٤

بين الناس كما كان يفعل النبي ، لا فرق عنده بين سيد ومسود أو بين شريف ومولى . أما معاوية فكان يعطي على مقدار ما للرجل من منزلة اجتماعية أو نفوذ سياسي . وهذا كان سبباً آخر من أسباب انتصاره على علي^(١) .

يروى أن خزيمة بن ثابت الأنصاري ، وهو من المسلمين الأولين ، كان يتبع علياً في صفين ولكنه لا يقاتل ، وإنما كان يتحرى أمر عمار ، فلما عرف أنه قتل قال : « الآن استبانت الضلالة » . ثم قاتل حتى قتل^(٢) .

إن هذا الأنصاري كان لا يحب أن يقاتل إلا بعد أن يتيقن ويتأكد من جانب الحق في نظره . وكان يتبع عمار بن ياسر ، ذلك لأن النبي كان يقول لعمار : « ويحك يا ابن سمية ، تقتلك الفئة الباغية »^(٣) وهو عند ما علم بأن أهل الشام قتلوا عماراً اطمئن وتأكد لديه بأنهم كانوا الفئة الباغية .

ويروى أيضاً أن أهل الشام خرجوا من جودهم ونزعهم التقليدية ، عند ما سمعوا بمقتل عمار ، وأخذوا يتساءلون ويتجادلون . فأذاع معاوية بينهم بياناً قال فيه : « نحن لم نقتله ، إنما قتله الذين جاءوا به » . فسكت أهل الشام ورجعوا إلى طبيعتهم الأولى .

(١) انظر : أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج ١ ص ٢٣ — ٢٤

(٢) انظر : طه حسين ، الفتنة الكبرى ، ج ١ ص ٨٤

(٣) يحكى أن الزبير أشفق من حرب علي في معركة الجمل حين عرف أن عماراً معه « انظر : المصدر السابق ، ص ٨٤ » .

ويروى أيضاً أن رجلاً من أهل العراق أدركه الشك ذات مرة في صفين حين لاحظ أن أهل الشام مثلهم يقيمون الصلاة ويتلون القرآن ويقرون بنبوة محمد ، فذهب إلى عمار بن ياسر قبيل مقتله يسأله ، فأجابه عمار ما مضمونه : إن جيش معاوية لا يختلف عن جيش أبيه أبي سفيان الذي حاربته النبي من قبل ، وإن عمار يحارب اليوم على نفس المبدأ الذي كان يحارب عليه المشركين في أيام الرسول . فاطمأن الرجل ورجع إلى صفه ^(١) .

إن هذه الحوادث بمجموعها تشير إلى أن أهل العراق كانوا يعانون شيئاً كثيراً من الصراع النفسي . ويبدو أن العرب جميعاً كانوا يعانون في تلك الأونة صراعاً نفسياً على درجات متفاوتة . ولعل أهل العراق كانوا أكثر من غيرهم في هذا السبيل .

* * *

إن الأمصار التي أسسها العرب في صدر الإسلام كانت ، كما أشار البروفسور جب ، موطناً لتوعين من الناس : فاتحين يحملون السيف ، وواعظين يحملون القرآن ^(٢) . وكثيراً ما كان الفرد العربي آنذاك يقوم بهذين الدورين في آن واحد . فهو محارب فاتح من ناحية ، وقارئ تقي من الناحية الأخرى . وهذا أمر قد يسهل احتماله فترة من الزمن ثم لا يلبث أن يتفجر عاجلاً أو آجلاً .

(١) انظر : عبد الحميد السحار ، أهل البيت ، ص ١٦٧ .

(٢) انظر : Gibb , Mohammedanism , p. 5

إن طبيعة الحرب تحتاج في كثير من الأحيان الى صفات بعيدة عن روح التقوى والتدين . فهي تحتاج الى قسوة وتعسف وارهاب ، وهي تؤدي ايضاً الى نهب وتقطر من واستعباد .

والمتمدين اذا اصبح محارباً فلا بد أن يأتي عليه يوم يخرج فيه عن طبيعته الدينية وينجرف بتيار الترف والاستعباد والتعالي الذي تحتمه طبيعة الحرب والفتح .

إنها مشكلة نفسية واجتماعية كبرى . وقد عانى المسلمون منها عناءاً كبيراً . واهل العراق اصابوا من هذا العناء قسطاً وافراً ، فأمسوا منه في بلاء مقيم .

وجاءهم الحجاج أخيراً فصرخ فيهم تلك الصرخة التاريخية المدوية : يا اهل العراق ... يا اهل الشقاق والنفاق ! . وتداولت هذه الصرخة افواه الناس فأصبحت بمثابة الايحاء في اهل العراق يتمثلون به ويتأثرون به جيلاً بعد جيل .

ومن الجدير أن نذكر القارئ بأن النفاق الذي وصف الحجاج به اهل العراق ليس من نوع النفاق الذي نفهمه عادة من هذه الكلمة . فهو صراع نفسي يوشك أن يورث ازدواجاً في تكوين الشخصية .

وكان اهل العراق لا يدرون أنهم يناقضون أنفسهم حين كانوا يقولون ما لا يفعلون . إن تقاليدهم القبلية كانت تحلوهم لاشعورياً في أن يكونوا أولي كبرياء وعصية ونسب . فهم حين فتحوا الممالك

باسم الاسلام لم يكونوا إلا بدواً يحاربون في الغالب من أجل الفخار والغنيمة . وقد جاءتهم المصيبة من هذا الفتح . لقد كان فتحاً دينياً في نظر اهل التقوى والصحة . والمفروض فيه أن يكون رائده الرحمة والعدل والمساواة . أما هم فقد فتحوا وتورطوا .

انتصروا على الأمم ففرغهم هذا الانتصار وجعلهم يتفاخرون ويتنافسون على طريقة اهل البادية . هذا ولكن اهل التقوى لم يتركوهم وشأنهم . إنما أخذوا يركضون وراءهم حاملين بأيديهم القرآن ويلهجون بأحاديث النبي .

والمشكلة الكبرى آتية من كون الانسان لا يستطيع أن يترك عاداته واعتباراته القديمة بارادته واختياره . فهذه العادات والاعتبارات مغروزة في اعماق عقله الباطن . ولذا فهو يتأثر بها ويندفع بتأثيرها اندفاعاً لا شعورياً لا سيطرة للتفكير أو المنطق أو الارادة عليه .

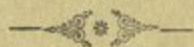
والانسان حين يسمع الواعظ يعظه بمعاكسة تلك العادات يشعر بشيء من الصراع النفسي أول الأمر . ثم لا يلبث الصراع أن يزول حيث يأخذ الانسان آنذاك بشق نفسه الى شقين : أحدهما للوعظ والمثل العليا وآخر لشؤون الحياة .

لعلنا لا نخطئ اذا قلنا بأن المسلمين ، بوجه عام ، مروا في عهد الأمويين بمرحلة الصراع النفسي . ولهذا كان هذا العهد مملوءاً بالثورات والفتن وشتى أنواع النزاع الاجتماعي . فكان الأمويون

يدفعون الناس نحو الفتح ، يشغلونهم به . ولا يكاد الفتح ينتز في
ناحية من النواحي حتى يندلع لهيب الثورة . ولا تنطفي تلك الثورة
إلا بعد أن تأخذ نصيبها من الأرواح والأموال .

ويشير التاريخ الى أن العهد العباسي كان عهد هدوء نسبي .
والظاهر أن هذا العهد كان عهد ازدواج الشخصية . فقد خمد الصراع
النفسي فيه تدريجاً وبدأت النفوس تلتجىء الى طريقة الازدواج لكي
ترتاح بها مما أصابها في الماضي من عناء طويل .

وفي الفصل التالي سنرى كيف استقر الازدواج في نفسية الفرد
المسلم بصورة عامة وفي نفسية الفرد العراقي بصورة خاصة .



الفصل الثاني

الوعظ وازدواج الشخصية

ذكرنا في الفصل السابق أن كثيراً من المسلمين ، سيما اهل العراق ، كانوا مبتلين ببدء الصراع النفسي أثناء الحكم الأموي . فكانت حياتهم العملية واقعة تحت تأثير القيم البدوية بينما كانت حياتهم الفكرية متأثرة بالتعاليم الاسلامية . فكانوا يشعرون في باطن أنفسهم بتناقض بين ما يفعلون وما يقولون .

وكانت الثورات المتوالية في ذلك العهد عبارة عن مظهر خارجي لما كان يمكن في باطن النفس من تناقض وتنازع .

ومما يلفت النظر في هذا الصدد أن الأمويين كانوا أولي نزعة بدوية صريحة . فكانوا لا يبالون بما يقول الفقهاء واهل الدين . جل اهتمامهم كان منصرفاً الى تدعيم ملكهم بحد السيف على الطريقة البدوية القديمة (١) .

وقد شاهد العهد الأموي ثغرة لا يستهان بها بين الدين والدولة . فالدولة كانت راسخة الدعائم في الشام تؤيدها سيوف القبائل العربية ، بينما كان حملة الدين والفقهاء والحديث ينشرون دعوتهم المثالية في

(١) انظر :

صفوف الفلاحين والغوغاء واهل الحرف . وكان الدين والدولة ، بهذا ، يسيران في اتجاهين متعاكسين ^(١) .
وقد أدى هذا الوضع المتناقض ، كما قلنا ، الى صراع نفسي من ناحية ، والى قلق اجتماعي من الناحية الأخرى .
إن الوضع لا يمكن أن يدوم على هذا المنوال أبداً . فهو تأزم لا بد أن ينتهي الى حل ما عاجلاً أو آجلاً .
والحل قد حصل فعلاً في عهد العباسيين .

* * *

جاء العباسيون الى الحكم وهم يدعون أنهم يريدون إحياء السنة التي أماتها بنو أمية وتقويم ما اعوج من سبل الدين ^(٢) .
وبعبارة أخرى : أنهم كانوا يحاولون ازالة الثغرة التي كانت موجودة بين الدين والدولة في عهد أسلافهم الأمويين . وهذا أمر يكاد أن يكون مستحيلاً .

إن الدين والدولة من طبيعة متفاوتة . ولا يمكن أن يتلائما تلائماً حقيقياً ^(٣) . فالدولة تقوم عادة على أساس القهر والتسلط والاستغلال ، هذا بينما يقوم الدين على أساس الرحمة والعدل والمساواة .

(١) انظر : جرجي زيدان ، التمدن الاسلامي ، ج ٤ : ص ١٩٢ — ١٩٤

(٢) انظر : المصدر السابق ، ج ٤ : ص ١٩٦

(٣) انظر : Von Wiese , Systematic Sociology , p. 617-620

قد يحدث في بعض الظروف النادرة أن يتلائم الدين والدولة ،
ولكن هذا التلائم مؤقت لا يلبث أن يزول .

إن جمع الدين والدولة في جهاز واحد شبيه بجمع الماء والنار معاً .
حاول العباسيون أن يلائموا بين الدين والدولة فلم يوفقوا في
هذا السبيل إلا ظاهراً . إنهم قربوا الفقهاء وأهل الحديث وأجزلوا
لهم العطاء وتظاهروا لهم بالخشوع واستمعوا الى مواعظهم .

والواقع أنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا أكثر من هذا . ففي
حياتهم العملية كانوا يسرون كغيرهم من الملوك في ضوء ما تمليه
عليهم الظروف من مساومة وقسر واستغلال .

يقول البروفسور فيليب حتي حول قيام الدولة العباسية : « وفي
الواقع أن التغير الديني كان ظاهرياً أكثر منه حقيقياً . لقد كان
الخليفة البغدادي بخلاف سلفه الأموي يتظاهر بالتقوى ويدعي
التدين . ولكنه كان مع ذلك ذا اتجاه دينوي مثل سلفه
الشامي ... » (١)

لقد كان الخليفة الأموي بدوياً صريحاً يعمل ما يشاء ما دامت
القوة بيده . وكان يتبع في ذلك سنة الصحراء التي تقول : إن
الحلال ما حل باليد ، وأن الحق بالسيف . ولذا وجدناهم تركوا
أهل التقوى والدين في أبراجهم العاجية يتحذلقون كما يشتهون .

أما الخليفة العباسي فأخذ يتبع طريق الازدواج . إذا جاء وقت

الموعظة بكي ، وإذا جاء وقت السياسة طغى . فهو في وقت الموعظة من أشد الناس خشوعاً وتعففاً وزهداً . أما حين يجلس في الديوان ينظر في أمر الخراج وتعيين الولاة وشراء الجواري فهو لا يختلف عن جالوت أو نيزون بشيء .

يحكي في الأمثال : ان رجلاً أخذ ذئباً فجعل يعظه ويقول له : « اياك وأخذ اغنام الناس لثلاث أعاقب » . والذئب يقول : « خفف يا أخي واختر فهداك قطع من الغنم أخشى أن يفوتني » . وهذا المثل يضرب لمن يريد أن يعظ انساناً بأمر يخالف طبيعته التي جبل عليها . فالذئب محبوب على أكل الغنم . لا يجد عن ذلك محيصاً . فهو اذا صدق بالموعظة فعلاً وترك أكل الغنم مات جوعاً . انه مضطر إذن أن يعطي اذنه للواعظ ويبجله ويتظاهر باحترام أمره مادام ذلك لا يمس مشاريعه في الأكل اللذيذ . وهو لا يكاد يلمح قطعاً من الغنم قادماً من بعيد حتى يلتفت الى الواعظ راجياً أن يختصر موعظته لثلاث تفوته الفريسة — ويسلم بعد ذلك أمره الى الله !

إن الازدواج أمر لا بد منه في مثل هذه الحالة . فلا بد أن تنشق الشخصية الى شقين : أحدهما يخصص لسماع المواعظ ، ويبقى الشق الآخر حراً للجري وراء أهداف الحياة . يقول البروفسور متز : « كان من عادة الكثيرين من الكبراء أن يستدعي أحدهم واعظاً مشهوراً ، ويقول له : عظمي وخوفي .

وكثيراً ما كانوا يسمعون منهم ما لا يحبون ولا يتوقعون من غليظ القول « (١) » .

والكبراء لا يهمهم أن يسمعوا غليظ القول من الواعظ مادام لا يمنعه ذلك عن أكل الغنم . ولا يكاد الواعظ يدافع عن قطع الغنم أو يمنع من اختطافه فعلاً حتى ترام تركوا خشوعهم المألوف نجاة وامسكوا بتلابيب الواعظ ينهشونه نهشاً — والعياذ بالله .

يروى أن هرون الرشيد ، رضي الله عنه ، كان من هذا الطراز . يقول صاحب الأغاني : « كان الرشيد من أغزر الناس دموعاً في وقت الموعظة وأشدّهم عسفاً في وقت الغضب والغلظة » . ويقول الدكتور أحمد أمين عنه أيضاً : انه كان يصلي في اليوم مائة ركعة ويسفك الدم لشيء لا يستحق سفك دم « (٢) » .

استدعى الرشيد ذات مرة ابن السجك الواعظ المشهور ، فلما دخل عليه قال له : « عظمي » . . . فقال : « يا أمير المؤمنين ... اتق الله واحذره . لا شريك له . واعلم انك واقف غداً بين يدي الله ربك . ثم مصروف الى إحدى منزلتين لا ثالث لهما ، جنة ونار » . فبكى الرشيد حتى اخضلت لحيته بالدموع . فاقبل الفضل ابن الربيع على الواعظ معاتباً وهو يقول : « سبحان الله . هل يخالجك شك في أن أمير المؤمنين مصروف الى الجنة إن شاء الله . لقيامه بحق الله وعدله في عباده ؟ » .

(١) انظر : آدم متر ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ، ج ٢ ص ٨١

(٢) انظر : أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج ١ ص ١١٧

فالتفت الواعظ الى الرشيد قائلاً وهو يشير الى الفضل : « ان هذا ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم . . . فأتق الله وانظر لنفسك » .

فبكى الرشيد بكاءً مرّاً حتى أشفق الحاضرون عليه ^(١) .

وفي يوم آخر ذهب الرشيد بنفسه الى واعظ اسمه الفضيل بن عياض يزوره في بيته . فأخذ الواعظ ينال عليه بالتقريع والتخويف والتحذير من عذاب الله . فبكى الرشيد عند سماعه الموعدة حتى أغمى عليه . فلما أفاق من اغمائه قال للواعظ : « زدني » . فزاده الواعظ طبعاً ، فأغمى على الرشيد مرة ثانية . فلما أفاق قال : « زدني » . فزاده . فأغمى على الرشيد مرة ثالثة . فلما أفاق قال : « زدني » . فزاده الواعظ . . . فبكى الرشيد هذه المرة دون اغمائه وقال للواعظ : « هذه الف دينار خذها لعيالك ، وتقوّ بها على عبادة ربك ... » ^(٢)

إن الرشيد قد ضرب بهذا مثلاً رائعاً على ازدواج الشخصية . يكفيه أن يبكي من خشية الله ويغمى عليه . ولا يبالي بعد ذلك أن يفعل ما يشاء .

كان عند الرشيد ألفان من الجواري ، وقد اختص ثلاثمائة منهن بالغناء والضرب على آلات الطرب . ويقال انه طرب ذات

(١) انظر : أحمد أمين ، هرون الرشيد ، ص ١٧٦ — ١٧٧

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ١٧٧ — ١٧٩

يوم فنثر على الحضور ستة ملايين درهم . وطرب في يوم آخر فعتين
المغني الذي أطربه والياً على مصر^(١) . وربما طرب المصريون عندما
جاءهم هذا الوالي اللطيف .

واشترى الرشيد جارية بمائة ألف دينار . ثم اشترى أخرى
بسته وثلاثين ألف دينار غير أن هذه الجارية باقت عنده ليلة واحدة
ثم أهداها الى أحد أصحابه . والله وحده يعلم السبب في ذلك .
كل هذا كان الرشيد يأخذه من اموال الأمة طبعاً فجده المنصور
لم يكن يملك عند توليه الخلافة شيئاً . أخذ الرشيد ذلك من عرق
جيين الفلاح وكديمين الفقير والبائس .

وهو لا يبالي بعد ذلك أن يذهب الى الواعظين يستمع اليهم
ويبكي بين يديهم . فما دام الواعظ يكتفي في موعظة الرشيد بالتخويف
من نقمة الله وحده ، فانه محمود مأجور . أما اذا خرج الواعظ عن
حده هذا وأخذ يخوف الرشيد بنقمة الناس فانه يصبح عند ذلك
خطراً ... أو زنديقاً .

إن غضب الله أهون على الرشيد من غضب الناس . فالله على
أي حال غفور رحيم .



كل معاوية يبني داره الخضراء فمر به أبو ذر ، الصحابي
المعروف . وبدلاً من أن يبارك أبو ذر معاوية في تلك الدار ويدعو

(١) انظر : جرجي زيدان ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ١١٨ — ١٢٦

لها بطول البقاء ، هتف في وجه معاوية قائلاً : من أين لك هذا ؟
ثم أخذ أبو ذر يسأل معاوية قائلاً : « ان كنت إنما بنيتها
من مال المسلمين فهي الخيانة ، وان كنت إنما بنيتها من مالك
فإنما هو السرف » (١) .

اعترض أبو ذر حين رأى معاوية يبني لنفسه داراً ، واعتبر ذلك
منه سرفاً أو خيانة . ولست أدري ماذا كان أبو ذر صانعاً لو أنه
رأى الرشيد على ذلك البذخ الذي صار مضرب المثل في التاريخ .
لعله كان يغمى عليه ...

يروى أن عمر بن الخطاب دخل ذات يوم على النبي محمد فوجده
مضطجعاً على حصير وقد أثر الحصر في جنبه . فبكى عمر إشفافاً
وقال : « ألا تتخذ لك فراشاً ليناً يا رسول الله ؟ » فأجابه النبي :
« ماذا يا عمر ... أتظنها كسروية ؟ إنها نبوة لا ملك ! » (٢) .
وقال النبي أيضاً : « اذا ذهب كسرى فلا كسروية بعده ...
واذا ذهب قيصر فلا قيصرية بعده ... ولقد أظلكم من الله خير
جديد ... نبوة ورجمة » (٣) .

ولست أدري ماذا كان يقول النبي لو رأى بعض خلفائه من
بعده يفوقون كسرى وقيصر بترفهم وإسرافهم .

(١) انظر : حه حسين ، الفتنة الكبرى ، ج ٢ ص ٢٠٤ — ٢٠٥

(٢) انظر : خالد محمد خالد ، الدين في خدمة الشعب ، ص ٢٦

(٣) انظر : المصدر السابق ، ص ١١

كان النبي يظن بأنه إذا ذهب كسرى فسوف لن تقوم
الكسروية بعد ذلك قائمة . وقد كافح النبي وناضل وأوذى بما لم
يؤذ به غيره من الأنبياء والمصلحين . فعل كل ذلك في سبيل أن
يقضى على الكسروية الغاشمة ويحل محلها نظاماً عادلاً رحماً .
ثم يدور الزمن دورته وإذا بخلفاء محمد يعيدون مجد الأكلمة
والقيصرة بالتمام والكمال . وربما أضافوا الى ذلك من نتاج عبقرياتهم
شيئاً كثيراً^(١) .

قال ابن علقمة : « دخلت على علي عليه السلام فاذا بين يديه
لبن حامض آذنتي حموضته وكسرى يابسة . فقلت : يا أمير المؤمنين ،
أتأكل مثل هذا ؟ فقال لي : يا أبا الجنوب ! كان رسول الله
يأكل أيس من هذا ويلبس أحسن من هذا - وأشار الى ثيابه -
فإن لم آخذ بما آخذ به خفت ألا ألحق به »^(٢) .

قال لي أحد الباحثين الغربيين ذات يوم وهو يحاورني : لماذا
شرع دينكم شرعة الحرب وفرض عليكم الجهاد ؟ وما هو السبب
الذي جعلكم تفتحون العالم بحد السيف وتفسكون الدماء ؟ ثم
عقب على ذلك قائلاً : إنكم لم تفعلوا شيئاً غير أن أقمت إمبراطورية
مكان أخرى ، وقضيتكم على كسرى لتضعوا كسرى آخر محله .

Hitti , History of The Arabs , p. 301

(١) انظر :

(٢) انظر : عباس العقاد ، عبقرية الامام ، ص ٥٢

قال هذا وتركني حائراً أضرب احماساً بأسداس .

إن هذا هو الواقع الذي لا مرأى فيه . فأمر المؤمنين لم يكن يختلف عن أمير الكافرين إلا من حيث المظاهر والظفوس والشعائر الشككية فتجد الخليفة يتعبد ويركع ويسجد ويكثر من البكاء والعيول . وتراه يحج سنة ويفزو سنة .

وهذه كلها أمور ظاهرية لا تمس جوهر الواقع بشيء . فالجباة هم الجباة ، والجلالوزة هم الجلالوزة ، ولن تجد لطبيعة هؤلاء تبديلاً . إن الخليفة كان يعبد الله وينهب عباد الله .

يقول أبو يوسف ، قاضي بغداد في عهد الرشيد ، في وصف جباة الخراج : « فانه بلغني أنهم يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويلقون عليهم الجرار ويقيّدونهم بما يمنعهم من الصلاة ، وهذا عظيم عند الله شنيع في الاسلام » (١) . ويقول أبو يوسف أيضاً : « . . . فانه بلغني أنه قد يكون في حاشية العامل والوالي جماعة : منهم من لهم به حرمة ، ومنهم من له اليه وسيلة ، ليسوا بأبرار ولا صالحين ، يستعين بهم ويوجههم في أعماله يقتضي بذلك الذمات ، فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه . ولا ينصفون من يعاملونه ، إنما مذهبهم أخذ شيء ، من الخراج كان أو من أموال الرعية . ثم أنهم يأخذون ذلك فيما يبلغني بالعسف والظلم والتعدي ، ثم لا يزال الوالي ومن معه قد نزل بقرية يأخذ

(١) انظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ١٣١

اهلها من نزاله بما لا يقدرّون عليه ولا يجب عليهم ، حتى يكلفوا ذلك فيجحف بهم . ثم قد بعث رجلاً من هؤلاء الذي وصفت لك أنهم معه الى رجل ممن له عليه الخراج ليأتي به ... فان لم يعطه ضربه وعسفه وساق البقر والغنم ومن أمكنه من ضعفاء المزارعين حتى يأخذ ذلك منهم ظمناً وعدواناً ... » ^(١)

والمشكلة أن الأموال التي تجبي على هذا الشكل الجائر تذهب الى الخليفة لكي يشتري بها الجواري وينعم بها على الأصحاب .

يقال ان مغنياً غنى للأمين بعض أبيات من الشعر النواصي الرقيق في التغزل بالعلمان ، فطرب الأمين طرباً شديداً حتى وثب من مجلسه وركب على المغني وأخذ يقبل رأسه . ثم أمر له بجائزة . فقال المغني مندهشاً : « يا سيدي قد أجزتني الى هذه الغاية بعشرين ألف درهم ! » فأبدى الأمين استصغاراً لهذا المبلغ البالغ عشرين مليون درهم من دراهم تلك الأيام ، وقال : « وهل ذلك إلا من خراج بعض السكور ! » ^(٢)

إن الأمين لا يبالي أن يعطي مغنياً عشرين مليون درهم فهذا المبلغ هو عبارة عن مقدار ما يجبي من الضرائب من كورة واحدة — أي قرية صغيرة .

وليتصور القارئ العذاب الذي يعانيه أهل تلك القرية في سبيل

(١) انظر : المصدر السابق ، ص ١٢٨ — ١٢٩

(٢) انظر : ابن عبد ربه ، العقد الفرید ، ج ٣ ص ١٩٥

أن يسلّموا هذا المقدار من الضريبة الى الجباة . وفي لحظة واحدة يعطى هذا المبلغ الضخم الى أحد المغنين مكافأة له على ما أثار في خليفة المسلمين من شهوة نحو الغلمان .

وإذا أراد القارىء أن يدرك ما كان عليه الفقراء في تلك الأيام من بؤس وفاقة فليقرأ هذه القصة التي رواها أبو الفرج الأصفهاني . يقول أبو الفرج في حديثه عن محمد بن ابراهيم الحسني : « ... فيما هو يعيش في طريق الكوفة إذ نظر الى عجوز تتبع احمال الرطب فتلقط ما يسقط منها فتجمعه في كساء رث . فسألها عما تصنع بذلك . فقلت : إني امرأة لا رجل لي يقوم بمؤتي ولي بنات لا يعدن على أنفسهن بشيء . فأنا اتبع هذا الطريق وأتقوته أنا وولدي . فبكى بكاءً شديداً ، وقال : انت والله واشباهك تخرجوني غداً حتى يسفك دمي ... » (١)

أرجو من القارىء أن يقارن بين حالة المؤمنين هذه وبين ما كان عليه أمير المؤمنين من بذخ وشهوة خبيثة .

ولا ريب أن عدد الواعظين أخذ يزداد في ظل الدولة العباسية وينمو نمواً فظيعاً . وكان كل وزير أو أمير يخصص جزءاً كبيراً من الأموال التي ينهبها لبناء المساجد والتسكيات والترفيه عن المرتقة الذين يأوون اليها من طلاب الفقه والعبادة . وكان الواعظ

(١) انظر : أبو الفرج الأصفهاني ، مقالات الطالبين ، ص ٣٤١

يُعطى على مقدار ما يتحدثق به من جيد اللفظ وبلاغة الأسلوب .
 وإذا اشتهر أحد الواعظين ببلاغة وعظه ، جاء الخليفة هو وأهل
 بيته ووزرائه وحاشيته يستمعون إليه ، ويدنون بين يديه من مظاهر
 التوقير والاحترام ما يشجع غيره على اتباع طريقه .
 يحدثنا الرحالة الاندلسي ابن جبير الذي زار بغداد في القرن
 السادس الهجري عن مجالس الوعظ هذه فيأتي في وصفها بالعجب
 العجاب .

يأتي ابن جبير أولاً على وصف أخلاق البغداديين فيصفها
 بالسوء ، ويعتبرهم من ألعن خلق الله . ثم يأتي بعد ذلك على وصف
 وعظهم فيمجد طريقتهم ويبدى إعجابه بها . وهو يقول في ذلك ما نصه :
 « ولا جرم أن لهم في طريقة الوعظ والتذكير ، ومداومة التنبيه
 والتبصير ، والمثابرة على الانذار المخوف والتحذير ، مقامات تستنزل
 لهم من رحمة الله تعالى ما يحيط كثير من أوزارهم ويسحب ذيل
 الغفوة على سوء آثارهم ويمنع القارعة الصماء أن تحل بديارهم . لكنهم
 معهم يضربون في حديد بارد ، ويرومون تفجير الجلامد ... » (١)
 ثم يصف ابن جبير خطبة من خطب الواعظ المشهور جمال الدين
 بن علي الجوزي وقد حضرها بنفسه وبلغها بمنظومة الدرر ويقول :
 « انه أتى ... برقائق عن الوعظ وآيات يسّات من الذكر طارت
 لها القلوب اشتياقاً ، وذابت بها الأنفس احترافاً ، الى أن علا

(١) انظر : ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ١٧٣ — ١٧٤

الضجيج وتردد بشهقاته النشيح ، وأعلن التائبون بالصياح ، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح . كلُّ يلقي ناصيته يده فيجزها ، ويمسح على رأسه داعياً له . ومنهم من يغشى عليه فيرفع بالأذرع اليه . فشاهدنا هولاً يعلأ النفوس إنابة وندامة ، ويذكرها هول يوم القيامة . فلو لم نركب ثبج البحر ، ونعسف مفازات الفقر إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة رابحة والوجهة المفلحة الناجحة ... » (١)

يبدو من كلام ابن جبير هذا أن البكاء عند سماع الوعظ أصبح في نظر البغداديين غاية لذاته . فهم لا يبالون أن يفعلوا ما يشاؤون في السوق فينقصون الكيل ويستغلون الغريب كما قال ابن جبير . ولكنهم في مجلس الوعظ يكونون يشهقون ثم يغمى عليهم ويذوبون شوقاً الى الله وخشية منه .

ثم وصف ابن جبير مجلساً آخر من مجالس الواعظ ابن الجوزي إذ حضره الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرم . ويقول في تأثير المؤعظة على الناس ما يلي : « ... فأرسلت وابلها العيون ، وابتدت النفوس سر شوقها المسكنون . وتطارح الناس عليه ، بذنوبهم معترفين ، وبالتوبة معلنين . وطاشت الألباب والعقول ، وكثر اوله والذهول . وصارت النفوس لا تملك تحصيلاً ولا تميز معقولا ، ولا تجد للصبر سبيلاً ... » (٢)

(١) المصدر السابق ، ص ١٧٦ . (٢) المصدر السابق ، ص ١٧٧

ولست أشك في أن الخليفة بكى مع الناس بكاءً مرّاً ، وربما
أغني عليه من خشية الله كما أغني من قبل على جده هرون الرشيد .
ولعل الناس كانوا في ذلك الحين لا يبالون أن ينهب الخليفة
من أموالهم ما يشاء ما دام يغمى عليه من خشية الله ويبنى المساجد
ويغلق النعم على الواعظين .

لقد استراح الناس حقاً حين اتخذوا هذه العادة . إنهم كانوا
يعانون من قبل داء الصراع النفسي ، كما ذكرنا ، وكانت الثورات
تتوالى فيهم جيلاً بعد جيل . أما بعد اتخاذهم طريق الازدواج فقد
هان الأمر عليهم ، إذ صار لهم قلبان : يسمعون الموعظة بأحدهما ،
ويسمعون رنين النقود والنقود بالآخر . فليس هناك إذن صراع
نفسي ولا قلق اجتماعي ... ولا هم يحزنون .

* * *

يحكى أن نظام الملك وزير الساجوقيين في العراق كان ينفق
أمواله طائلة على المساحد والمدارس والتكايا . فعاتبه سيده ملك
شاه على ذلك . فأجابه نظام الملك بالجواب التالي :

« ... أنت مشغل بلذاتك ومنهمك في شهواتك وأكثر
ما يصعد الى الله تعالى معاصيك دون طاعاتك وجيوشك الذين تعدهم
لنوائب ... مستغرقون في المعاصي والخور والملاهي والمزمار
والطنبور . وأنا أقيم لك جيشاً يسمى (جيش الليل) ... إذا نامت
جيوشك ليلاً قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفاً بين يدي ربهم

فأرسلوا دموعهم وأطلقوا ألسنتهم ومدوا إلى الله أ كفهم للدعاء لك
ولجوشك . فأنت وجيوشك ، في خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم
تبيتون ، ويبرك كاتهم تمطرون وترزقون » . فقبل ملك شاه من
وزيره هذا الجواب المفحم وسكت (١) .

يتضح من هذا الجواب أن مشكلة الدين عند الناس أصبحت
هيئة للغاية . فالفرد يجوز له أن يعمل ما يشاء وينهب من يشاء .
ولكي يرضى عنه الله تعالى يجب أن يعطي جزءاً مما ينهب إلى العباد
وازهاد والوعاظ لينوبوا عنه أمام الله يستغفروا له .

ومن الممكن القول بأنه كلما كان الظلم الاجتماعي أشد كان بناء
المساجد وتشجيع الوعظ أكثر . فإذا بنى الظالم الغاصب مسجداً
بنى الله له في الجنة قصرًا فخماً ، وإذا هو أغدق النعم على الوعاظ
أعطاه الله من الخور العين والولدان المخلصين ما يعوّض له عما فقدته
في هذه الدنيا الغافية من الجوارى والعلماء — ومن يقرض الله قرصاً
حسناً يضاعفه له وهو على كل شيء قدير .

سار الناس في هذا السبيل المزدوج ، وهم لا يزالون يسرون فيه
حتى يومنا هذا .

وربما جاز لنا أن نقول إن هذا الازدواج يشتد في المراكز
الدينية أكثر من غيرها في المجتمع الذي يكثر فيه الواعظون

(١) انظر : جرجي زيدان ، التمدن الاسلامي ، ج ٣ ص ٢٠٢

والفقهاء يكون الناس فيه أولي وجهين . فهم في أعمالهم يشبهون سائر الناس . ولكنهم يمتازون في أنهم يتواضعون ويتفقهون ويتصافعون بالويل والثبور أكثر من غيرهم .

ومن يدرس نظام التربية الذي يجرون عليه في هذا المجتمع يجد نزعة الازدواج ظاهرة فيه . فعلم الأولاد ، أو شيخ الكتاب كما يسمونه أحياناً ، لا ينفك ينصح تلاميذه ويعظم ويحرضهم على اتباع كتاب الله وسنة رسوله ساعة بعد ساعة . وهو يريد من تلاميذه أن ينكبوا على دروسهم فلا يلتفتوا بمنة ويسرة ولا يتكلموا ولا يلعبوا . ولو استطاع أن يقطع أنفاسهم لفعل .

إن المعلم يكون في عمله هذا كالواعظ الذي يعظ الناس بما يخالف طبيعتهم ، وهو بذلك يدفعهم نحو العصيان دفعاً . فالتلميذ يشعر بأن ساعة الدرس بمثابة السجن له . ولذا تجده لا يكاد يخرج من بين يدي معلمه حتى ينتفجر راكضاً معربداً خاطفاً مؤذياً .

وهو لا يكاد يلمح معلمه من بعيد حتى يتقمص زي التزمت والوقار ويتخذ له شخصية أخرى غير الشخصية التي كان عليها قبل ذلك .

إنه مضطر أن يكون مزدوج الشخصية . فهو لا يستطيع أن يكون متمزناً وقوراً خارج المدرسة ، وهو كذلك لا يستطيع أن يجري على طبيعته الصاخبة داخلها . فهو يتطرف في حركته آنأً ، ويتطرف في سكونه آنأً آخر . ويكون في ذلك شبيهاً بالذكور

جيكل والمستر هايد — كما تصوره الرواية المعروفة .

والتلميذ قد يبتلى أول الأمر بصراع نفسي على منوال ما ابتلى به أسلافه في صدر الاسلام . فهو يسمع المواعظ والنصائح المثالية في المدرسة ، فاذا خرج يلعب في الأزقة وجد نفسه منحرفاً في تيار قوي من الاعتبارات الاجتماعية التي تشبه اعتبارات البداوة الى حد بعيد .

إن الاعتبارات التي تسود مجتمع الأطفال في الأزقة تمجد التظاهر بالقوة والفخر بها والتنافس عليها . وتجد الأطفال هناك يتحاربون ويتشتمون ويتهاجون على منوال ما تفعل القبائل البدوية في الصحراء .

فالطفل يعتاد على الاعتبارات البدوية في الأزقة ويعتاد على سماع المواعظ في المدرسة . وهو بذلك يستعيد مجد الأجداد ... على وجه من الوجوه . فاذا كبر هذا الفتى لاحقه الواعظون بمثل ما كان معلمه يلاحقه به من قبل . فهو يسمع المواعظ أينما ولى وجهه . هذا في الوقت الذي يجد فيه الحياة سائرة على نمط لا يلائم تلك المواعظ ولا يماشيها



لقد صار الوعظ مهنة تدرّ على صاحبها الأموال ، وتمنحه مركزاً اجتماعياً لا بأس به . وأخذ يحترف مهنة الوعظ كل من فشل في الحصول على مهنة أخرى .

إنها مهنة سهلة على أي حال . فهي لا تحتاج إلا الى حفظ بعض الآيات والأحاديث ثم ارتداء الألبسة الفضفاضة التي تملأ النظر وتخلبه . ويستحسن في الواعظ أن يكون ذا لحية كبيرة كشة وعمامة قوراء .

ثم يأخذ بعد ذلك بإعلان الويل والثبور على الناس ، فيبكي ويستبكي — ويخرج الناس من عنده وهم واثقون بأن الله قدرضى عنهم وبني لهم القصور الباذخة في جنة الفردوس .
ويأتي المترفون والأغنياء والحكام فيغدقون على هذا الواعظ المؤمن ما يجعله مثلهم مترفاً سعيداً .

* * *

إنه يصلي بالأجرة ويصوم بالأجرة ويحج بالأجرة . وهو يريد من الناس جميعاً أن يصوموا ويصلوا ويحجوا مثله — ناسياً أن الفقر والسكفاح في سبيل الرزق قد أعمى الناس عن كل شيء سوى لقمة الزقوم !

قلت لأحد العمال ذات يوم ، وكان الفصل صيفاً شديداً الحرارة :
لماذا لا تصوم أيها الزنديق ... فأجابني بحرقة : ان الصوم يا مولانا قد فرض على أهل السرايب وحدهم ! ..
عند هذا شعرت بأنني ظلمت الرجل .

* * *

رأيت أحد الواعظين ، ذات مرة ، وهو يندم هرون الرشيد

ذمًا مقدفًا. فالرشيد، على قوله، مترف مغتصب بذل أموال الأمة على ملذاته وشهواته. فقلت له: ادع للرشيد يا اخي.. فهو وامثاله من المترفين الطغاة هم الذين أسسوا لكم هذه المهنة الربحية. ولولاهم لكنتم اليوم حمالين أو بقالين...

الواقع أن الوعاظ والطغاة من نوع واحد. هؤلاء يظلمون الناس بأعمالهم، واولئك يظلمونهم بأقوالهم.

فلو أن الواعظين كرسوا خطبهم الرنانة على توالي العصور في مكافحة الطغاة واطهار عيوبهم لصار البشر على غير ما هم عليه الآن. عرض أحد الطغاة ذات يوم على الفقهاء ورجال الدين استفتاءً محررًا، كان مضمونه: «أيها خير: المسلم الظالم، أم الكافر العادل؟» فسكتوا جميعًا.

عند هذا قام أحد الحاضرين وهو محقق فافقي معلناً: «إن الكافر العادل خير من المسلم الظالم!» ثم خرج لا يلوي على شيء. كتب الأستاذ عباس الغزاوي معلقاً على هذه الفتوى الغريبة ما يلي:

«لا مجال لقبول هذه الفتوى بعد العلم أن السلطان المسلم مهدد بالأمة وسخطها عليه وخلعه، والملتزم أن لا تقبل حكومة الكافر وولايته... واليوم - بصورة عامة - لا ترضى الأمة أن تحكم إلا بنفسها، والادارة أو الارادة للامة تختار رئيسها ليمثل رغبتها ويمضي طبق ما يريد... والتهديدات الآسيية كثيرة في لزوم اتباع

المسلم دون سواء . وتقييده بما قيّده الشارع . . . » (١)
حين أقرأ هذا التعليق أحسب أن واعظاً يعظنا على المنبر
الشريف .

يقول الأستاذ العزاوي إن السلطان المسلم أحق بالاتباع مهما
كان ظالماً . وحجته في ذلك أن السلطان المسلم يكون مهتداً بالسخط
أو بالخلع من قبل الأمة إذا ظلم ، وذلك إضافة إلى ما في الاسلام
من تهديدات إلهية تردعه عن الظلم .

وقد نسي الأستاذ تلك السلسلة الطويلة من سلاطين المسلمين
الذين فاقوا نيرون بظلمهم فلم يردعهم عن ذلك سخط أمة أو تهديد إله .
وما دام السلطان الظالم محاطاً بالفقهاء والوعاظ ، وهم يؤيدونه فيما
يفعل ويدعون له بطول البقاء ، فمتى يستطيع أن يحس بأن هناك
أمة ساخطة أو إلهاً مهتداً .

إن التهديدات الإلهية لا تردع الظالم عن ظلمه . فهو حين يظلم
لا يدري أنه ظالم . إذ هو يسوّغ ظلمه ويرره ويتأول فيه فيجعله
عدلاً لا حجة لا شيء فيه .

وقد برع الفقهاء بما يسمونه بـ « الحيل الشرعية » (٢) . فهم
يستطيعون أن يجدوا مسوغاً شرعياً لكل عمل مهما كان ذنباً .
والسلطان الظالم لا يعمل عملاً إلا بعد أن يجمع الفقهاء ويعرض عليهم

(٣) انظر : عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ١ ص ٢٦٢

(٢) انظر : أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج ٢ ص ١٩٠ وما بعدها .

الأمر . وهم ينظرون حينذاك الى السلطان فاذا وجدوه مصمماً على ذلك العمل أسرعوا الى ما في جعبتهم من الآيات والأحاديث المتناقضة فينقضونها أمامه ليختار منها ما يلائمه . والله غفور رحيم — على كل حال .

يروى أن يحيى بن عبد الله العلوي كان ثائراً على الرشيد في نواحي طبرستان ، فسكّر تباعه واشتدت شوكته ، وهرع الناس اليه من الكور والأمصار . فندب الرشيد اليه الفضل بن يحيى البرمكي . ولجأ الفضل هذا الى طريقة الاستمالة والمصالحة مع الثائر بدلاً من طريقة القتال ، فطلب من الرشيد أن يكتب له أماناً بخط يده .

أسرع الرشيد الى كتابة الأمان وأشهد على نفسه فيه القضاة والفقهاء وجلة بني هاشم ومشايخهم ووجه به مع جوائز سنوية وهدايا فاخرة الى الثائر العلوي عن طريق الفضل . وجاء العلوي بصحبة الفضل فلقيه الرشيد خير لقاء واكرمه واعدق عليه الأموال وأمر الناس بزيارته والتسليم عليه .

ثم تغير الرشيد عليه بعد ذلك وأراد الوقعة به . فجمع الفقهاء عنده في مجلس واستفتاهم في نقض أمان يحيى العلوي .

وقصة مجلس الفقهاء هذا مهمة جداً من الناحية الاجتماعية والنفسية . ففيه نرى مدى قدرة الفقهاء على ردع الظالم وعلى تخويفه من الله جدياً .

حاول الفقيه المشهور ، محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ، أن يظهر للرشد صحة الأمان وأنه لا يمكن نقضه . فجادله الرشد في ذلك . وأصر الحسن على رأيه ، فخذ عليه الرشد (١) .

فنظر الرشد الى فقيه آخر ، هو أبو البخري القاضي ، وسأله فكان الجواب عنده حاضراً . فقد أفتى بأن الأمان منتقص من عدة وجوه ثم ابتكر طريقة شرعية لتمزيقه .

هتف الرشد عند ذلك مسروراً : « أنت قاضي القضاة ، وأنت أعلم بذلك » . فزق الرشد الأمان ثم ثقل فيه أبو البخري (٢) .

هذه قصة تروى ، ولا ندري أكانت صحيحة بجميع تفاصيلها أم غير صحيحة . ومن يلرس نفسية السلاطين يخيّل اليه أنها صحيحة . فالعقل البشري هو في الواقع كالنبتة التي تأخذ من مواد التربة ما يلائم مزاجها وترفض الباقي .

فاذا جاء أحد الناس يريد أن يعظ السلطان وعظاً شديداً لا يوافق فيه ولا تزلف وقع بين أمرين : إما أن يُعفي السلطان عن موعظته ويحمله ، أو يحقد عليه ويؤذيه . وقليل من السلاطين من يتأثر بموعظة تخالف مزاجه أو هواد .

وكثيراً ما يكون الحاكم ظالماً وهو لا يدري انه ظالم . إنه يجد لنفسه عنراً في جميع ما يفعل . فاذا جاءه واعظ يقول له :

(١) انظر : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٠٤

(٢) انظر تفاصيل القصة في : محمد براتق ، البرامكة في ظلال الخلافة ،

« ان الظلم يغضب الله » أوماً السلطان برأسه إيماءة القبول وقال له :
« أحسنت .. بارك الله فيك ! »

إن السلطان لا يدري بأنه هو المقصود بهذه الموعظة . فهو يعتقد
انه عادل لا شك في عدله . وربما أعطى الواعظ هبة كبيرة مكافأة
له على تلك الموعظة المسيلة للدموع .

إن قولك للظالم أن يكون عادلاً كقولك للمجنون أن يكون
عاقلاً . فالمجنون يعتقد أنه هو العاقل الوحيد من بين جميع الناس .
فاذا قلت له : « يجب على الانسان أن يكون عاقلاً » قال لك :
« أحسنت ، ان العقل زينة الرجل ! » وهو يعني بذلك نفسه طبعاً .

يقول ابن جبير : إن ابن الجوزي عندما خطب بحضور الخليفة
ووالدته « أخذ بالثناء على الخليفة والدعاء له ولوالدته وكنى عنها
بالستر الأشرف والجناب الأرف . ثم سلك سبيله في الوعظ . كل
ذلك بديهة لا روية . ويصل كلامه ذلك بالآيات المقروءات على
النسق مرة أخرى . فأرسلت وابلها العيون ... » (١)

الغريب أن ابن الجوزي حين يذكر الخليفة يدعو له ويثني
عليه ويرجو أن يمد الله ظله على الأرض . أما حين يلتفت الى رعايا
الخليفة فتراه يأخذ بالتهديد والتخويف وبالتحذير والتهويل . كأن
أفراد الرعية هم الظالمون والخليفة هو المظلوم ...

(١) انظر : ابن جبير ، المصدر السابق ، ص ١٧٧

إن الخليفة يشعر من جراء إيجاء المتزلفين له بأنه ظل الله في الأرض حقاً ، له الأمر وعلى رعاياه الطاعة . فإن عصوا فهم زنادقة ملحدون يلعنهم الله ويلعنهم الناس .
جاء أحد الشعراء إلى الرشيد يمدحه . فقال يخاطبه : « ... كأنك من بعد الرسول رسول » . وتقدم شاعر آخر بين يدي المعز الفاطمي قائلاً :

ما شئت لا ما شامت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار
ووصفوا المتوكل على الله بأنه :
« ظل الله الممدود بينه وبين خلقه » ^(١) .

* * *

يروى الدميري أن الرشيد استدعى إليه أحد الزهاد المترهين ، واسمه سفيان الثوري ، ليكرمه ويقربه كما فعل بغيره من رجال الدين . فكتب إليه سفيان رسالة شديدة الالفة جاء فيها : « أما بعد فاني كتبت إليك أعلمك اني صرمت جملتك وقطعت ودك وانك قد جعلتني شاهداً عليك باقرارك على نفسك في كتابك انك هجمت على بيت مال المسلمين فأنتفتحه في غير حقه وأنفذته في غير حكمه . ولم ترض بما فعلته وأنت ناء عني حتى كتبت إليّ تشهدني على نفسك . أما أنا فاني قد شهدت عليك أنا واخواني الذين حضروا

(١) انظر : جرجي زيدان ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٩٥

كتابك وسنؤدي الشهادة غدأين يدي الله الحكم العدل . يا هرون
هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ... هل رضى بفعلك المؤلفة
قلوبهم والعالملون عليها في أرض الله والمجاهدون في سبيل الله وابن
السبيل ... ؟ أم رضى بذلك حملة القرآن وأهلم العلم (يعني العاملين) ؟
أم رضى بفعلك الأيتام والأرامل أم رضى بذلك خلق من
رعيتك ؟ » (١) .

قد يحدث في بعض الأحيان أن يتقدم بين يدي السلطان واعظ
من هذا الطراز الشاذ . ولكن ما نفع واحد تجاه المئات من الواعظين
الذين يخفون بالسلطان ويتزلفون إليه ؟ وما نفع بان خلفه الف
هادم — كما يقول الشاعر .

وكثيراً ما يُتهم مثل هذا الواعظ النابي بالزندقة ثم يأمر السلطان
بقتله ويؤيده في ذلك من حوله من المتزلفين — فيخسر الواعظ عند
ذلك ديناه وآخرته معاً .

* * *

يحكى أن الرشيد كان في مكة ، في سنة من سني حكمه ، يقوم
بشعائر الحج . فشاهد آنذاك وهو يدعو دعاءً كثيراً لطيبه
المسيحي جبريل بن بختيشوع . فأنكر عليه ذلك من حضره من
أقربائه ، وقالوا له : « انه ذمي ! » فأخذ الرشيد يبرهن لهم بأن دعاءه
لطيبه المسيحي جائز وهو بالأحرى في مصلحة المسلمين . وكانت

حجته في ذلك : ان صلاح بدن الخليفة بيد طبيبه ، ولما كان صلاح المسلمين بصلاح خليفتهم ، فصلاحيهم إذن متوقف على تطويل عمر الطبيب واسعاده بغض النظر عن دينه ^(١) .

إنها ، والحق يقال ، حجة منطقية قوية . وهي تذكرنا بالحجج التي اعتاد رجال الدين عندنا أن يأتوا بها عند ما يريدون البرهنة على رأي من الآراء .

إنها تعتمد في تسلسلها المنطقي على القياس الارسطوطاليسي . وهذا القياس عجيب جداً . في الامكان الاتيان به لتأييد أي رأي وتأيد نقيضه ايضاً ^(٢) .

وقد أصبح هذا القياس الارسطوطاليسي وسيلة كبرى من وسائل الطغاة ووعاظهم يلجأون اليه عند ما يشاهدون الناس متلبسين بجرمة الظلم أو الدفاع عنه .

فاذا اشترى أحد الطغاة جارية بمائة الف دينار فانه يستطيع ، على أي حال ، أن يستعين بالمنطق الارسطوطاليسي فيبرهن للناس بأن في شراء الجارية صلاحاً للمسلمين . ذلك لأن الجارية سوف تسعد أميرهم ، وفي سعادة أمير المؤمنين سعادة للمؤمنين أنفسهم — وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله عزيزاً حكيماً .

يدافع الدكتور أحمد أمين عن الرشيد قائلاً : بأنه كان نتاج

(١) انظر : ابن أبي اصيبعة ، طبقات الأطباء ، ج ١ ص ١٣٠

٢١ انظر : علي الوردي ، خوارق اللاشعور ، الجزء الأول ، الفصل الثاني

ظروفه الاجتماعية . وما كان لأي رجل من رجال العصر الحاضر ، في رأي أحمد أمين ، أن يفعل غير ما فعل الرشيد لو عاش في زمنه وتخلّق بأخلاقه وأحيط بالبيئة التي احاطت به . ويقول أحمد أمين بعد ذلك : « فلنأخذ الأمور كما جرت ، ولننقسها بمقياس زمانها لا بمقياس زماننا نحن خصوصاً وأنتا لم نسمع من الرشيد حججه فيما فعل ... » (١)

إن أحمد أمين مصيبٌ في رأيه هذا إلى حد بعيد . فنحن لا نتظر من هرون الرشيد أن يكون زاهداً عادلاً كعمر بن الخطاب . ذلك أنه عاش في عصر كان الترف فيه يعدّ منخرةً وكلاً . وكما ازداد الحاكم في بذله وبذخه وتشيد قصوره ارتفعت منزلته في نظر الناس .

والرشيد لا يلام على هذا . انه يلام بالأحرى على ازدواج شخصيته وشخصيات من حوله من الفقهاء والواعظين . إنه يعذر نفسه حين يشتري جارية بمائة ألف دينار أو ينسكت عهداً موثقاً كتبه بيده أو يسفك دماء الناس من غير سبب . هذا ولكنه لا يعذر رعاياه اذا تدمروا أو تزندقوا أو فسقوا أو سرقوا . وهو لو استمع إلى حججهم فيما يفعلون لوجدهم مثله مدفوعين بظروفهم النفسية والاجتماعية .

فالفقير اذا غمر لامرأة في الطريق أقاموا الدنيا عليه وأقعدوها .

(١) انظر : أحمد أمين ، هرون الرشيد ، ص ١٤٧ وص ١٩٧ .

أما إذا اشترى الغني مئاة الجواري واشبعهن غمراً ولمزاً كل ذلك عليه حالاً طيباً . وإذا خرج الطاغية عن تعاليم الدين قالوا عنه : انه مجتهد ، ومن اخطأ في اجتهاده فله حسنه . أما اذا جاء الفقير برأي جديد قالوا عنه : انه زنديق . وأمرؤا بصلبه على جذوع النخل .

بروى أن بشر المريسي ، وكان معتزلياً ، قال بخلق القرآن في أيام الرشيد . فسمع الرشيد بذلك فقال : « بلغني أن بشراً يقول القرآن مخلوق . والله ان اظفرني الله به لأقتله » . وعاش بشر متخفياً طيلة أيام الرشيد ^(١) . وأكبر ظني أن الرشيد لو عرف بمكانه لاعتقله وقتله .

إن الجريمة التي استحق بها هذا الرجل القتل هو قوله بأن القرآن قد خلقه الله كما خلق سائر الأشياء . وكنت أحسب لأول وهلة أن بشراً كان يريد أن يخلق قرآناً لنفسه ، ثم تبين لي أخيراً بأنه مؤمن بالله وبالقرآن مثل الرشيد . ولا ذنب له إلا قوله بأن القرآن مخلوق . فأسمى بذلك مطارداً مهدداً بالقتل في كل لحظة .

يحكى أن رجلاً من أهالي النهروان حج في أيام الهادي فنظر الى الناس يهرولون في الطواف فشبههم « بقر تبوس في البيدر » . فلما سمع الهادي بهذا التشبيه الرائع أمر بالرجل فقتل ثم صلب ^(٢) .

(١) انظر : أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج ٣ ص ١٦٢

(٢) انظر : المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٤٨

يقال أن الهادي أمر أثناء ذلك أن يهيباً له الف جذع من
جذوع النخل لكي يصلب عليها الزنادقة . وصرح قائلاً : « والله
لئن عشت لأقتل هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عيناً تطرف » (١) .
ومن حسن حظ الرعية ، أن الهادي مات قبل تنفيذ هذه
الخطة الجهنمية .

اني لأحسب الوعاظ والفقهاء يمجدون الهادي وأخيه الرشيد
على هذه القسوة التي أبدياها تجاه الزنادقة . فهم لا يجدون عذراً
لهؤلاء المساكين ولا يريدون الاستماع لحججهم . والزنادقة كغيرهم
من الناس لم يعتقدوا هذا المذهب من تلقاء أنفسهم . فهم إما ورثوا
ذلك عن آبائهم أو انجرفوا فيه بتأثير محيطهم الاجتماعي . ولن
يستطيع انسان أن يعتقد ديناً أو يرفضه نتيجة تفكيره المجرد وحده .
والغريب أن بعض الفقهاء ذهبوا الى أن الزنديق يجب أن يقتل
ولا تقبل توبته إذا تاب (٢) .

فهؤلاء الفقهاء لا يعاقبون الحكماء الذين زرعوا بترفهم بذور
الزندقة في الناس ، إنما عاقبوا معتققيها .
قد يتزعزع ايمان أي إنسان حين يرى أمير المؤمنين ينهب
اموال الأمة ثم يذرها على ملذاته وشهواته . والعجيب أن نرى
الناهب معذوراً والمنهوب معاقباً .

(١) انظر : المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٤٧

(٢) انظر : المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٩٤

الفصل الثالث

الوعظ واصلاح المجتمع

يعتقد الواعظون أنهم كلما غالوا في وعظهم وصعدوا في نصائحهم الى أجواز السماء كان ذلك أدعى الى تحسين اخلاق الناس والى السمو بها . فهم يظنون أن الواعظ بتحليقه هذا يستطيع أن يرفع اخلاق الناس معه . كأن الأمر عندهم يشبه أن يكون سحبا آليا نحو الأفق الأعلى . فهم يسحبون والناس من تحتهم يرتفعون .

إنهم بهذا يشبهون التاجر الذي يسوم بسلعته ثمنا غاليا لكي يهون على المشتري أن يدفع فيها ثمنا معتدلا . كأنهم يتصورون بأن تقويم الأخلاق أمر يشبه المساومة في شؤون التجارة . نسي هؤلاء بأن الأخلاق البشرية ليست كالبضائع التي تباع وتشترى . فالطبيعة البشرية لها نوااميسها التي لا يمكن تخطيها ومن خالف في وعظه تلك النوااميس كان كمن يحرض الناس على العصيان . والانسان حين يرى الهدف الخلقى بعيدا عنه بعدا شاسعا يتملكه اليأس ويأخذ عند ذلك باهماله أو بالاستهتار به .

إن الجدير بالواعظ أن يضع الهدف الخلقى واطنا في متناول الكثير من الناس ، لكي يشجعهم بذلك على السعي نحوه والتنافس عليه .

شعار الوعاظ عندنا هو أن القدوة العالية خير من القدوة
الواطئة . والواقع أن القدوة الواطئة خير وأبقى ، فهي تحفز الانسان
على العمل وتبعث فيه التفاؤل . أما القدوة العالية التي لا يستطيع
تناولها إلا القليلون فهي تكون في نظر اكثر الناس اضحكة
يتقافزون حولها ويتنادرون عليها .

إن القدوة الخلقية العالية تكون مثل عنقود العنب ذلك الذي
حاول صاحبنا الثعلب أن يناله فلم يوفق . فبعد ما كرّر الثعلب القفز
نحو العنقود امتلكه اليأس فط شفتيه وقال : إنه على أي حال
عنب حامض !

إن فلاسفة التربية الحديثة يشجعون تلاميذهم على الرقص واللعب
والضحك ، وعلى تعاطي الغرام في وضوح النهار ، ولسان حالهم
يقول : ارقصوا في النور ولا ترقصوا في الظلام . وهم بهذا نصحوا
بأمر يسير لا يصعب تنفيذه .

أما وعاظنا فقد اندروا بعذاب الله كل من يحب أو يرقص حتى
ولو كان كالطير .. يرقص مذبحاً من الألم .

وتراهم يأمررون الناس بالتزام الوقار والسكينة وخمود الانفاس —
غير دارين بأن هذا الوقار المصطنع سوف يخفي وراءه رقصاً نفسياً
من طراز خبيث .

* * *

شاهدنا في صدر الاسلام كثيرآ من الثورات الفاشلة — خصوصاً

في مدينة الكوفة . فأهل الكوفة لا يكادون يبايعون زعيماً على الثورة حتى يغدروا به . ولكثرة ما بايعوا وغدروا أمسى معنى البيعة مرادفاً لمعنى الغدر . ولا يزال أهل العراق يقولون في من يغدر « انه بايع » . وسبب هذا الغدر الاجتماعي ناشيء من التباعد بين اهداف الواعظين واهداف الحياة الواقعية .

فالناس يلهجون ، من جراء الوعظ التتوالي عليهم ، بذكر المثل العليا والمبادئ السامية . وكثيراً ما نراهم يحرضون الزعماء على الثورة قائلين لهم : انهضوا .. فاننا معكم .

ولكنهم لا يكادون يرون الزعيم قد ثار فعلاً حتى يتيسر لهم ما ستجرحه عليهم ثورته تلك من خسائر في الأموال والأرواح . وعند ذاك يضطرم الأمر الواقع على النزول من أبراجهم العاجية التي صعدوا اليها من قبل .

إن الزعيم ، كغيره من بني آدم ، يريد جزاء أعلى ما يقوم به من تضحية وجهد . فهو إذا رأى الناس غدّارين لا يوثق بهم ، قبع في بيته وألقى حبالها على غاربها . إن نجاح زعيم من الزعماء يؤدي طبعاً الى تحريض غيره على اتباع سبيله .

والزعيم قد لا يطلب جزاءً مادياً على عمله . إنه قد يكتفي بالجزاء الاجتماعي . فالزعيم الذي يرى الناس حافيين به مقدرين له يشعر بشيء كثير من الغبطة .

والانسان يختلف عن الحيوان بكونه يحب السمعة والمكانة الاجتماعية . وكثيراً ما يضحي الانسان بالمال في سبيل لقب يحصل عليه أو شهرة ينالها .

ولو درسنا طبيعة الانسان دراسة موضوعية لوجدناه يجري وراء الشهرة جرياً لا يقف عند حد . وهو كلما ازداد اشتهاره بين الناس ازداد هو سعياً في سبيل تدعيم الشهرة وحرصاً عليها .

وهذا هو سبب ما نرى من حب للزعامة في المجتمعات التي تقدّر الزعماء .

فاذا رأيت الجماهير تصفق لزعيم وترقص وراءه وتلهج بذكره فاعلم أن الزعيم سوف يعمل المستحيل في سبيل إرضاء تلك الجماهير . إن الزعيم ليس ملاكاً يختلف بطبيعته عن سائر الناس . إنه يطلب الشهرة والمكانة كغيره من الناس . فاذا رأى الشهرة لا تأتي إلا عن طريق التضحية والخدمة العامة ، فانه لا يجد مناصاً من السير في هذا الطريق الوعر .

وكثيراً ما يظن المغفلون بأن الزعيم مخلص بطبيعته أو هو مجبول على التضحية من تلقاء نفسه . وهذا في الواقع رأي غير صحيح . إن الزعامة ظاهرة اجتماعية ، تنبعث من المجتمع وتنمو به . ولن تجد زعيماً يظهر في مجتمع لا يقدره .

ومشكلة المشاكل في مجتمعنا الراهن أنه مزدوج . فهو يريد

زعيماً ولكنه لا يملك في نفسه نزعة التقدير اللازمة لظهور الزعماء .
وهنا يأتي وعاظ السلاطين فيزيدون في الطنبور نعمة .
قلنا إن الواعظين وضعوا في الأخلاق مقياساً صعباً لا يذله إلا
من شدّ وندر . ولذا فنحن لا نكاد نلاحظ بذرة من بذرات الزعامة
تظهر في أحد الناس حتى نقتلها في مهدها .
إن البذرة تحتاج الى رعاية وعطف لكي تنمو وتصبح شجرة
باسقة يستظل بها الناس .

وفي مجتمعنا نجد الانتقاد صارماً على كل انسان . فكل انسان ،
مهما كان فاضلاً في حد ذاته ، يكتشف الناس فيه عيوباً من جراء
ما اعتادوا عليه من مقياس دقيق في الأخلاق . وتراهم لذلك يزلقون
كل ناشئ بالسنة حداد ، فيميتون فيه نزعة النبوغ .

إن المجتمع المزدوج يقل فيه ظهور الزعماء الأقوياء في الغالب .
فكل زعيم يظهر في هذا المجتمع يقابله الناس بالجدل والشغب
والانتقاد . إن توالي الوعظ عليهم جعلهم أولي نظر دقيق وتفكير
افلاطوني مغرط . إنهم يجدون عيباً في كل رجل يظهر بينهم
كان نبلاً .

والزعيم لا يعتمد في زعامته على مواهبه فقط . إنما هو يعتمد
أيضاً ، كما قلنا ، على تقدير الناس له وتشجيعهم إياه . والزعيم في
المجتمع المزدوج لا يجد تشجيعاً أو تقديرًا إلا بمقدار ضئيل .

إن الزعيم يخلق الأمة وهي تخلقه في الوقت ذاته . فالأمة لا تستطيع أن تخلق من شخص تافه زعيماً ، وكذلك لا يستطيع الشخص الموهوب أن يكون زعيماً في أمة لا تقدّره .

إن السبب والنتيجة يتفاعلان هنا تفاعلاً متسلسلاً — على حد تعبير علماء الذرة . وإذا أردت أن تفهم سر الزعامة في أحد الرجال ، فاسأل عن شخصيته من جهة وعن تقدير الناس له من الجهة الأخرى . إن المجتمع المزدوج لا يستطيع عادة أن يجمع أمره على تقدير زعيم من الزعماء . فهو نقاد من طراز غريب . فلو عاش مع الأنبياء لوجد فيهم كثيراً من الهنات والمعائب .

ويضطر الزعيم في هذا المجتمع أن يموت في سبيل مبدئه لكي يعرف الناس قدره . فهو ما دام حياً فإن الناس لا بد أن يلاحقوه باحثين عن عيوبه . إنهم يقارنون صفاته بصفات الأنبياء المعصومين فيجدونها ناقصة . والأنبياء لم يصيروا معصومين إلا بعد أن ماتوا وعفى عنهم غبار الأيام والليالي .

إن الوعظ يجعل الناس شديدين في نقد غيرهم . فالمقاييس الأخلاقية التي يسمعونها من أفواه الوعاظ عالية جداً . وهم لا يستطيعون تطبيقها على أنفسهم فيلجأون إلى تطبيقها على غيرهم ، وبذا يكون نقدهم شديداً .

إنهم لا يبصرون عيوبهم . فهم يستطيعون أن يأتوا بالحجج والأعذار لتبرير أعمالهم في ضوء ما سمعوه من المقاييس الوعظية .

أما غيرهم فلا عذر له . ولذا نراهم يكفّر بعضهم بعضاً ويضطهد بعضهم بعضاً .

ويشتد هذا الأمر في المجتمعات الدينية . ففي هذه المجتمعات يكون الوعظ على أشده ، ويكون فيه الانتقاد والبحث عن عيوب الناس إذن هائلاً .

ويلاحظ أن الوعاظ أنفسهم بارعون في انتقاد غيرهم . فهم يحفظون عدداً كبيراً من المقاييس الأخلاقية الدقيقة ، إذ هم يكررونها على مسامع الناس صباح مساء . ولذا فهم يستعملون هذه المقاييس سلاحاً ضد الذين يكرههم . فلا يكادون يلمحون في أحد قولاً أو فعلاً منافياً لما وعظوا به حتى ينالوا عليه لعناً وذماً . وربما أعلنوا عليه الجهاد في سبيل الله !

عرفت في صباي زميلاً من زملائي في المدرسة وكان قد نشأ في بيئة وعظية مترممة . وكنت أراه كثير النقد للناس لا يسلم أحد من لسانه . إنه كان يندب على الناس تركهم لتعاليم الدين وقلة خوفهم من الله . وقد حدث ذات مرة أنه كان يعظنا بمثل هذه المواعظ المبكية ، فلمح شحاذاً أعمى قادماً من بعيد . وإذا به يقطع موعظته ويجري نحو الأعمى ليختطف منه عصاه تاركاً إياه يستغيث ... ولا من مغيث . لعله كان يعتذر عن عمله هذا بأنه كان يمزح — وما في المزاح من خير . واني واثق من أنه كان ينتقد غيره انتقاداً لا ذعاً لو رآه يفعل هذه الفعلة المنكرة .

ومما تجدر الإشارة اليه أن كل انسان فيه عيب من العيوب ،
لا يخلو من ذلك أحد . وقد قيل قديماً : « جلّ من لا عيب فيه » .
هذا ولكن الواعظين يعتقدون بأن السلف الصالح كان معصوماً من
العيب . وبهذا يريدون من الناس جميعاً أن يكونوا من طراز
السلف الصالح .

ومن يدرس حياة السلف الصالح دراسة موضوعية ، يجدهم
كسائر الناس يخطئون ويتحاسدون ويطلبون الشهرة كما يطلبها كاتب
هذه السطور .

لقد كانوا بشراً مثلنا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق .
ولكن الواعظين جعلوهم من طراز الملائكة ، لكي يحرّضوا الناس
على اتباع مسلكهم في الحياة .

إن الواعظين حلقوا بمواعظهم ، كما أسلفنا ، في السحاب .
ثم رجعوا بعد ذلك الى رجال السلف يزكّونهم ويجردونهم من
جميع عيوبهم لكي يجعلوا منهم قدوة للناس . لقد خلقوهم بأيديهم
كما يخلق الفنان تمثاله . ثم جاؤا إلينا يريدون أن نكون مثلهم .
وبهذا وضعوا أمامنا غاية لا تتال .

وعندما يظهر زعيم يتنا نواه لا يليق بالزعامة . وذلك لأننا
نقارنه بتلك القدوة الخيالية التي صنعها لنا الواعظون .

إن الزعيم يحتاج الى تقدير اجتماعي عام لكي يستطيع النهوض
برسالته . فالزعيم لا ينهض بشخصيته وحدها . والناس حين يقدّرون

الزعيم يخلقونه خلقاً جديداً . ولهذا نجد الزعماء الأقوياء يظهر
في البلاد التي تكون نزعة التقدير فيها قوية .

ومن يقارن العراق بسائر البلاد الشرقية يجده قاحلاً من الزعماء
المشهورين فحولة تلفت النظر . والزعيم المخلص فيه لا ينال التقدير إلا
بعد موته . فهو عند ذلك يدخل في غابر التاريخ وتسحب الأيام
على عيوبه ذبول النسيان .

أما في حياته فالناس يطعنونه من كل جانب . ويكثرون من
ذمه والبحث عن عيوبه .

لقد صنع الواعظون لنا أنماطاً من السلوك فوق متناول البشر ،
وتركونا تركض وراءها من غير جدوى — كمن يركض
وراء السراب .

ومن الظواهر النفسية التي تلفت النظر في أولي الشخصية
المزدوجة ، هي أنهم يحبون من لا يحترمونه ويحترمون من لا يحبونه .
فتجد هناك فرقاً كبيراً بين محبة الناس واحترامهم .

وقد وصف ميكافيلي مجتمعه الذي كان يشبه في ازدواجه مجتمعا
الحاضر ، فقال : « من الممكن أن يقال بوجه عام أن الانسان منافق
سليط اللسان منكر للجميل يحب الربح ويكره الخطر . وما دمت
تنفعه فهو من أتباعك إذ هو يقدم في سبيلك ذمه وروحه وأمواله
وأطفاله .. والأمير الذي يعتمد على أقوالهم وحدها ... يُحطَّم .

فالصدقة التي ينالها بالشراء ... لا تبقى . وقد تنقلب عليه في لحظة ... » (١)

ويقول مكيا فيلي أيضاً : « ... إن من الصعب أن يكون الأمير مهيئاً ومحبوفاً في آن واحد . ولو خيَّرتَ بين أن تكون مهيئاً مكروهاً أو تكون محترماً محبوباً فالأسلم أن تختار المهابة بدلاً من المحبة ... فالناس لا يتورعون أن يؤذوا المحبوب ، ولكنهم لا يقدمون على إيذاء المهيب . فالحب عاطفة ... لا تلبث أن تحمد إذا نالت مرامها . أما المهابة فيسببها خوف العقوبة وهذا أمر لا مفر منه » (٢) .

ومن يقرأ وصف مكيا فيلي هذا يحسب أنه يقرأ وصفاً لأهل العراق . فكثيراً ما نجد الناس هنا يحبون انساناً ولكنهم لا يقدرونه أو يحترمونه . فهم يسخرون منه ويضحكون على ذقه ، وقد يرمونه بالسفساف من القول احتقاراً له . وذلك بحجة : أن من أحبك آذاك .

والإنسان الذي يشعر بكرامته يفضل أن يكون مهيئاً بين الناس محترماً ، على أن يكون محبوباً تحنو عليه القلوب . وجدت في المجتمعات الراقية صلة وثيقة بين حب الفرد واحترامه . فهم إذا أحبوا شخصاً وقروه ورفعوا من ذكره . أما في مجتمعاتنا فربما كان العكس صحيحاً .

(١) انظر : Machiavelli, The Prince & The Discourses, p. 61

(٢) انظر : نفس المصدر .

وسبب هذا قد نشأ ، فيما أظن ، من جراء الازدواج الذي تغفل في تكوين شخصيتها . فنحن في أعمالنا بدو نحتقر الضعيف ونحترم القوي . أما في أفكارنا فنحن افلاطونيون ننشد المثل العليا . فنحن اذا أحيينا شخصاً كانت قلوبنا معه وسيوفنا عليه .

أما اذا احترمنا أحداً فالغالب أن يكون هذا المحترم من الجلاوزة أو أبناء الجلاوزة . فنحن نكرهه بقلوبنا ونحتزمه بالسنتنا . توالت على العراق ، كما لا يخفى ، عهود من الظلم والاستغلال والقسوة . فبلدنا هذا كان يسمى قديماً « طريق الفاتحين » وأحسب أنه لا يزال طريق الفاتحين كما كان قديماً .

وقد اعتدنا من جراء ذلك على احترام الغالب الفاتح مهما كان نوعه . إن السيف والسوط كانا مسططين في كل حين على رؤوس آبائنا وأجدادنا رحمهم الله . ومن كان منهم جريئاً صريحاً يقول الحق من غير خوف وقع تحت رحمة السيف والسوط وذهب من بعد ذلك الى جهنم خالداً فيها .

لم يبق في هذا البلد ، على مرور الأجيال ، إلا من كان مزدوجاً أو منافقاً — يحترم من لا يحب ويحب من لا يحترم .

وكان وعاظنا سامحهم الله لا يفتأون يدعون لأصحاب السيف والسوط بطول العمر في كل صباح ومساء . فهم يقولون للظالم أحسنت ، والمظلوم أسأت .

وهم كانوا ينصحون الناس بأن لا يشتكوا من ظالم . فالظلم قد

حل بالناس من جراء ما عملت أيديهم ، وذهبت البركة منهم لسوء نياتهم ، والناس على نياتهم يرزقون .

لا نكران أن العهد العثماني كان من أشد العهود التي شهدتها تاريخ هذا البلد عسفاً ولؤماً ودناءة . فقد أمسى البلد خلال هذا العهد خراباً يعيث به اللصوص واللسفا كون والمرابون . ووجدنا الوعاظ رغم ذلك يرفعون أيديهم عقب كل خطبة يدعون الله أن ينصر الدين والدولة معاً .

يروى عن رسول الله أنه قال : « لا تسبوا الولاة ، فانهم إن أحسنوا كان لهم الأجر وعليكم الشكر . وإن أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر . وإنما هم نعمة ينتقم الله بهم من يشاء ، فلا تستقبلوا نعمة الله بالحمية والغضب ، واستقبلوها بالاستكانة والتضرع » (١) .

والنبي حين قال : « لا تسبوا الولاة ولا تستقبلوهم بالحمية والغضب » إنما كان يقصد بذلك ولاته الذين عيّنهم هو وأشرف على تدريبهم . أما الواعظون فقد أرادوا منا أن نرضخ لكل والٍ مهما كان ظالماً . ونسوا أمر النبي إذ قال : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » . إنهم حفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء .

وكأنهم لم يكتفوا بحديث النبي في هذا السبيل فجاؤنا بحديث الله المنتقم الجبار . روى الطبراني عن أبي الدرداء عن النبي

(١) انظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ١١

ان الله قال : « أنا الله لا إله إلا أنا ، مالك الملك ، ومالك
القلوب ، قلوب الملوك في يدي ، وان العباد اذا أطاعوني حولت
قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة ، وان العباد اذا عصوني حولت
قلوبهم عليهم بالسخط والنقمة فساموهم سوء العذاب . فلا تشغلوا
أنفسكم بالدعاء على الملوك ، ولكن أشغلوا أنفسكم بالذكر والتقرب
إليناكم ملوككم » (١) .

وبهذا أصبحنا مضطرين أن نحترم الظلمة والطغاة ونقوم لهم
تبعيلاً وننظم القصائد الرنانة في مديحهم . فنحن نحترمهم من غير أن
نحبهم . وقد أمست هذه عادة مستأصلة فينا لا نستطيع منها خلاصاً .
فاذا ظهر بيننا زعيم مخلص أحبيناه ولكننا لا نخاف منه ولا
نهابه . فهو طوع يدنا لا تتوقع منه شراً ولا حقداً . ونحن بذلك
لا نثير فيه حب التضحية . فالزعيم ينشد لنفسه المكانة الاجتماعية ،
وماذا ينفعه أن يقول الناس له : « بارك الله فيك » ثم لا يؤيدونه في
شيء أو يقومون له بواجب .

* * *

لقد اعتدنا أن نتزلف الى الجلاوزة اصحاب القوة . فهذا كان
سبيل البقاء في الحياة في عهود الآباء والأجداد . فنحن نقدر من
يقدر على الشر . أما صاحب الذات الحسنة فلا ضرر منه ولا داعي
لتقديم مزيد الاحترام اليه .

(١) انظر : زين الدين الخدادي ، الاتخاظات السنية ، ص ٩٧

يقول أحد الشعراء :

إذا أنت لم تنفع فضرّ فأنما
يراد الفتى كما يضرّ وينفع
ويقول شاعر آخر :

إذا لم تكن ذنباً على الأرض أجرداً
كثير الأذى بالت عليك الثعالب
ويقول شاعر آخر :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
إن هذه أبيات من الشعر العربي ، أصبحت أمثالا تناقلها
الأفواه . والأمثال في الغالب تنم عما في المجتمع من قيم ومقاييس
خلقية .

إن توالي الطغاة علينا جعلنا لا نأبه للخير من الناس ونحترم
الشرير . وبهذا فقدنا أعظم ما يعتز به الانسان من حافز المكافئة
الاجتماعية . أهملنا احترام المحصلين بيننا فقلّ بذلك ظهور
المحصلين لنا .

ولا يكاد يجرأ أحدنا على قول الحق فينا له من جراء ذلك شيء .
من الأذى ، حتى ترى الناس قد احاطوا به موبخين لأئمين . فهم
يقولون له : ماذا أصابك ؟ أنت مجنون ! وهو يشعر إذن بأن
طريق السلامة خير له من تضحية تثير عليه لوم اللأئمين .

إن الانسان هو الانسان في كل زمان ومكان . فاذا رأيتم
زعيماً مخلصاً قد ظهر في بلد من البلاد فاعلموا أن هناك جماهير غفيرة
تقدسه وتصفق له وتحمله على الأكتاف .

نقول عن الزعيم غاندي أنه كان مخلصاً عظيماً . نقول هذا
ونسأل الله تعالى أن يرزقنا زعيماً مثله .

والواقع أن غاندي لم ينل زعامته باخلاصه وحده . فهناك
الملايين من الهنود كانوا يقدسونه ويكادون يعبدونه . وكما ازداد
الطفة في طغيانهم عليه ازدادت الجماهير إعجاباً به وازداد هو
إيماناً واخلصاً .

ومن حسن حظ غاندي أنه لم يولد بين العرب . فلو كان
هذا الرجل القمي الذي يشبه القرد يعيش بيننا لأشبعناه لوماً وتقريعاً ،
ولربما رمينا عليه الأقدار وضحكنا على ذقنه .

دأبنا أن نهاب المترفين ونحرم الجلاوزة الضخام . وسوف لن
نحصل في دنيانا على غير هؤلاء — ما لم تغير هذه العادة الخبيثة .

عبد اليزيديون الشيطان وتركوا الله . وحجتهم في ذلك أن الله
يحب الخير بطبيعته فلا حاجة لاسترضائه أو عبادته . أما الشيطان
فهو مجبول على الشر ، وهو إذن أولى بالعبادة والاسترضاء في نظرهم .
نحن نسخر من عقيدة اليزيديين هذه — وما درينا أننا جميعاً
يزيديون من حيث لا ندري .

إن الزعيم المخلص لا يختلف في تكوين شخصيته عن المجرم
الذئبي . فكلاهما من طبيعة واحدة — هي طبيعة البشر .

إن الإنسان بطبيعته أناني يحب ذاته ويسعى في سبيل إعلاء
شأنها . لا فرق في ذلك بين الصالح من الناس والفاسد منهم . فالمصلحة
الخاصة هي رائد الجميع . أما المصلحة العامة فتأتي عرضاً .

فالصالح من الناس هو ذلك الشخص الذي ساعده الحظ أن يجد
له عملاً يتلذذ به وينتفع الناس به في آن واحد . فهو يسعى وراء
مصلحته ولكن مصلحته لحسن الحظ مطابقة للمصلحة العامة إلى حد
بعيد . فالزعيم يروم إعلاء ذاته والحصول على المكانة الاجتماعية .
فهو يخدم الأمة ويذوب فيها ، وينال بذلك شهرة ومكانة . إنه سعيد
إذن لكونه قد برع في عمل ينفعه وينفع الأمة معاً . فهو لا يجد
تناقضاً بين مصلحته ومصلحة الناس .

وليس هذا هو شأن الزعيم وحده . إنه شأن كل مواطن
صالح يقوم بعمل يخدم به نفسه ويخدم الغير في آن واحد . فكل
بارع في فن أو علم أو صناعة هو من هذا الطراز في قليل أو كثير .
فالمخترع الذي يسهر الليالي في سبيل الوصول إلى اختراع جديد ،
إنما هو يسعى في سبيل شيء ينفعه وينفع الناس . وكذلك هو شأن
الكتاب والفنان والتاجر والباحث والمهندس والطبيب والمعلم وغيرهم .
كل واحد منهم يريد بعمله نفع نفسه ولكن المجتمع ينتفع من عمله
أيضاً بمقدار كبير أو صغير .

والمجتمع الناجح هو الذي يكثر فيه أمثال هؤلاء الأفراد الذين يزدون بأعمالهم المتنوعة ثروته ورفاهيته وكرامته .
أما المجتمع الفاسد فهو الذي لا يستطيع أن يوفق بين مصلحته ومصلحة الكثيرين من أبنائه وبذا يكثر فيه المجرمون والمجانين وأولوا اللؤم والاعتداء والحسد .

* * *

لو درسنا نفسية زعيم من الزعماء المشهورين لوجدناه منهمكاً في خدمة الناس انهماكاً غريباً . وقد يحسب المغفلون أن هذا الانهماك المخلص هو سجيّة أصيلة في نفسية الزعيم مغروزة في كيانه الطبيعي . وفي الحقيقة أن الزعيم لم يكن يختلف في أول الأمر عن سائر الأفراد . فهو يبدأ سيرته فرداً عادياً يسعى وراء الرزق والمكانة الاجتماعية كما يسعى غيره . وقد تبدر منه في يوم من الأيام حركة اجتماعية نافعة . إنها قد تبدر منه على سبيل الصدفة ، أو على سبيل آخر غير مقصود . ويشاء الحظ أن تثير هذه الحركة إعجاب الناس وتنال تقديرهم فيتشجع هو بهذا التقدير ، ويزداد عزماً وحماساً . وكما زاد الناس في تقديره زاد هو حماسة في إخلاصه وخدمته . فالمسألة لا تعدو أن تكون تفاعلاً بين عمل الفرد وتقدير المجتمع . يزداد الفرد في إخلاصه ويزداد المجتمع في تقديره ... وهذا هو ما يعرف اليوم بـ « السببية الدورية » . فالسبب الذي يخلق الزعيم ليس ناشئاً عن شخصية الزعيم وحدها ولا عن طبيعة المجتمع وحدها . إنه ينشأ

بالأحرى نتيجة التراكم والتفاعل بين الفعل الذي يقوم به الزعيم
وبين رد الفعل الذي يقوم به المجتمع إزاءه .

إن الزعيم المحلص يضحي بنفسه ونفيسه في سبيل الخدمة العامة ،
وتراه يسهر الليل ويتحمل الاضطهاد وينال الأذى وهو غير مكترث
بما ينال . كأنه مخلوق من طينة غير طينة البشر . وقد يتصور
الناظرون إليه أنه لا يشعر بذاته ولا يجب مصلحتها .

والواقع أن ذاته الخاصة قد اندمجت في ذات المجتمع . فأصبح
على توالي الأيام يشعر بالمصلحة العامة كأنها مصلحته الخاصة .

إنه لم ينس ذاته كما يتصور البعض . فهو محب لها ساع وراء
انماؤها ، لا يختلف في ذلك عن أي شخص آخر . ولكنه يمتاز
مع ذلك بأن ذاته قد كبرت ونمت حتى أصبحت تشمل الناس جميعاً .
فالزعيم الذي يرى الناس يتهافون عليه ويهيمون بحبه ويذوبون
فيه يشعر بأنه قد أصبح رمزاً حياً لهؤلاء الناس . فهو لا يحسّ
بوجوده منفرداً ، إذ يدخل الناس في صميم وجدانه ويصيرون
جزءاً لا يتجزأ من تكوين شخصيته .

أما المحرم الذي يضرّ الناس بأفعاله فهو انسان قد شاء سوء
طالعه أن تكون مصلحته منافية للمصلحة العامة .

إنه ينشأ أول الأمر كما ينشأ الزعيم فرداً عادياً يسعى وراء
ذاته ويراعي مصلحتها . هذا ولكن ظروفه النفسية والاجتماعية قد

تدفعه الى القيام بعمل مضر ذات يوم . فيرمقه الناس بعين الاحتقار .
والناس كما ازدادوا في احتقاره ازداد هو امعاناً في افساده واجرامه .
إن السببية الدورية تعمل في تكوين شخصيته كما كانت تعمل في
تكوين شخصية الزعيم . هذا ينزل وذلك يصعد . وشتان بين
التزول والصعود في نظر الناس .

ثبت في علم الاجتماع أن الاجرام يكثر بين الفقراء والمعوذين
من الناس . فنسبته بين هؤلاء اكبر من نسبته بين المرفهين .
إن الفقير مضطر أن يعمل عملاً شاقاً منذ طفولته الباكرة لكي
يعين أبويه في الحصول على القوت . فهو يعمل طيلة ساعات النهار ،
في شدة البرد والحر ، إذ لا يستطيع أن يرتاح أثناء العمل إلا قليلاً .
إنه يحس آنذاك بأن مصلحته الخاصة منافية للمصلحة العامة .
فالعرف الاجتماعي يفرض عليه أن يكون مجداً كادحاً لا يسأم ولا
يتكاسل . أما طبيعته فتميل به الى التهرب والمراوغة عساه يجد في
ذلك شيئاً من الراحة أو الكسب الاضافي .

وتراه كثير التحايل والمواربة لا يكاد يتعد عنه المراقب حتى
تجده قد اختطف ما لا يحل له من الوقت أو المال .

إنه ميال الى السرقة والاعتداء والكذب والرياء والتزلف
لكي يستطيع أن يزيح عن كاهله جزءاً من العمل الشاق الذي يفرض
عليه . وبهذا أمست مصلحته الخاصة معاكسة لما ينبغي له من دأب
وصراحة وانصاف .

ان الانسان بوجه عام يجب مصلحته قبل أن يجب مصلحة الغير .
فهو اذا رأى المصلحتين متناقضتين أثر طبعاً بمصلحته الخاصة ، واهمل
المصلحة الأخرى . فالانسان الفاسد هو كالمصالح في ذلك .
الفرق بينهما أن من كون أحدهما قد أتاحت له الظروف أن تكون
مصلحته مطابقة للمصلحة العامة ، فسعى في سبيلها وظن الناس أنه
يسعى في سبيلهم فقد روه وكافأوه فانتفعوا به بمثل ما انتفع هو بهم .
أما الفاسد المسكين فهو مكلف بعمل شاق . وهو يرجو استبداله
أو التخفيف منه ، فلا يسمع الناس رجاءه هذا . فهو مضطر إذن
أن يداجي ويماري ، وأن يسرق ويعتدي ، لكي يخفف عن
نفسه شيئاً من العبء الذي فرضه عليه الناس .

يحاول الوعاظ أن يصلحوا اخلاق الناس بالكلام والنصيحة
المجردة ، وما دروا أن الأخلاق هي نتيجة للظروف النفسية
والاجتماعية .

إنهم يحسبون الأخلاق سبباً لتلك الظروف .. لا نتيجة لها .
ولذا نراهم يقولون : « غيّرُوا اخلاقكم تتغير بذلك ظروفكم » .
ولو انصفوا لقالوا عكس ذلك . فلو غيّرنا ظروف الناس لتغيرت
أخلاقهم طبعاً .

فلو رفعنا عن كاهل الناس عبء الفاقة والمشقة ، وجعلناهم
يشعرون بأن مصالحهم مطابقة لمصالح المجتمع ، لصاروا مواطنين
صالحين وتركوا الافساد والاجرام .

يقول توماس بين : « إن الفقر ليتحدى كل فضيلة وسلام ،
لأنه يورث صاحبه درجة من الانحطاط والتدمير تكتسح أمامها كل
شيء .. ولا يبقى قائماً غير هذا المبدأ : كن .. أو لا تكن .. »
ومشكلة الوعاظ عندنا أنهم يحاولون تقويم السلوك البشري
بمجرد قولهم للانسان : كن .. ولا تكن .. كأنهم يحسبون السلوك
طبيعاً يكتفونه بأيديهم كما يشاؤون .

ونراهم يحرضون الانسان أن يضحي بمصلحته الخاصة في سبيل
المصلحة العامة . ناسين أن المصلحة الخاصة هي اساس الطبيعة البشرية .
فان هي تناقضت مع المصلحة العامة كان ذلك ايذاناً بالفساد الذي
لا علاج له .

إن الواعظ الحق هو الذي يدعو الى الاهتمام بالمصلحة الخاصة
والى تقريب المصلحة العامة منها .

والمجتمع الناجح هو الذي ينزل بمصلحته الى مستوى المصالح
الخاصة ويماشيها . أما اذا كان المجتمع يريد من افراده أن يتركوا
مصالحهم في سبيله فاعلم أنه مجتمع فاشل — يجب أن تقرأ عليه السلام .
سمعت ذات يوم واعظاً يعظ المستمعين الكرام من دار الاذاعة
فيقول : « إن المؤمن لا يشعر بفقر أو حاجة ، فإيمانه يسمو به عن
الشعور بمثل هذه السفاسف الواهية » .

يخيل لي أن إيمان هذا الواعظ يشبه إيمان المتلذذ بأمر الله —
هرون الرشيد . فهو قد قضى حاجته واشبع رغباته باذن الله ، حيث

صار يعظ السلاطين فينعمون عليه بما لذ وطاب من مال ومكانة .
وتراه قد استفاد من إيمانه استفادة كبيرة فقال بذلك خير الدنيا
والآخرة . ثم جاءنا بعد ذلك يريد منا أن نفسي عضة الفقر باعتبار
أننا مؤمنون يجب أن نسمو عن مثل هذه السفاسف الفانية .

وأنا واثق أنه لو كان فقيراً مهتوكاً لصار زنديقاً - والعياذ بالله .
يقول ابن الراوندي ، المترنق المعروف :

كم عالم عالم أعيت مذاهبه
وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذي ترك الأذهان حائرة
وصير العالم النحرير زنديقا

يقول أبو ذر الغفاري : « عجبت لمن لا يجد القوت في بيته
كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه » (١)

لعل أبا ذر يشير بقوله هذا الى مأساة التناقض في نفسية الفقير
بين مصلحته الخاصة وما تفرضه عليه المصلحة العامة . فهو مضطر أن
يأكل ، وهذا الاضطرار قد يدفعه الى الجراءة على الافساد . إنه
لا يبالي بمصلحة الناس ما دامت مصلحته مهددة .

(١) انظر : خالد محمد خالد ، من هنا .. نبدأ ، ص ١٠٠

ويقول أبو ذر أيضاً : « اذا ذهب الفقر الى بلد قال له الكافر :
خذني معك » (١) .

والظاهر أن أبا ذر لا يرى رأي صاحبه الآنف الذكر .
فالمؤمن ، في نظر أبي ذر ، اذا افتقر كفر . أما صاحبه الواعظ
فهو يظن بأن المؤمن اذا افتقر صلى وصام ، ففسى بذلك الآلام ،
ولهج بمدحه الأنام .

الفصل الرابع

مشكلة السلف الصالح

يريد الواعظون أن يرجعوا بنا الى صدر الاسلام . وهم يشيرون دائماً الى المسلمين الأولين قائلين : « انظروا اليهم ... لقد اتبعوا الحق فنجحوا . وليس لنا إلا أن نتبع طريقهم بحذافيره لكي تنال النجاح مثلهم » .

وهذا منطق سخيف طبعاً . فالمسلمون الأولون نجحوا ثم فشلوا . وليس لنا إلا أن ندرس عبرة النجاح والفشل في تاريخهم لكي نتعظ بها .

إن كل حركة اجتماعية لا تسكاد تنجح حتى تفشل . هذه هي سنة الخلق في جميع الأزمان . وقد اشار اليها الرجل الحكيم ، عمر بن الخطاب ، حيث شبه الاسلام بالبعير ، فهو ينمو في أول الأمر ثم يناله الهرم والفند أخيراً .

يقول عمر : « ألا اني قد سننت الاسلام سن البعير ، يبدأ فيكون جذعاً ثم نسيّاً ثم رباعياً ثم سديساً ثم بازلاً . ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ! ألا فان الاسلام قد بزل ... » (١)

وقد يعجب القارىء من هذا الكلام الذي تفوه به عمر بن

(١) انظر : طه حسين ، الفتنة الكبرى ، ج ١ ص ٧٩

الخطاب في إبان انتصار الاسلام وانتشاره في الأرض . فقد كان المتوقع من عمر أن يفرح بانتصار الاسلام ويحتفل .. ولكنه ابتأس ونحوّف . فما هو السبب ؟

إن الواعظين لا يكثرثون لمثل هذا القول الذي صدر من عمر بن الخطاب . وهم يبررون به مر الكرام فهو في نظرهم لا معنى له . والواقع انه رأي يدل على حكمة بالغة ونظر بعيد . ولست أرى قولاً يؤيده علم الاجتماع الحديث مثل هذا القول ^(١) .

وقد يصح أن نقول بأن فشل أي مبدأ من المبادئ الاجتماعية يبدأ بعد نجاحه . فالنجاح هو بمثابة قبر يدفن فيه المبدأ .

ولست اقصد بهذا ذم المسلمين الأولين . فهذا هو شأن جميع الناس في مختلف العصور . والمسلمون الأولون كانوا بشراً كغيرهم من الناس ، إذ تنطبق عليهم النوااميس الاجتماعية وتجرفهم في تيارها ، أرادوا ذلك أم كرهوا .

يقول القرآن : « إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى » . وهذا لعمرى ناموس اجتماعي عام لا يستثنى منه إلا من شذّ وندر . فالمسلمون الأولون كانوا يكافحون الظلم والترف والتعالي في أيام محمد . فلما علوا هم في الأرض وجاءهم المال والترف اصبحوا بحاجة الى من يكافهم .

يقول أبو يوسف : عند ما جاؤا بغنائم فارمى الى عمر كشف

عنها فرأى فيها ما لم تر عيناه مثله من الجواهر واللؤلؤ والذهب والفضة .
فبكى . فقال له عبد الرحمن بن عوف : « هذا من مواقف الشكر ،
فلا يبكيك ؟ » فقال عمر : « أجل ، ولكن الله لم يعط قوماً هذا
إلا ألقى بينهم العداوة والبغضاء ... » ^(١)

رأينا الملوك ، قبل عمر وبعده ، يتنهجون لورود الغنائم الكثيرة
اليهم ويأمرون بضرب الطبول ونفخ الأبواق احتفالاً بذلك .
أما عمر فيبكي ويتألم . وهذه ظاهرة عجيبه . ومن المؤسف أن نرى
المؤرخين لا يلتفتون إليها ولا يأخذونها بعين الاعتبار .

لقد أدرك عمر بثاقب بصره أن الاسلام مقبل على النزول بعد
صعوده ، وأنه سيصبح دولة كسائر الدول ، تجبى لها الأموال
وتتحشد في سبيلها الجنود وتضرب من أجلها السياط على ظهور
المستعبدين من الناس .

يقول علي بن أبي طالب في كلمة مأثورة له : « من ملك
استأثر » . وهذه كلمة أخرى تشير الى ما كان الاسلام مقبلاً عليه
من استئثار وطغيان . فقد نشأت في الاسلام الملكية الكبيرة
وكثر العبيد وظهرت طبقة ثرية تفوق ما كان عليه أغنياء قريش
قبل الاسلام من ثراء وترف ونعيم .

إن الواعظين ينظرون في الأمور بمنظار المنطق القديم — منطق
الثبات والتصنيف الثنائي . فالحسن حسن على الدوام والقيبح يبق

(١) انظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ٥٥ — ٥٦

قييماً الى يوم القيامة . والمنطق الاجتماعي الحديث يستسخر هذا الرأي ويعتبره منطق السلاطين والمعتوهين . فالحسن في نظر المنطق الحديث لا يبقى أحسنًا الى الأبد . إنه في حركة وتغير مستمر . فما كان حسناً بالأمس قد يصبح اليوم قبيحاً .

إن المنطق الحديث يدعى « منطق التناقض » . فكل شيء يحمل نقيضه في صميم تكوينه . وهو لا يكاد ينمو حتى ينمو نقيضه معه ^(١) . وبذا يصير الشر خيراً بمجرد نموه وتحركه .

يريد الواعظون منا أن ندرس منشأ الاسلام ونبارك حركته الأولى باعتبار أنها الحركة الخالدة التي لا تحتاج الى تعديل أو تطوير . وهذا رأي لا يرضاه مؤسس الاسلام نفسه . فمحمد جاء للناس بخطوة اجتماعية كبرى ، وهو يعلم أن التاريخ يسير بخطوات متتابعة . فلا بدّ إذن أن تعقب خطوته خطوات أخرى على توالي الأجيال من غير توقف .

كان النبي يصرّح بأن الاسلام سيرجع غريباً كما بدأ أول مرة . وكان يقول لأصحابه بأنهم سيتبعون سنن من كان قبلهم من الأمم حذو النعل للنعل ، وانهم سينقلبون بعده ^(٢) . وهو كان في اواخر ايامه يتوقع ظهور الفتن كما توقعها من بعده خليفته عمر بن الخطاب .

(١) انظر : Elliott ... , Social Disorganization , p. 6

(٢) انظر : باب الخوض في الجزء الرابع من صحيح البخاري .

يحدثنا أبو مويهبة ، خادم النبي ، ان النبي اشتكى من الأرق ذات ليلة وذلك في بدء مرضه الذي توفي فيه . فخرج الى المقابر خارج المدينة مع خادمه هذا . ولما وقف بين المقابر قال مخاطباً أهلها : « السلام عليكم يا أهل المقابر . لينى لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه . أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها . الآخرة شر من الأولى » (١) .

وعندما اشتد بالنبي المرض خرج الى المسجد معصوب الرأس متوكئاً على عليٍّ والفضل بن العباس فوقف في الناس خطيباً رافعاً صوته حتى سمعه من كان خارج المسجد وقال : « أيها الناس ، سمرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ... » (٢)

إن هذا التشاؤم من النبي في أواخر أيامه يدعو الى الاستغراب . فالنبي كان منتصراً آنذاك حيث أذعنت له الجزيرة العربية كلها ودخل الناس في دين الاسلام أفواجاً أفواجاً . فما الذي دعاه الى هذا التشاؤم المرير وهو قد كان في موقف يدعو الى التفاؤل ؟ إنه سرٌّ مخبئ على أي حال . وأحسب أن النبي كان يدرك بناقب بصره ، كما أدرك عمر من بعده ، طبيعة التطور الاجتماعي . فكل حركة تنمو لابد من انتقاصها عاجلاً أو آجلاً ، وكل صعود لابد له من نزول . وقد صدق الشاعر حين قال :

(١) انظر : محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، ص ٧٠ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ٧٦ .

لكل شيء اذا ما تم نقصان
فلا يُغَرَّ بطيب العيش انسان

لقد حارب محمد أغنياء قريش وحارب معهم الربا والاستغلال والاستبعاد . ونجح في القضاء على ذلك الى حد بعيد . وقد أمر في سنيه الأخيرة أن تصادر جميع الأموال التي استثمرت في الربا حيث لم يُبق في أيدي اصحابها إلا رؤوس أموالهم التي بدأوا بها أعمالهم في اول الأمر .

ولا يخفى أن هذا العمل الذي قام به النبي لم يقض على الملكية الكبيرة نهائياً . إنه كان قضاءً مؤقتاً ، إذ كان اللازم أن تستمر تلك السياسة الحمدية بعد موته وتُتخذ إزاءها الاجراءات الإيجابية التي تقتضيها الظروف المستجدة جيلاً بعد جيل .

قضى محمد على الأغنياء في عهده ، فنشأ بعده اغنياء من طراز جديد . وذلك نتيجة انهيار الغنائم على المسلمين بعد فتح الممالك .

وهؤلاء الأغنياء الجدد لم يتعاطوا الربا على صورته التي حرّمها محمد . إنما ابتكروا لهم طريقة جديدة . فهم لم يُقرضوا أموالهم بالربا كما كان يفعل اغنياء مكة ، بل استثمروا أموالهم على شكل آخر لم يأت فيه تحريم .

وظن المسلمون الأولون أن النبي كان يقصد بتحريم الربا القضاء على الربا بحد ذاته . والواقع أن النبي كان يريد بتحريم الربا القضاء

على الاستغلال وتكديس الثروات في أيدي قليلة . فتحريم الربا كل وسيلة لا غاية . ولكن المسلمين الأولين ، ساءهم الله ، اعتبروه غاية .. كما يفعل اغنياء المسلمين في العصر الحاضر ^(١) .
إن كل تشريع هو عبارة عن وسيلة للوصول الى هدف اجتماعي معين . والمشكلة أن الناس يهتمون بحرفية التشريع ويهملون روحه وهدفه الأساسي .

أخذ المسلمون الأولون يستثمرون اموالهم الفائضة بطرق ثلاث :
الطريقة الأولى : شراء العبيد واستخدامهم في التجارة والهن المختلفة وفرض نوع من الضريبة عليهم يؤدونها لهم كل يوم ^(٢) .
الطريقة الثانية : اعطاء الأموال الى التجار في سبيل استثمارها ثم تقسيم الربح بين المعطي والمعطى اليه بنسبة معينة ^(٣) .

الطريقة الثالثة : البيع المؤجل . حيث يقرض أحدهم بضائع الى الناس بسعر أعلى من سعر السوق . وقد أطلقت السيدة عائشة على هذا البيع المؤجل اسم « الربا العاجل » ، وكأنها اعتبرته تحايلاً على الشرع ^(٤) .

(١) حدثني أحد التجار ان مرابطاً مؤمناً أقرضه مالا بربا فحش ، ولكنه ستر ربه هذا بنوع من الشكليات الدينية فصار في نظره حلالاً طيباً .

(٢) انظر : صالح العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية ... ، ص ٢٤٣

(٣) انظر : المصدر السابق ، ص ١٨٧

(٤) انظر : المصدر السابق ، ص ٢٦٣

وبهذه الوسائل وغيرها استطاع اغنياء المؤمنين أن يجمعوا من الثروات ما لم يكن يحلم بها اغنياء المشركين من قبل .

* * *

بلغت ثروة أحد المؤمنين اربعمائة الف دينار من دنائير ذلك الزمان ، وكان عنده الف فرس والف عبد . وبلغت غلة مؤمن آخر الف دينار في اليوم من قطائعه في العراق وحدها ، وبلغت غلته من ناحية أخرى اكثر من ذلك . وكان لمؤمن آخر مائة فرس والف بعير وعشرة آلاف شاة من الغنم . وترك مؤمن آخر لورثته من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس وذلك عدا ما خلف من الأموال والضياع التي بلغت قيمتها مائة الف دينار (١) .

وكان الصحابة يملكون العبيد بأعداد كبيرة . وقد يندهش القارئ الحديث حين يسمع بهذه الحشود الهائلة من العبيد فيتساءل عما يصنع بهم أسيادهم وهم على هذه الكثرة المزعجة .

إن هؤلاء العبيد قد جاءوا عن طريق الأسر في الحروب ، ومعظمهم اصحاب صنائع وحرف ، أسرهم المجاهدون في سبيل الله من بين أهاليهم أثناء الجهاد وجاؤا بهم الى العاصمة فوزعهم على المؤمنين . وهؤلاء العبيد يتركون أحراراً ليعملوا في صنائعهم في الأسواق ، ثم يأتون آخر النهار ليقدموا الى أسيادهم ضريبة مفروضة

(١) انظر : المسعودي ، مروج الذهب (نقلا عن : صادق عرجون ،

عثمان بن عفان ، ص ٨١ — ٨٢) .

عليهم — هي ضريبة العبودية . فتجد أحدهم يقدم لسيده كل يوم مبلغاً من الدراهم ثم يحتفظ بالباقي له ليعيش به هو وعائلته إن كان له عائلة . وكثيراً ما يفرض السيد على عبيده ضريبة عالية يتضايق منها العبد سيما إذا كان ذا عائلة كبيرة . فمكسبه اليومي يجب أن يدفع منه حصة سيده . ولعل الباقي من مكسبه لا يكفيه فيضج بالشكوى ... فلا يسمع أحد شكواه .

إنه عبد ... حارب الله ورسوله وأسر بأيدي المسلمين أنشأ الجهاد - في سبيل الله - فهو إذن لا يستحق الرحمة .

يكدح هؤلاء العبيد في سبيل أن يضيفوا الى ثروات أسيادهم شيئاً جديداً . فأسيادهم مؤمنون مجاهدون أما هم فلا يستحقون غير اللعنة .

جاء الاسلام لتحرير العبيد أو للرفق بهم . ثم أمسى بعد ذلك سبباً من أسباب تكثيرهم واستغلالهم — والحمد لله .

يروى الطبري : ان عمر بن الخطاب قال في أواخر أيامه : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين » (١) .

والظاهر أن عمر أدرك بعد فوات الأوان مدى الخطر الذي ينبعث من تكديس الثروات في صناديق فئة قليلة .

(١) انظر : صادق عرجون ، المصدر السابق ، ص ٣٩

حاول عمر على أي حال أن يجلس الأغنياء في المدينة فيمنعهم من التجوال في الأمصار . وقد ملّ الأغنياء من عمل عمر هذا فكان عمر يشتد عليهم ويقول عنهم : « انهم يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عبادة » . وكان عمر يعتقد بأنه أراد بجسهم هذا أن يحجزهم عن التفات في النار ^(١) .

يبدو أن عمر كان يحاول أن يؤجل انفجار القبلة . فالقبلة لا بد من أن تنفجر يوماً ما . إن البارود قد أعدّ والفتيلة قد أحضرت . وهي لا تحتاج إلا الى عود صغير من الثقاب .

كان عمر يمنع بكل جهده أن يولع العود على يد أحد من رعاياه . وكان من سوء حظ الخليفة عثمان أن القبلة انفجرت في عهده . يقول المؤرخون عن عثمان انه كان ضعيفاً وقد ساعد بضغنه انفجار القبلة . وهذا ظلم لعثمان ياباه المنطق الاجتماعي .

فلو كان عثمان قوياً كعمر لأخرّ بقوته انفجار القبلة . ولكنه لم يكن قادراً على أي حال أن يزيل خطرهما نهائياً . فهي محتومة الانفجار .. في عهده أو بعد عهده . فلا بد أن يظهر في سلسلة الخلفاء حلقة ضعيفة في يوم من الأيام — وحينذاك ينفجر البركان !

إن وجود الغنى الفاحش بجانب الفقر المدقع في مجتمع واحد يؤدي الى الانفجار عاجلاً أو آجلاً . ومهما طلي هذا التفاوت في الثروة

(١) انظر : طه حسين ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٧٩

بطلاء من الدين أو الخلق أو الشرف فانه مكشوف في أعين الناس
تتقرز منه النفوس .

مردت في صيف ١٩٥٠ بالاسكندرية ، ميناء مصر العظيمة ،
فوجدت فيها من التفاوت الطبقي ما بعث في نفسي التقزز الشديد .
فهنالك على ساحل البحر وجدت الغنى المفرط صارخاً يثير الشهوات
ويحفز على الكفر . وعلى بعد خطوات من ذلك ، في ما يسمونه
بالحي البلدي ، وجدت الفقر في أبشع صوره .

عند ذلك أدركت أن انفجار القنبلة في مصر آتٍ لا ريب فيه...
لقد حدث مثل هذا التفاوت الطبقي في صدر الاسلام . فكان
الأغنياء يكسرون ذهبهم بالفضة في الوقت الذي كان الفقراء
فيه يطبخون الماء ويقترون الحجر .

يقال ان عمر مرّ ذات ليلة باردة من ليالي الشتاء بامرأة وحولها
صبيانها يتصارخون من الجوع . وكانت المرأة قد وضعت ماءً في
قدر واشعلت تحته النار لتوهم أطفالها بأنها تطبخ لهم طعاماً فيسكتون .
فتألم عمر من ذلك ألماً شديداً وذهب الى دار الدقيق فحمل منه شيئاً
وأتى به المرأة ... (١)

إن هذه القصة يأتي بها المؤرخون لكي يذكروا بها فضل عمر
وحنوه على رعيته . والأولى بهم أن يأتوا بها لكي يبينوا ما كان

عليه الفقراء في ذلك العهد من عوز وضيق .
لقد ساعدت الصدفة عمر أن يكتشف أمر هذه المرأة الفقيرة .
والصدفة لا تساعد الانسان في كل حين .
إنه كان وضعاً اجتماعياً عاماً يشمل كثيراً من البوادي
والأمصار ، وعمر بن الخطاب لم يستطع طبعاً أن يعلم الغيب فيكتشف
أحوال الفقراء جميعاً .

يروى أبو يوسف : ان عمر بن الخطاب مر وهو راجع في
مسيرة من الشام على قوم أقيموا في الشمس يُصبّ على رؤوسهم
الزيت . فسأل عنهم فقيل له : « عليهم الجزية لم يؤدّوها ، فهم
يعذّبون حتى يؤدّوها » . فسأل عمر : « فما يقولون هم وما يعتذرون
به ؟ » . قيل له : « يقولون لا نجد » . عند ذلك صرخ عمر صرخة
من صرخاته المدوية : « ... دعوهم ، لا تكلفوهم ما لا يطيقون ،
فاني سمعت رسول الله يقول : لا تعذّبوا الناس فان الذين يعذّبون
الناس في الدنيا يعذبهم الله في الآخرة » (١) .

ساعدت الصدفة عمر في هذا ايضاً ، فرأى أناساً يعذّبون في
جباية الجزية المفروضة عليهم .

وليس باستطاعة فرد واحد أن يعدّل وضعاً اجتماعياً يشمل
الآفاق . فهو إن استطاع أن يعدّل جانباً عجيز عن تعديل الجوانب
الأخرى . إنها مرحلة محتومة من مراحل التطور الاجتماعي الجارف .

(١) انظر : أبو يوسف ، المصدر السابق ، ص ١٥٠

وليس في مقدور فرد واحد أن يقف في طريق هذا التطور إلا ضمن حدود معينة .

لقد أصبح الاسلام دولة فاتحة فيها الحياة والجلالوزة والموظفون والولاة والأمرء . ومن طبيعة الجاني أو الجلاوز أو الوالي أن يقسو على من تحت يده . هذا هو شأن الدولة في جميع الأزمنة القديمة . وإن وجدت فرقا بين دولة وأخرى فهو فرق بالدرجة لا بالنوع . فما دامت هناك ضرائب مفروضة على الناس ، فان الناس يتهربون منها بكل وسيلة ممكنة . والوالي مضطر أن يقسو وأن يعذب ، وأن يقرع بالسوط أو يضرب بالسيف ، لكي ينال بغيته .

* * *

يروى أبو يوسف في رواية أخرى : ان أحد الصحابة مرّ على قوم يعذبون في أداء الجزية ، فكره ذلك ودخل الى الأمير ينهائهم . وروى ايضا : ان صحابياً آخر رأى مثل ما رأى الأول فاعترض على ذلك ... (١)

والواقع ان عمر كان يوصي ولاته دائماً بأن لا يعذبوا أحداً في الجزية . هذا ولكن الداء كان أعظم مما يعالج بالتوصية أو بكتابة الرسائل أو بالنصيحة . إنه طبيعة اجتماعية لا مفر منها . فان أفادت النصيحة حيناً عجزت أحياناً ، وإن استطاع فرد أن يردع ولاته في حياته رجع الولاة الى دأبهم الأول بعد موته .

ولا يخفى أن الضرائب التي كانت تجمع على هذه الصورة البشعة كانت تذهب أخيراً إلى جيوب الأغنياء لتزيد من ثرواتهم . فلم يكن في ذلك العهد مؤسسات اجتماعية عامة كالمستشفيات أو المدارس أو الملاجئ ، أو ما أشبه لكي تتفق فيها واردات الضريبة .

* * *

سنّ عمر في أمر توزيع المال سنة جديدة تختلف عن سنة أبي بكر . فقد كان أبو بكر يقسم المال على الناس بالسوية . فاشتكى الصحابة من ذلك ، وقالوا : إن الناس يختلفون في مقدار جهادهم السابق وإيمانهم ، ولا تجوز القسمة بينهم على مقياس واحد . فرد عليهم أبو بكر قائلاً : « أما ما ذكرت من السوابق والقدم والفضل فما أعرفني بذلك . وإنما ذلك شيء ثوابه على الله جل ثناؤه ، وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة » (١) .

أما عمر فقد سار في قسمة المال على طريقة مخالفة لطريقة أبي بكر . وكان شعاره في ذلك قوله : « لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه » . وبذا نراه قد صنّف الناس على درجات وأعطى كلًّا على نسبة قدمه في الاسلام وجهاده السابق (٢) . إن طريقة عمر هذه سليمة من حيث المبدأ . فالصحابه كانوا على نوعين — كما ذكرنا في الفصل الأول . فمنهم من أودى مع النبي في بدء الدعوة وقاتل معه وضحي وجاهد . وهؤلاء لا شك

(١) انظر : المصدر السابق ، ص ٥٠ وما بعدها .

مخلصون في اسلامهم ، إذ لا يتحمل العذاب في سبيل مبدأ من المبادئ إلا من كان مخلصاً . والاضطهاد الديني ، كما قلنا ، هو بمثابة الغربال لا يجتازه إلا من كان مؤمناً مخلصاً في إيمانه .

وهناك من الصحابة من أسلم بعد أن انتصر الاسلام وانهاالت عليه الغنائم . فاسلام هؤلاء كل مصطنعاً ظاهرياً في الغالب (١) . وقد اراد عمر أن يميز بين هؤلاء واولئك فقسم المال بحيث تذهب الحصة الكبرى منه في جيوب المؤمنين المخلصين .

نسى عمر أن المؤمن المخلص لا يزال الغنى حتى يضعف إيمانه واخلاصه . وتلك طبيعة غالبة لا ينجو منها إلا القليل ممن رحم الله . والظاهر أن عمر أدرك نتيجة عمله ذلك فقال في أواخر أيامه كما ذكرنا : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول اموال الأغنياء فتسمتها على فقراء المهاجرين » . ولعل عمر كان يفعل ذلك لو لم تعاجله سكينه الخيث أبي لؤلؤة .

* * *

جاء عثمان فسار على طريقة عمر في قسمة المال . ولكنه قام بأشياء لم يقم بها عمر :

أولها : أنه اطلق الأغنياء بعدما حجزهم عمر في المدينة ، وسمح لهم بالسفر كما يشاؤون .

ثانياً : إنه اضاف الى قائمة الأغنياء أسماء جديدة ، هي أسماء

(١) انظر : أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ٧٢ .

وأولئك الصحابة الذين أسلموا بعد الفتح وكان عطاؤهم في أيام عمر قليلاً . فقد أعطاهم عثمان قسماً من المال أكثر مما أعطى المهاجرين والأنصار . ولعله أراد بذلك تعويضهم عما فات ...

ثالثها : انه ترك الأغنياء يؤدون الزكاة الى الفقراء بأنفسهم . فبعد ما كان الأغنياء يأتهم الجباة ليحصوا أموالهم ويأخذوا منها زكاتها ، أصبحوا في أيام عثمان يدفعون الزكاة بأنفسهم إن شاؤوا . وقد فعل عثمان ذلك إذ خاف المشقة والخرج في تفتيش الأموال من قبل سعاة السوء ^(١) . ولعل هذا العمل أدى الى أن يهمل كثير من الأغنياء أداء زكاتهم ...

عند ذلك نشأت طبقة قوية من اصحاب الغنى الفاحش يسبحون في الأرض ويدأبون في البيع والشراء من غير قيد ولا شرط .

وهنا ظهر أبوذر — ذلك الواعظ الثائر الذي أعلن الحرب على الأغنياء بشدة متصلة لا تعرف الهوادة .

كان أبوذر يجوب الشوارع صائحاً بالأغنياء أن يوزعوا أموالهم كلها على الفقراء . وكان يردد من القرآن آية خاصة : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب آليم .. »

فنهأ عثمان عن ذلك فقال أبو ذر : « أينأني عثمان عن قراءة كتاب الله ... » ^(١)

كان أبو ذر ، كما قال الدكتور طه حسين : « يكره أن يعطي الامام مال المسلمين للأغنياء بغير حقه ، فيزيدهم غنى ويزيد الفقراء فقراً ، ويؤثر بالمال قوماً لا حاجة بهم إليه ، ويصرف هذا المال عن المصالح العامة » ^(٢).

جاء أبو ذر بمبدأ جديد في الاسلام . ولعله لا يزال جديداً . وأظن أن لو قال به الآن أحد المسلمين لأفتى الواعظون بزندقته . فأبو ذر يعتقد بأن الزكاة وحدها غير كافية . فالزكاة في رأيه نسبة صغيرة لا تنفع الفقراء شيئاً . يجب على الأغنياء ، في نظره ، أن يعطوا الفقراء جميع الأموال التي يكتزونها بحيث لا يبقى منها إلا ما يكفيهم معاشهم ومعاش ذويهم . أما عثمان فكان يرى بأن أداء فريضة الزكاة كافية فإن أداها الأغنياء كان لهم الحق في أن يحتفظوا بأموالهم الباقية كلها يتصرفون بها كما يشاؤون ^(٣).

والظاهر أن أبا ذر كان ينطح رأسه في جدار . إن ما كان يطلبه أمرٌ عسير المنال . وكيف يرضى الأغنياء ، وهم كانوا اصحاب الحل والعقد في الدولة ، أن يتنازلوا عن أموالهم بهذه السهولة . فدون ذلك خرط القتاد .

(١) انظر : طه حسين ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٦٣

(٢) انظر : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٦٥

٣ انظر : عبد الحميد السحار ، أبو ذر الغفاري ، ص ١٥٨ — ١٦٠

ظل أبو ذر ينادي بمبدئه هذا ، لا يهدأ ولا يقر . وقد نفي
من أجل ذلك مرتين : مرة الى الشام ومرة أخرى الى الربرة حيث
مات فيها .

* * *

إن وعاظ السلاطين لم ترق في أعينهم طريقة أبي ذر هذه . فهو
في نظرهم مغفل أو مهرج أو خارج على جماعة المسلمين .
اجتمعت لجنة الفتاوى بالجامع الأزهر ، في عهد الملك فاروق ،
فقررت الطعن في أبي ذر واتهمته بالهوس والخروج على إجماع
المسلمين (١) .

وقال الشيخ موسى جار الله في أبي ذر ما يشبه هذا القول .
فأبو ذر ، في نظر الشيخ موسى ، مغفل . وهو يقول عنه : أنه
كان يذكي نيران هذه الفتنة بنظره القاصر . وهو وإن اشتهر بالزهد
والورع والتقوى فقد أثرت فيه دعوة أهل المكر فافتتن بها
فكان آلة عمياء . ولم يكن يعلم أن عثمان أعلم منه وأورع وأزهد
وأبقى وأنصح للدين والأمة (٢) .

* * *

ويأتي الأستاذ محب الدين الخطيب ، رئيس تحرير مجلة الأزهر

(١) انظر : جريدة الشعب البغدادية ، بعددها الصادر في يوم ١٣ كانون

الثاني عام ١٩٥٤

(٢) انظر : موسى جار الله ، الوشعة ... ، ص ب س

الغراء ، فيحاول شجب أبي ذر وتفنيد رأيه ، ويعتبر طريقته منافية لمصلحة المسلمين . إنه يدافع عن الولاة الذين اضطهدوا أبا ذر ويعنبرهم ويقول انهم لم يستطيعوا ان يفعلوا في سبيل الاسلام اكثر مما فعلوه (١) .

إن الأستاذ الخطيب يريد أن تبقى الثروات الكبيرة كلها في ايدي اصحابها ، فذلك في نظره انفع للمسلمين . ولعله يعتقد بأن الموعظة الدينية وحدها كفيلة بتوجيه هذه الأموال نحو الوجهة التي تزيد في قوة المسلمين وفي عزهم ويسرهم وسعادتهم .

وهو يعتقد أن رأي عثمان في أمر الزكاة أصح من رأي أبي ذر . فهو يقول : « ... وبعد اداء زكاته يكون صاحب المال في امتحان من الله كيف يحسن التصرف فيه بما يرضي الله ويزيد المسلمين قوة وسعادة وعزاً . فان كان تاجراً فمن طريق التجارة ، أو مزارعاً فمن طريق الزراعة ، أو صاحب مصنع فمن طريق الصناعة . والاسلام في دور قيامه قد استفاد من ثروة اغنياء الصحابة عوناً ويسراً وقوة . وتجارة التاجر المسلم اذا اغنت المسلمين عن متاجر اعدائهم تعتبر قوة لهم بقدر ما يصدق صاحبها في هذه النية ، وكذلك مصنع الصانع المسلم ، وزراعة الزارع المسلم . والنية في هذه الأمور أمرها عظيم ،

(١) انظر : التعاليقات والحواشي التي كتبها الأستاذ عبد الدين الخطيب على هامش كتاب « العواصم من القواصم » لمؤلفه القاضي ابن العربي ،

وميزانها العمل عند ما تمس الحاجة اليه . وبالجمله فان للمسلم ان يكون غنياً بلا تحديد ، بشرط ان يكون ذلك من حله ، وان يكتفى منه ما يكفيه بالمعروف ، محاولاً دائماً ان يحرر نفسه من العبودية والانقياد للكماليات فضلاً عن توافه الحضارة وسفاسفها . وبعد ان يؤدي زكاة ما يملك يعتبر ما زاد عن حاجته كالامانة لله تحت يده ، فيتصرف فيه بما يزيد المسلمين ثروة وقوة ويسراً وعزاً وسعادة . اما طريقة أبي ذر في أن لا يبيت المسلم وعنده مال فليست الآن من مصلحة المسلمين . وطريقة اغنياء المسلمين الآن — في ان يعيشوا لأنفسهم ومتعمهم غير مبالين بعزة الاسلام وقوة دولته وحاجة اهله — فليست من الاسلام ، والاسلام لا يعرف الذين لا يعرفونه « (١) » .

إن الأستاذ الخطيب لا يختلف في قوله هذا عن أي واعظ آخر من وعاظ السلاطين . فهو يسمح للاغنياء ان يجمعوا الثروات الطائلة ثم يأتي اليهم بعد ذلك يعظهم ويخوفهم من عقاب الله . ولو كان الوعظ ينفع احداً لنفع اولئك الطغاة الذين كانوا يعبدون الله وينهبون عباد الله في آن واحد .

إن من يعظ الأغنياء في أن يستثمروا اموالهم في سبيل المصلحة العامة كمن يعظ المجنون في أن يكون عاقلاً . فالمجننون مهما فعل من تهوّر أو اعتداء يعتقد بأنه في فعله هذا سيد العقلاء ، وهو يضع اللوم على غيره من الناس باعتبارهم مجانين .

(١) انظر : ابن العربي ، المصدر السابق ، ص ٧٥ (حاشية) .

لقد جهل الوعاظ طبيعة العقل البشري ، ونسوا أن الانسان
يندفع بما تمليه عليه ظروفه النفسية والاجتماعية ثم يطلي اندفاعه هذا
بطلاء من الدين أو الفضيلة .

إن وضع الثروات الطائلة في يد الانسان كوضع مسدس محشو
بالرصاصة في يد طفل أرعن . فأنت مهما وعظته ونصحتة في أن
لا يؤذي الناس بمسدسه فانه سوف ينتهز أول فرصة تسنح له فيرمي
الناس بالرصاص .

إن الصغيان حليف الغنى — كما اشار القرآن اليه . وفي هذا
سر لا يفهمه اصحاب المنطق القديم . فهم يصنّفون الناس الى اخيار
واشرار . ومن كان من الناس خيراً بقي خيراً في نظرهم حتى يموت .
إنهم يتصورون الطبيعة البشرية كالمعدن الثابت الذي يحتفظ بمزايده
الى النهاية . وهذا رأي لا يستسيغه المنطق الحديث .

إن كل انسان خير وشرير في آن واحد . فتكوين الشخصية
البشرية قائم على اساس التفاعل بين نزعة الخير ونزعة الشرفية (١) .
واختلاف الناس في هذا هو اختلاف نسبي ، حيث تشتد نزعة الخير
في بعضهم وتضعف في البعض الآخر بناء على ما تمليه عليهم ظروفهم
النفسية والاجتماعية . والارادة هنا لا تعمل إلا ضمن حدود ضيقة .
واكثر الناس يندفعون بما تملي عليهم الظروف ثم يطلون اندفاعهم
هذا بطلاء من التعقل أو التدين أو ما اشبه .

١٠ سبّحت هذا الموضوع بأسهاب في كتابنا القادم « هاييل وقبيل » .

كان القدماء يعتقدون بأن الانسان يفكر أولاً ثم يندفع في عمل من الأعمال . والواقع انه يندفع أولاً ثم يفكر . فمثله في ذلك كمثل ذلك الأعشى الذي داس على كلب دون أن يراه . فلما تعجب الناس من عمله هذا وتساءلوا ، قال لهم : إنه كان متمعداً في ذلك ، وانه كان يريد ان يقتل الكلب !

فالانسان يندفع في كثير من اعماله المتنوعة بدافع لاشعوري من ظروفه النفسية والاجتماعية ثم يبرر عمله بعد ذلك .. إذ يصطنع له سبباً معقولاً يدافع به عن نفسه .

إن الغنى يبطر الانسان في الغالب . فهو يسمح له بأن يعمل اعمالاً لم يكن قادراً عليها قبل أن يستغني . .

إن نزعة الشر ، كما قلنا ، كامنة في كل انسان . وهي قد لا تجد لها منفساً أو مجالاً تظهر نفسها فيه . فاذا وجدت ذلك المجال اقتنصته واندفعت فيه ، لا يردعها في ذلك رادع من دين أو ضمير .

إن الدين لا يردع الانسان عن عمل يشتهي ان يقوم به ، إلا بمقدار ضئيل . فتعاليم الدين يفسرها الانسان ويتأولها حسب ما تشتهي نفسه . وقد رأينا القرآن أو الحديث مرجعاً لكثير من الأعمال المتناقضة التي قام بها المتنازعون في صدر الاسلام . فلقد وجدناهم يقتل بعضهم بعضاً ، ويكفر بعضهم بعضاً ، ثم يستندون في ذلك على آية من القرآن أو حديث من النبي . وكان كل حزب من الأحزاب المتطاحنة يملك سلاحاً قوياً ضد خصومه من الآيات

والأحاديث . ولا تزال الفرق الاسلامية تتحارب بالآيات والأحاديث . كل فرقة تملك في جعبتها اسلحة شتى مما قال الله . أو قال رسوله الكريم .

يقول علي بن أبي طالب : « القرآن حمال اوجه » (١) وهو يعني بذلك أن القرآن يحمل تفاسير متنوعة . وكل حزب يستطيع أن يجد له في القرآن ما يريد من دليل يسنده في عمله .

أما الضمير فهو كذلك عاجز عن ردع الانسان عن عمل يهوى القيام به . إن الضمير أمر نسبي كما ثبت في علم الاجتماع الحديث (٢) . فضمير الانسان لا يخرجه اذا اعتدى على فرد يخالفه في الرأي أو ينتمي الى حزب اعدائه . فالانسان يعتدي على عدوه ويسفك دمه وينتهك حرمة وينهب امواله وهو مرتاح الضمير كأنه لم يفعل شيئاً منكراً . وقد رأينا المسلمين في صدر الاسلام يقتلون من يخالفهم في الرأي ويسبون نساءه ثم يأتون بالآيات والأحاديث للبرهنة على أنهم كانوا فيما فعلوا مجاهدين في سبيل الله .

يحكى أن نساء الحسين وبناته سبين بعد مقتله وجيء بهن الى الشام سافرات ، باعتبار انهن من سبايا امير المؤمنين يزيد بن معاوية . فراحن على تلك الحالة شيخ متدين من اهل الشام فدنى منهن يتوكأ على عصاه وهو فرح بالنصر الذي تم على يد المسلمين . وعند ما قرب

(١) انظر : خالد محمد خالد ، من هنا .. تبدأ ، ص ١٧٤

(٢) انظر : Landis , Social Control . p. 56 — 57

من السبايا صاح هاتفاً : « الحمد لله الذي اهلككم وأمكن امير المؤمنين منكم » (١) .

إن ضمير هذا الشيخ المتدين كان مرتاحاً لرؤية نساء مسبيات جئى بهن على ظهور الابل من بلد بعيد ، واعتبر ذلك نصراً من الله للمسلمين .

يقال ان الشيخ علم أخيراً بأن السبايا هن من بنات رسول الله فبكى وتألّم ... (٢) وهذا موضع العجب . فهو بكى عندما علم بأن السبايا من بنات الرسول . ومعنى ذلك أن السبايا لو كنّ من بنات غير الرسول لما بكى . فأهل بيت الرسول اصبحوا وحدهم في نظر هذا الشيخ يستحقون الرحمة . أما غيرهم فلا بأس أن يُسيوا وأن يُعذّبوا وأن تنتهك حرمتهم .

إن هذا هو منطق الضمير البشري - إذ هو لا يتألّم إلا من اجل من يحبهم أو يقدّسهم . أما سائر الناس فعليهم العزاء . إن مجدداً جاء رحمة للبشر ، فصار اتباعه يعتبرونه رحمة لجماعة معينة من الناس .

يتضح من هذا أن الدين والضمير لا يردعان الانسان عن عمل يريد القيام به . فالانسان مسير ومدفوع بظروفه في معظم الأحيان .

(١) انظر : سيد الأهل ، زينب ، ص ٨٥ — ٨٦

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ٨٦

فتقوم اخلاق الناس إذن لا يتم بمجرد التخويف والترهيب من عذاب الله أو بمجرد الانذار بالويل والثبور — « غير ظروف الناس ، تغيير بذلك اخلاقهم » .

والظاهر ان أبا ذر كان يرمي الى هذا الهدف من حيث يدري أو لا يدري . فهو كان يريد أن يأخذ فضول اموال الأغنياء فيقسمها على الفقراء . ولعله كان يرى بأن الذين يكتزون الذهب والفضة سيندفعون بتأثير كنزهم هذا نحو الشر ، أرادوا ذلك أم لم يريدوه . إن الترف الذي يأتي به الذهب والفضة يخلب الأبصار فيمنعها عن تفهم الأمور تفهماً معتدلاً .

ومما تجدر الاشارة اليه أن المترفين كانوا في مختلف العصور دعاة الظلم والرجعية . يقول القرآن : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قل أولو جئكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا : إنا بما أرسلتم به كفرون » .

فالقرآن يصف المترفين هنا بأنهم يكذبون الأنبياء دائماً . ومعنى ذلك انهم يقاومون كل تجديد أو تقدم اجتماعي . وهذه طبيعة الغنى والترف . فالغني المترف لا يحب التجديد . إنه سعيد ، ينال بغناه ما يشتهي ، والناس حوله يحترمونه . فلا داعي لديه الى تغيير قد يذهب بسعادته ومنزلته الاجتماعية .

يبدو ان الأغنياء في أيام عثمان قاوموا أباً ذر كما قاوموا محمداً من قبل . وأحسب أن النبي كان يدرك بثاقب بصره ما سوف يحدث بعده . يروي البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي قال : « يرد عليّ يوم القيامة رهط من اصحابي فيحلبّون عن الحوض ، فأقول : يا رب اصحابي . فيقول : إنك لا علم لك بما احدثوا بعدك .. انهم ارتدوا على اعقابهم القهقري » (١) .

يحاول بعض المستشرقين ذم الاسلام من طريق غير مباشر . فهم يشيرون دائماً الى التفسخ الذي حدث في المجتمع الاسلامي بعد موت نبيه بمدة قصيرة . كأنهم يقارنون ذلك بما كان عليه المسيحيون من تعفف بعد المسيح . فهم يأتون على سبيل المثال بأصحاب النبي محمد قائلين عنهم : انهم تنازعوا وتلاعنوا وتقاتلوا وكفّر بعضهم بعضاً ، بينما لم يفعل مثل ذلك اصحاب المسيح .

وهؤلاء المستشرقون لا يختلفون عن وعاظنا في هذا كثيراً . إنهم جيلوا أن اصحاب المسيح لو كانوا قد انتصروا كما انتصر اصحاب محمد ، وفتحوا الممالك بتلك السرعة الهائلة ، لتنازعوا وتنافسوا وتلاعنوا كما فعل اولئك تماماً .

إنها طبيعة الانسان — في كل زمان ومكان .

يقول الأستاذ محب الدين الخطيب : « ومن أخطأ كاذب التاريخ زعم الزاعمين ان اصحاب رسول الله ﷺ كان يضمروا

(١) انظر : باب الحوض من الجزء الرابع من صحيح البخاري .

العداوة بعضهم لبعض ...» (١) وقال أيضاً: «ومن غرابة الاسلام بعد البطون الثلاثة الأولى ظهور مؤلفين شوها التاريخ تقريباً للشيطان أو الحكماء؛ فزعموا: ان اصحاب رسول الله ﷺ لم يكونوا اخواناً في الله، ولم يكونوا رحماً بينهم، وإنما كانوا أعداء يلعن بعضهم بعضاً، ويمكر بعضهم على بعض، بغياً وعدواناً» (٢).

لعل الأستاذ الخطيب يحسب الصحابة من نوع غير نوع البشر الذي نعرفه ونعيش بينه. ولو درسنا رجال التاريخ بموجب هذا المنطق لضاعت العبرة التي نستفيد منها.

إن التاريخ ندرسه لكي ننتفع بما فيه من عبر تنير لنا السبيل في زماننا الحاضر. فما دمنا نرى الصحابة لا تجري عليهم نوااميس المجتمع البشري، كما تجري على غيرهم من الناس، أصبح تاريخهم في نظرنا هالة من النور تخلب الأنصار. وإذا جعلناهم قدوة لنا في زماننا هذا صرنا نسعى وراء هدف لا يمكن إدراكه، وأمسينا بذلك نركض وراء السراب.

يروى البخاري في صحيحه أن الصحابة تشاتموا مرة أمام النبي وتضاربوا بالتمال (٣). ويروي أيضاً: ان النبي أمر اثناء مرضه الذي توفي فيه أن يؤتى له بدواة وقرطاس لكي يكتب للناس كتاباً

(١) انظر: حب الدين الخطيب، حلة رسالة الاسلام الأولون، ص ٤

(٢) انظر: المصدر السابق، ص ٨

(٣) انظر: شرف الدين، الفصول المهمة، ص ١٤٦

لن يصلوا بعده . فرفض بعض الحاضرين أن يطيعوا أمر النبي وقالوا عنه انه « يهجر » أي يهذي . وتنازعوا فيما بينهم . فأمرهم النبي بالخروج ولم يكتب لهم ما كان يريد أن يكتبه — مع الأسف (١) . إن هذا الخبر قد يعجب منه المتزمتون وقد لا يصدقوه . ونحن اليوم لا نعلم مبلغ صحته على وجه الدقة ، وربما كان الخبر مكذوباً من أساسه . ولكننا مع ذلك لا نستبعد حدوثه من الصحابة . فهم كانوا ، كما قلنا ، بشراً كغيرهم من الناس ، يتنازعون ويتنافسون ويتحاسدون وتبدو منهم بوادر الغضب والحقد والأثرة . لا يختلفون في هذا عن أي انسان آخر .

* * *

يقول الأستاذ الخطيب : « فأمّة محمد الى خير في كل زمان ومكان ، ما تحوّت الطريق الذي مشى فيه هداة القرون الثلاثة الأولى وتابعوم فيه . بل يرجى لمن يقيم الحق في أزماننا كما أقامه الصحابة والتابعون في أزمنتهم أن يبلغوا منزلتهم عند الله ويعدّوا في طبقتهم » (٢) . ورأي الأستاذ الخطيب هذا محير . فهو يريد منا أن تتبع طريق الصحابة لكي ننجح . ونسى أن الصحابة كانوا في أيام عثمان يتبعون طريقين متعاكسين : طريق عثمان وطريق أبي ذر . هذا أراد أن يصادر اموال الأغنياء ، وذلك أراد أن يبقى عليها وينميها . وهما طريقان متناقضان لا يمكن التوفيق بينهما .

١١ انظر : صحيح البخاري ، ج ٢ ص ١٧٨

(٢) انظر : محب الدين الخطيب ، المصدر السابق ، ص ٧

ويجدر أن لا ننسى أننا نعيش في زمن اهتم الناس فيه بهذه المشكلة واخذوا يعيرونها عناية كبرى .

لقد اتفق المفكرون في هذا العصر على أن الغنى الفاحش والفقر المدقع رذيلتان اجتماعيتان ، ولا تنهض أمة حديثة وفيها هاتان العورتان .

إن رأي الأستاذ الخطيب قد يصلح لعصر كمصر الرشيد مثلاً ، إذ كان الناس يؤمنون بأن المال بيد الله يعطيه من يشاء ويمنعه عن من يشاء . أما اليوم فقد أصبحنا بحمد الله ندرك بأن المال ثروة اجتماعية تنمو بالمجتمع وترعرع تحت حمايته ورعايته .

— إن الغنى والترف والطغيان أمور مترادفة . لا يظهر أحدها في مجتمع حتى يظهر الآخران معه . والغنى المترف كالحاكم المستبد يشتهي ... ثم يجذ في من حوله من يؤيده في شهوته تلك ويدعها بالبراهين العقلية والنقلية .

من الأحاديث المأثورة عن محمد أنه قال : « ما ازداد رجل من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بعداً ، ولا كثرت اتباعه إلا كثرت شياطينه ، ولا كثر ماله إلا اشتد حسابه » (١) . وهذه حكمة فيها من الحق قسط لا يستهان به .

إن الانسان لا يردعه عن الظلم أو الفسق دين أو ضمير — كما

(١) انظر : أحمد الهاشمي ، مختار الأحاديث النبوية ، ص ١٤٨

قلنا . فهو يشتهي ويتلذذ ، ويطمع ويحب . وهو يتحدى في ذلك أي دين أو ضمير .

يقول ويلز ، المؤرخ العالمي المعروف ، عن الطاغية نيرون :
انه لم يكن يختلف في طبيعته عن من سواه من البشر . يقول ويلز :
« إن الذين يحكمون على نيرون بأنه كان من طبيعة غير طبيعتهم ،
يجب عليهم أن يدرسوا نفسيتهم أولاً وما يساورها من أفكار
خبيثة ... » (١)

يرى ويلز : أن الأفكار الخفية التي تساور نفوسنا لا يعرف
الناس عنها شيئاً إذ أننا لا نملك المقدرة على تحقيقها وبذا يعتبروننا من
الصلحاء الأتقياء . ولو كنا محاطين بظروف كظروف نيرون لكنا
مثله طغاة أدنياء . إن نيرون كان محاطاً بزمرة من الجلاوزة
والجلادين يأترون بأمره ويسوِّغون له ما يفعل . فكل فكرة
سوداء تقرأ على ذهنه يجد حوله من ينفذها ويؤيدها . إن نيرون
يختلف عنا بكونه يشتهي فيحقق شهوته . أما نحن فنشتهي من غير
أن نقدر على تحقيق تلك الشهوة (٢) .

إن كل أحد منا هو نيرون على وجه من الوجوه . وكل إنسان
يطغى أن رآه استغنى .

إن السلطة المطلقة والغنى الوفور يفتحان للإنسان ابواباً من

(١) انظر : H. G. Wells , Outline of History , p. 482

(٢) انظر : نفس المصدر .

الرجبات والملاذات لا تفتح بغيرها . ولا تقع مسؤولية الظلم على عاتق
الظالم وحده . إنما تقع أيضاً على عاتق الذين اعطوه المفتاح وسهّلوا
له فتح الأبواب .

يقول القرآن : « إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا
فيها فحرق عليها القول فدمرناها تدميراً » . وقد يعجب القارىء من
هذا المنطق الذي جاء به القرآن . فإذا فسق المترفون في قرية استحق
اهل القرية العقوبة كلهم . وهذا أمر عجيب .

قد يزول عجبنا اذا علمنا أن الظالم لا يستطيع أن يظلم أو يظلم
بمجرد رغبة تبدو منه . إنه يظلم حين لا يرى مانعاً فعلياً يمنعه من
الظلم . فيرون صار نبروناً لأن جلاوزته وجلاديه سوّوا له سوء
عمله وحققوا له ما يشتهي . ولو كنت مكانه لصرت نبروناً .

كان أبو ذر ينهى عن « الكنز » . ومعنى الكنز في اللغة
هو المال الذي يفضل عن حاجة الفرد . فكان أبو ذر يرى بأن
الفرد المسلم لا يحق له أن يُبقي في حوزته مالاً يزيد عن حاجته . وكان
يريد من عثمان أن يتدخل في الأمر جدياً فيأخذ فضول اموال الأغنياء
ويقسمها على الفقراء كما كان عمر يريد أن يفعل قبيل مقتله .
وقد أبى عثمان أن يأخذ برأي أبي ذر . إذ كان يعتقد بأن
المسلم حر يتصرف بأمواله كما يشاء مادام قد أدى زكاته المفروضة
عليه . وقد أصر كل فريق على رأيه ... حتى وقعت الواقعة .

لا ريب ان بعض الصحابة كانوا يؤيدون أبا ذر في رأيه هذا ويستندون فيه على سنة النبي . فقد روي عن النبي انه نهى عن الكنز^(١) ، اتباعاً لأمر القرآن حيث يقول : « والذين يكنزون الذهب والفضة فبشرهم بعذاب أليم ... »

وقد جاء بلال الى النبي ذات يوم ، وكان خازناً له ، فقال له : قد قضيتُ جميع ديونك يا رسول الله ، ولم يبق عندي سوى اوقيتين من الذهب . فقال له النبي : « انظر ان تريحني منها فلست بداخل على أحد من أهلي حتى تريحني منهما » .

وقد بقي النبي في المسجد لا يبرحه حتى يريحه بلال من هذا المال الذي فضل لديه . وشامت الصدقة أن لا يأتي في ذلك اليوم محتاج يطلب كسوة أو طعاماً . فبات النبي في المسجد ليلته تلك حتى أصبح الصباح .. وعند ذاك شاء الله أن يريح نبيه فبعث اليه فقيرين ... فاعطاهما بلال الذهب وقال للنبي : « قد أراحك الله منه » فقال النبي : « الحمد لله ! »^(٢) .

وتروى مثل هذه الرواية عن علي بن أبي طالب فقد كان هذا الرجل لا يطمئن اذا جاءه مال إلا بعد أن يوزعه على المحتاجين فوراً .. وكان يخشى أن يبطئ في ذلك فيتأخر العون على من هو في حاجة اليه . فكان لا ينام الليل وعنده مال زائد عن حاجته ،

(١) انظر : خالد محمد خالد ، المصدر السابق ، ص ٦٢

(٢) انظر : عبد الحميد السحار ، بلال مؤذن الرسول ، ص ٦٩ — ٧٠

إذ ربما كان هناك من الفقراء من بات من غير عشاء .

ويروى مثل هذا عن أبي ذر الغفاري فقد كان يوزع معظم عطائه على المحتاجين . وكان عمر قد عين لأبي ذر عطاءً سنوياً ضخماً باعتباره من السابقين الأولين في الإسلام . ولو شاء أبو ذر لو فر من عطائه هذا ثروة لا بأس بها . ولكنه آثر أن ينفق جميع ماله حتى كان لا يملك ساعة موته كفتناً^(١) .

وحاول معاوية أن يخادعه أو يرشيه ذات مرة فأرسل إليه صرة فيها ألف دينار من الذهب الوهاج . وأسرع أبو ذر الى توزيعها حالاً على الفقراء . ولما طالبه معاوية بالمال في اليوم التالي اجاب أبو ذر : « والله ما اصبح عندنا من دنائرك دينار واحد . ولكن أخرنا ثلاثة ايام حتى نجمعها »^(٢) .

ويروى مثل هذا عن سلمان الفارسي ايضاً . فقد كان يتصدق بعطائه على الفقراء حالما يخرج اليه من بيت المال ، ويأكل من عمل يده^(٣) . ويحكى عنه انه كان يخزن في بيته قوت عامه فلما سئل في ذلك قال : افعل ذلك لكي استطيع ان أصلي الى ربي مطمئناً . ويبدو أن سلمان كان يعتبر « السكّنز » ما يزيد من مال المسلم على قوت أهله لمدة سنة . ولعله كان يعتبر الفقر المدقع كالغنى الفاحش

(١) انظر : عبد الحميد السحار ، أبو ذر الغفاري ، ص ١٦٨

(٢) انظر : عباس العقاد ، عبقرية الامام ، ص ٥٢

(٣) انظر : عبد الله السبيعي ، سلمان الفارسي ، ص ٦٤

يؤدي الى ضعف الايمان . فهو يدخر قوت سنة لكي يكون مطمئناً في ايمانه فلا تدفعه الحاجة نحو الكفر . انه بهذا يريد التوسط بين الفقر والغنى فينال الايمان الصحيح .

قال علي بن أبي طالب : « ما دون اربعة آلاف درهم نفقة ، وما فوقها كنز » ^(١) .

والظاهر أن علياً كان يقصد بقوله هذا ما قصده سلمان . فقد حدد مبلغاً معيناً هو اربعة آلاف درهم ليكون احتياطاً لدى الفرد يأمن به من خطر الحاجة . وما عدا ذلك فهو « كنز » محرّم يؤدي الى البطر والطفغان .

يقول علي بن أبي طالب : « ما ضرب الله عباده بسوط اوجع من الفقر » ^(٢) . فالفقر مؤلم موجه يطير الايمان من الرأس — كما يقول المثل الدارج . وهذا يشبه ما قاله أبا ذر : « اذا ذهب الفقر الى بلد قال له الكفر : خذني معك » . فنحن لا نتوقع ايماناً صحيحاً من معوز . وكذلك لا نتوقعه من صاحب الثروة الفائضة . يقول أبو حنيفة : لا تقبلوا شهادة من ليس في بيته طحين . وأظن أن أبا حنيفة أخذ رأيه هذا من أبي ذر وعلي بن أبي طالب . والمعروف عن أبي حنيفة انه كان يعتمد في آرائه على قول علي بن

(١) انظر : ابن تيمية ، عيون الأخبار ، ج ١ ص ١٤٥

(٢) انظر : خالد محمد خالد ، المصدر السابق ، ص ٩

أبي طالب (١) . فالمعوز الذي لا يملك طعاماً في بيته مضطر أن يعشّ
ويكذب ويراغ ويخادع لكي يدرأ عن نفسه خطر المجاعة التي
لا ترحم .

والظاهر أن وعاظ السلاطين لا يفهمون هذا الرأي ولا يؤمنون
به . فالمؤمن في نظرهم ملاك لا يأكل ، وهو كلما ازداد جوعاً
ازداد حباً لله ورسوله . والواقع انه انسان كسائر الناس لا يكاد
يجوع أو يرى اطفاله جوعاً حتى يشور ويلعن الأولين والآخرين .
كان النبي يكثر من الدعاء : « اللهم اني اعوذ بك من جهد
البلاء » . ف قيل له : « وما جهد البلاء يا رسول الله ؟ » قال : « قلة
المال وكثرة العيال ! » (٢) .

فالنبي كان يفهم سر الطبيعة البشرية ، ويدري أنها ضعيفة
بطبيعتها . فإذا لم يدارها المجتمع ويراع مصلحتها تسفلت أو تزندقت .
إننا لا نستطيع أن نجد إيماناً صحيحاً ونفساً مطمئنة في أناس قد
عضهم الفقر بناه أو في أناس قد ابطروهم الغنى واعماههم الترف والدلال .
إن الانسان يريد أن يأكل . فإذا لم يجد ما يأكله أكل لحوم
البشر . أما اذا شبع وأترف وحنفت به مظاهر النعيم فانه يتطلع
آنذاك الى الفسق والفجور .

يقال عن الانسان : انه اذا افتقر سرق واذا اغتنى فسق .

(١) انظر : آدم ميت ، الحضارة الاسلامية ، ج ١ ص ٣٥٣ (حاشية) .

(٢) انظر : خالد بن محمد خالد ، المصدر السابق ، ص ١٤٩ — ١٥٠ .

ونحن لا نستطيع أن نغيّر طبيعة الانسان هذه بالنصيحة والموعظة .
فقد يستمع لموعظتنا فرد أو اثنان أو ثلاثة . أما اكثرية الناس فهم
يسرون في سبيلهم المحتوم ، لا يجدون منه خلاصاً .

نرى الوعاظ ينذرون الناس بالويل والثبور في كل صباح ومساء .
فيخرج الناس من مجالسهم كما دخلوها ... كأنهم لم يسمعوا شيئاً .
وقد نشاهد بين حين وآخر رجلاً أطال لحيته واخذ يتعبّد
ويتزهّد . إنه قد صدّق بأقوال الوعاظ واطاع موعظتهم . فيفرح
الوعاظ عند ذلك ويتهيجون ومهتفون . لقد كسبوا فرداً واحداً الى
جانبهم . ونسوا ملايين الناس الذين لم يتأثروا بموعظتهم شيئاً .

* * *

تحاول الحكومات الحديثة أن تسكّر بين رعاياها نسبة المرفهين
الذين يقفون وسطاً بين الفقر المدقع والغنى الفاحش . والأمة الراقية
يقاس رقيّها اليوم بنسبة ما فيها من هؤلاء المرفهين المتوسّطين .
إن الحكومات الحديثة تفرض الضرائب المتصاعدة على
الأغنياء . وقد يندش القارئ حين يرى النسبة الهائلة التي تفرضها
بعض الأمم الحديثة على مكاسب الأغنياء وعلى موارثهم وأرباحهم
المفرطة . تأخذ الحكومات هذه الضرائب فتتفّقها على الطبقة الفقيرة ،
ترفع من مستواها وتشبع حاجاتها وتسد عنها منافذ الكفر والزندقة .
إن أهم وظيفة من وظائف الحكومة الحديثة هي رفع مستوى
الطبقة الفقيرة . فهي تأخذ فضول اموال الأغنياء لتنفقها على الفقراء .

أما الحكومة القديمة فكانت لا تفهم هذا ولا تستسيغه . إنها كانت لا تهتم إلا بحفظ الأمن وحده . وحفظ الأمن معناه حفظ السلطان وتدعيم حكمه . وقد رأينا هذا جلياً في الحكومة العثمانية البائدة . فلم يكن للوالي المحترم من هم إلا أن يضبط العشائر ويقمع المتمردين والثائرين . وبذا كان لا يفهم من أمور السياسة إلا تقوية الجيش والشرطة . أما المستشفيات والمدارس والملاجيء وغيرها من المرافق الاقتصادية والاجتماعية فكانت في نظره أمراً ثانوياً . وبذا سارت البلاد في طريق الخراب .

وكان الوعاظ يدعون الله ، رغم ذلك ، أن ينصر الحمار بن الحمار — سلطان المسلمين !

يقول الامام القرطبي في تفسيره : ان أبا ذر افرد وحده بمذهبه الخاص في تحريم « الكنز » . والقرطبي يعتقد أن مذهب أبي ذر هذا من المذاهب الشديدة التي لا يلزم المسلمون اتباعها . ويتطرق القرطبي بعد ذلك الى أمر تحريم « الكنز » الذي جاء في القرآن فيأخذ في تأويله تأويلاً يجعله منافياً لمصلحة المسلمين في أيام عثمان يقول القرطبي :

« ويُحتمل أن يكون محل ما روي عن أبي ذر في هذا ما روي أن الآية نزلت وقت شدة الحاجة وضعف المهاجرين ، وقصر يد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كفايتهم ، ولم يكن في بيت المال

ما يشبعهم وكانت السنون الجوائح حاجة عليهم ؛ فنهوا عن إمساك شيء من المال إلا على قدر الحاجة ، ولا يجوز ادخار الذهب والفضة في مثل ذلك الوقت ؛ فلما فتح الله على المسلمين ووسع عليهم اوجب صلى الله عليه وسلم في مائتي درهم خمسة دراهم ، وفي عشرين ديناراً نصف دينار ، ولم يوجب الكل ؛ واعتبر مدة الاستثناء ، فكان ذلك منه بياناً صلى الله عليه وسلم ... » (١)

يتضح من هذا أن الامام القرطبي يرى أن السكّنز كان محرماً في بدء الدعوة الاسلامية وذلك لما كان عليه المسلمون آنذاك من عوز وفاقة . أما بعد استغناء المسلمين واستثناء اموالهم فالسكّنز في نظره جائز .

وهذا رأي يدل على قصر نظر وغباوة . فالمسلمون الأولون عند ما استغنوا في ايام عثمان افتقر إزاءهم مسلمون آخرون ممن دخل الدين مؤخراً . فالنبي لم يأت لاغناء فئة قليلة من الناس — أي اصحابه الأولين . إنه جاء بالأحرى لهداية الناس جميعاً ورفع الحيف الاجتماعي عنهم . هذا هو رأينا في محمد بن عبد الله . فهو قد نبث رحمة للعالم بأسره .

والقرطبي يوجّه اهتمامه الى مصلحة المسلمين الأولين وحدهم ، وينسى سواد المسلمين الذين كانوا يطبخون الماء ويفترشون التراب — كما أسلفنا .

(١) انظر : صادق عرجون ، المصدر السابق ، ص ٣٨ — ٣٩

كان الخليفة أبو بكر يعتقد بأن فضل السبق الى الاسلام والجهاد في سبيله يجب أن يرجع الى الله ليثيب اصحابه عليه . أما المال فهو معاش ينبغي أن يساوى فيه بين المسلمين ، السابقين منهم والمتأخرين ^(١) . وكان علي بن أبي طالب يرى رأي أبي بكر هذا . قال علي في خطبته التي افتتح بها خلافته : « أيها الناس .. ألا لا يقولون رجال منكم غداً — قد غرمتهم الدنيا فامتلكوا العقار وفجروا الأنهار ، وركبوا الخيل ، واتخذوا الوصائف المرفقة — اذا ما منعهم ما كانوا يخوضون فيه ، وأصرتهم الى حقوقهم التي يعلمون : « حرمتنا ابن أبي طالب حقوقنا » . ألا وايا رجل من المهاجرين والأنصار من اصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواء بصحبته . فان النفل غداً عند الله ، وثوابه وأجره على الله . ألا وايا رجل استجاب لله ولرسوله ، فصدق ملتنا ودخل ديننا واستقبل قبلتنا ، فقد استوجب حقوق الاسلام وحدوده ؛ فأنتم عباد الله والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، ولا فضل فيه لأحد على أحد ، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء » ^(٢) .

والظاهر أن الامام القرطبي لا يوافق على رأي علي ورأي أبي بكر . ولعله يرى بأن الاسلام قد جاء لاغناء طائفة معينة من الناس واهمال الباقيين . كأنه يظن بأن المال يجب أن يعطى للمؤمنين

(١) انظر : أبو يوسف ، المصدر السابق ، ص ٥٠

(٢) انظر : سيد قطب ، العدالة الاجتماعية في الاسلام ، ص ١٩٧

المخلصين فقط . وما درى أن المؤمن المخلص لا يكاد يستغني حتى يضعف إيمانه وإخلاصه .

* * *

ونحن نستغرب على كل حال من رأي الامام القرطبي حيث نسخ آية محكمة من القرآن ، وجوز إبطالها وعدم العمل بها ، بحجة تغيير الظروف . إننا لندهش حقاً من هذا الرأي . فالقرطبي يجوز به إهمال الأحكام القرآنية أو السنة النبوية إذا كانت غير ملائمة لمقتضيات الظروف المستجدة .

وأحسب أن القرطبي بهذا يناقض نفسه بنفسه . فهو وأمثاله من الفقهاء يعتقدون بأن أحكام القرآن وسنة الرسول خالدة تصلح لكل زمان ومكان ، وهم يرون بأن حلالها حلال .. وحرامها حرام الى يوم القيامة ، ويعتبرون كل تغيير فيها بدعة وكل بدعة ضلالة والضلالة في النار .

فنحن إذ نقول لهم بأن ضريبة الزكاة غير كافية ، وإن الضريبة يجب أن تكون تصاعدية ، تراهم يغضبون ويقولون : بأن ذلك تغيير وتبديل في أحكام الله الخالدة .

يبدو أنهم يجوزون تغيير أحكام الله إذا كان هذا التغيير ملائماً لمصلحة الأغنياء . أما إذا كان مناقضاً لمصلحة الأغنياء فهم يعتبرونه بدعة أو زندقة .

الفصل الخامس

عبد الله بن سبأ

يقول بعض المؤرخين : إن الرجل الذي حرّض أبا ذر على عثمان هو شخص من اهل اليمن اسمه عبد الله بن سبأ ، ويلقب بابن السوداء .

ويقول هؤلاء المؤرخون : إن ابن سبأ قام بأعمال عديدة علاوة على تحريضه أبا ذر . فهو في رأيهم كان المحرّض الرئيس الذي حرّك الثورة على عثمان . وهو الذي منع من وقوع الصلح بين علي وعائشة في واقعة الجمل المشهورة . وينسبون الى ابن سبأ ايضاً انه كان أول من بث فكرة الرجعة والمهديّة في الاسلام . فكان ابن سبأ في نظر هؤلاء هو المخترع الوحيد لهذه الفكرة حيث لم يكن لها في المجتمع الاسلامي وجود من قبل .

يقول الدكتور أحمد أمين عن ابن سبأ : « ... فهو الذي حرّك أبا ذر للدعوة الاشتراكية ، وهو الذي كان من اكبر من ألب الأمصار على عثمان ، و ... ألّه علياً . والذي يؤخذ من تاريخه انه وضع تعاليم لهدم الاسلام ، وألف جمعية سرية لبث تعاليمه ، واتخذ الاسلام ستاراً يستر به نيّاته ... » ^(١)

ويعزون الى ابن سبأ كذلك انه اخترع فكرة الوصية ، إذ

(١) انظر : أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ٢٦٩

كان يدعو أن لكل نبي وصي ، وإن وصي النبي محمد هو ابن عمه علي بن أبي طالب .

إن شخصية ابن سبأ هذا ، كما يظهر ، شخصية عجيبة جداً . فلا بد أنه كان يملك قوة نفسية خارقة استطاع أن يؤثر بها في جماهير المسلمين آنذاك هذا التأثير البالغ ، فيثير الثورات ويمنع الصلح ويدث في الاسلام افكاراً غريبة تبقى بعده بقاءاً لا نهاية له .

والمؤرخون الذين ذكروا قصة ابن سبأ لم يأتوا لنا بوصف واف عن شخصية هذا الرجل العجيب . فنحن لا نعرف عنه سوى أنه كان يهودياً من اهل اليمن وأمه حبشية ، جاء في ايام عثمان فأعلن اسلامه ثم ذهب في الأمصار يثبث دعوته المتشعبة ، ويحرض الناس على عثمان ويدعو الى تأليه علي بن أبي طالب .

إن دراسة هذه الشخصية الغريبة مشكلة عويصة في الواقع . فنحن نعرف عن افكار هذا الرجل واعماله اكثر مما نعرف عن شخصيته وصفاته .

تمت ذات يوم احد القساوسة وهو يسخر من الاسلام قائلاً :
« انظروا الى هذا الدين ، فهو في ايان عزة وانتصاره يقع فريسة هينة لرجل غريب لا يعرف التاريخ عنه شيئاً كثيراً . ففي الوقت الذي كان صحابة محمد يسيطرون على المجتمع الاسلامي وينشون فيه تعاليم نبيتهم نرى طارئاً يهودياً يدخل ذلك المجتمع فيمزقه تمزيقاً مريعاً من غير أن يرفع أحد يده لطرده أو للبطش به » .

يعتقد الدكتور طه حسين : إن عبد الله بن سبأ وهم من الأوهام . فهو ، في رأي الدكتور ، شخصية اخترعها المخترعون حاجة في أنفسهم ، وهو إذن لا وجود له كما يتصوره المؤرخون الذين ذكروا قصته ^(١) .

وحجة الدكتور طه حسين في هذا الرأي أن المسلمين لم يكونوا في عصر عثمان من الوهن بحيث يعث بعقولهم وآرائهم وسلطانهم طارئاً يهودي أسلم مؤخراً .

ويقول طه حسين : إنه كان من اليسير على ولاية عثمان وعمله أن يتبعوا هذا الطارئ أو يطاردوه أو يكتبوا بشأنه الى عثمان على الأقل . وهم كانوا مهرة في تتبع المعارضين وفي نفهم لسبب أقل جداً مما يرويه المؤرخون عن ابن سبأ ^(٢) .

ثم يأتي طه حسين الى قضية أبي ذر والى قصة تحريضه من قبل ابن سبأ ، فيقول : « ... وما اعرف إسرائفاً يشبه هذا الاسراف . فما كان أبوذر بحاجة الى طارئ محدث في الاسلام ليعلمه ان للفقراء على الأغنياء حقوقاً ، وان الله يبشّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بعذاب أليم » ^(٣) .

أما الدكتور أحمد أمين فيرى خلاف هذا الرأي . إنه يقول :

(١) انظر : طه حسين ، الفتنة الكبرى ، ج ٢ ص ٩٩

(٢) انظر : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٣٢

(٣) انظر : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٣٣

« يذهب بعض الباحثين الى أن عبد الله بن سبأ شخص خرافي ليس له وجود تاريخي محقق ، ولكننا لم نر لهم من الأدلة ما يثبت مدعاهم » (١) .

وهنا نقف حائرين بين رأيين متناقضين : فهل كان ابن سبأ شخصاً حقيقياً أم كان وهمياً ؟ إن هذا سؤال مهم جداً عند من يريد أن يدرس تاريخ المجتمع الاسلامي ويعتبر بعضاته البالغات . وقد يصح لنا أن نضع السؤال بشكل آخر ، فنقول : هل كل المجتمع الاسلامي آنذاك في حاجة الى من يثبته أو يحرضه على الفتنة ؟

يبدو أن المؤرخين الذين نقلوا قصة ابن سبأ يتصورون بأن المجتمع الاسلامي كان في ذلك الحين راضياً هادئاً مطمئناً ، فلم يكن لديه ما يزعجه أو يقلقه . وأحسب ان هؤلاء المؤرخين من طراز الوعاظ الذين يتبعون في تفكيرهم منطق ارسطوطاليس القديم . فهم اذا رأوا حركة اجتماعية تعجّبوا وتساءلوا ، كأن الحركة في نظرهم شذوذ في طبيعة المجتمع وعرض طارئ عليه .

إن المنطق الاجتماعي الحديث يؤمن بأن المجتمع ذو طبيعة حركية أصيلة فيه . فهو في صيرورة دائمة أو ما يطلقون عليه في الاصطلاح العلمي : « Process » .

والمنطق الحديث لا يعجب حين يرى المجتمع متحركاً . إنما هو

(١) انظر : أحمد أمين ، المصدر السابق ، ص ٢٦٩ (حاشية) .

يعجب ويتساءل حين يراه ساكناً . فالسكون في نظر المنطق الحديث شذوذ عارض . أما الحركة فهي الأساس الذي يقوم عليه السكان الاجتماعي في معظم الأحيان .

* * *

إن المجتمع الاسلامي في تلك الفترة التي ظهر فيها أبو ذر كلن يعاني أزمة اجتماعية كبرى . فكان الفرق بين الغنى والفقر شاسعاً تنقزز منه النفوس . وأبو ذر ، كما قال الدكتور طه حسين ، لم يكن بحاجة الى من يعلمه مبدأ الاشتراكية الذي دعا اليه . إن الثورة كانت في ذلك الحين لا بد منها . فنحن لا نحتاج الى تعليل لظهورها ، إنما نحتاج بالأحرى الى تعليل فيما لو لم تحدث إذ ذاك ثورة أو فتنة (١) .

* * *

يخيّل لي ان ابن سبأ الذي ينسب اليه تحريك الثورة كلن وهما من الأوهام كما قال الدكتور طه حسين . ويبدو أن هذه الشخصية العجيبة اخترعت اختراعاً ، وقد اخترعها اولئك الأغنياء الذين كانت الثورة موجهة ضدهم . وهذا هو شأن الطبقات المترفة في كل مرحلة من مراحل التاريخ إزاء من يثور عليهم .

(١) أرجو أن يتذكر القارىء أن الفرق بين الثورة والفتنة هو فرق نسبي أو اعتباري . فكل حركة اجتماعية جديدة تدعى في أول الأمر فتنة ... حتى اذا نجحت قيل عنها انها كانت ثورة مقدسة وانتفاضة في سبيل الحق .

فكل انتفاضة اجتماعية يعزوها اعداؤها الى تأثير أجنبي . وقد أشار الى هذا البروفسور سمل ، الباحث الاجتماعي المعروف ، في بحثه عن الغريب (Stranger) (١) .

ومما تجدر الإشارة اليه في هذا الصدد أن محمداً نفسه إهتمته قريش في بدء دعوته بأنه كان يأخذ تعاليمه من غلام نصراني اسمه جبر (٢) . واتهمه بعضهم بعد ذلك بأنه كان يتلقى افكاره من بحيرا الراهب وسلمان الفارسي وغيرها (٣) . ونزلت آية من القرآن تنفد هذا الزعم حيث تقول : « ولقد نعلم انهم يقولون إنما يعلمه بشر . لسان الذي يلحدون اليه أعجمي » ، وهذا لسان عربي مبين » . يتضح من هذا أن قريشاً كانت تنسب دعوة محمد الى تأثير الأعاجم أي الأجانب . فهي تنسبها تارة الى تأثير رجل مسيحي من الروم وتنسبها تارة أخرى الى تأثير رجل فارسي . ولكنها بعد أن دخلت في الدين الجديد واستفادت منه نسيت هذه التهمة التي ألصقتها بالنبي العظيم . ولو لم تدخل قريش في الاسلام لظلت هذه التهمة لاصقة بمحمد الى الأبد — كما لصقت بالمسكين أبي ذر من بعده .

إن كل مبدأ جديد يعزوه المترفون الى تأثير نزعة أجنبية غريبة .

(١) انظر : Park & Burgess , Science of Sociology , p. ٢

(٢) انظر : محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، ص ١٣٦

(٣) انظر : عبد الرحمن بدوي ، شخصيات قلقة في الاسلام ، ص ٣٣

حدث هذا ، كما أبان البروفسور سمل ، في مختلف مراحل التاريخ .
إن المترفين يودون من صميم قلوبهم أن يكون الناس محافظين
لا يعرفون من الآراء إلا ما ورثوه عن الآباء والأجداد . فإذا
نهض من بينهم ناهض ينحو منحى جديداً في آرائه ، قالوا عنه انه
عميل للأجانب . وهذه التهمة يصدقها البلهاء بسرعة . وتلصق التهمة
بالمجددين ، فإذا نجحوا أو استولوا على الحكم زالت التهمة عنهم .
أما إذا فشلوا ظلوا متهمين بها جيلاً بعد جيل .

إن الرأي الجديد هو في العادة رأي غريب لم تألفه النفوس
بعد . وما دام هذا الرأي غير خاضع للقيم التقليدية السائدة في المجتمع .
فهو كفر أو زنادقة . وعند ما يعتاد عليه الناس ويصبح مألوفاً وتقليداً
يدخل في سجل الدين ويمسي المخالفون له زنادقة وكفاراً .

إن التاريخ يسير على قدمين ، كما يسير الفرد . فلا بد أن
تتحرك إحدى القدمين وتقف الأخرى لكي يتم السير الى الامام .
وفي كل مرحلة من مراحل التاريخ نجد طائفة من الناس محافظة أو
رجعية وطائفة أخرى مجددة تأثرت تدعو الى التغيير والتبديل .
والتطاحن بين هاتين الطائفتين لا يهدأ ما دام المجتمع متحركاً .
وكل طائفة من هاتين الطائفتين المتطاحتين تنسب الى الأخرى تهمة
من التهم الخبيثة . فالمجددون في نظر المحافظين زنادقة وعملاء
للاجانب . أما المحافظون فهم في نظر المجددين طغاة وظلمة وآكلين
للمال الحرام .

والمشكلة ان كل مجدد يصبح عند نجاحه محافظاً . فيثور عليه مجدد من نوع آخر ... وهكذا يسير التاريخ .

إن النجاح ، كما قلنا ، قبر الثورة . فالمجديد الثائر لا يكاد ينال غايته ويستريح من وعاء الجهاد حتى يفرح ويحتفل وينشد أناشيد النصر والنجاح . وهذا الفرح يؤدي به الى الكسل . إن الحماس لا ينتاب إلا البأس المحروم . فاذا انتصر هذا المحروم وتغلب على اعدائه ود أن يقف التاريخ به فلا يتحرك . فهو يمسي مترفاً سعيداً ، ويريد من الناس جميعاً أن يكونوا سعداء مثله — وهيهات .

إن التاريخ دائب السير ، لا يني ولا يقتر . والقدمان في تفاعل مستمر . فكل قدم تتحرك اليوم سوف تقف غداً ، حيث يأتي آنذاك طور القدم الأخرى .

يمكن تشبيه المجتمع بقدر الماء الذي توضع تحته النار . فالطبقة السفلى من الماء تسخن من جراء الحرارة قبل الطبقة العليا ، فترفع . وتنزل الطبقة العليا بدورها لتسخن فتصعد . وهكذا نجد الماء في غليان وتقلب وحركة مستمرة — يصعد النازل فيها وينزل الصاعد ...

إن هذا هو منطق التناقض الحديث . وهو منطق لا يستسيغه — كما اسلفنا — اصحاب المنطق القديم الذين يعتبرون الحقيقة ثابتة لا تقبل التغيير ^(١) .



والمنطق القديم هو منطق المترفين والسلطين . فالسلطان قد اعتاد على أن يأمر فيطاع أمره . فهو يأمر ببناء قصر مثلاً . وبعد مدة قصيرة أو طويلة يجد القصر حاضراً . فهو لا يدري كيف بُني القصر ، وما هي المشقات التي عاناها العمال والمهندسون في بنائه . إنه يجد القصر كامل البناء ، فيعتقد بأن الدنيا كلها تجري على هذا النمط — كن .. فيكون !

إن الله وحده هو الذي يقول للشيء كن .. فيكون . أما بنو آدم فهم في دأب وشقاء وحركة . ومنطق الشقاء هو غير منطق الترف .

* * *

يظن وعاظ السلطين أن العدل أمر بسيط . فهو في رأيهم فكرة تخطر ببال الانسان فيحققها . ولذا فهم يعظون الانسان بأن يكون عادلاً ، ويعظون .. ويعظون .. الى ما لا نهاية له . هذا مع العلم ان الظلم باق ، والدنيا سائرة على مجراها القديم .

إن العدل ليس نتيجة الفكر المجرد وحده ، كما كان يتصور افلاطون رضي الله عنه . إنه بالأحرى نتيجة التفاعل المستمر بين المظلوم والظالم .

فمن طبيعة الانسان أن يظلم اذا لم يجد ما يمنعه من الظلم جدياً . إن الانسان ليس ظالماً بطبعه كما يتصور البعض . إنه في الواقع يحب العدل ولكنه لا يعرف مآثاه . فهو يظلم ولا يدري انه ظالم فكل عمل يقوم به يحسبه عدلاً ، ويصفق له الأتباع والأعوان فيظن انه ظل الله في الأرض حقاً .

إن العدل الاجتماعي لا يتم إلا اذا كان إزاء الحاكم محكوم واع
يردعه ويهدده بالعزل . وحكام الأمم الحديثة لم يصيروا عادلين لأنهم
أناس أخيار يفكرون تفكيراً صحيحاً . إنهم بالأحرى لا يستطيعون
أن يكونوا ظلمة مثل أسلافهم البائدين ، فأمامهم قد وقف المحكومون
وبأيديهم أوراق الانتخاب يهددونهم بالسقوط .

وبهذا أصبح الحاكم الحديث عادلاً خيراً متواضعاً لا يشتري
الجواري ولا يبني القصور . أصبح الحاكم الحديث يقتخر بالفقر
والمسكنة فتحسبه ملاكاً وما هو بملاك . إنه بشر .. وسكن الذي
جعله يظهر بمظهر الملاك هو الوعي الاجتماعي الجبار الذي يقف له
بالمرصاد في كل لحظة .

إن غليان المجتمع الحديث هو غليان سلمي هادئ ، إذ انه
ينتخب حكمه بين حين وآخر ويبدل فيهم ويغير .

أما المجتمع القديم فكان محكوماً بالسيف والسوط . لا يعرف
الانتخاب إلا نادراً . ولذا كانت الحركة الاجتماعية في الزمن القديم
عنيفة وبطيئة ، حيث يثور المحكومون بالسيف فيقابلهم الحكام
بسيف مثله ويبدأ التطاحن الدموي إثر ذلك .

وكل التطاحن الدموي في الأزمنة القديمة وسيلة المجتمع في
حركته الدائبة التي لا تنفك عنها .

يندب الواعظون على المسلمين الأولين بأنهم قاطحنوا وتنازعوا .
وينسبون قاطحتهم الى تحريض بعض أولي النزعات الغريبة كابن
سبأ وغيره . وما دروا أن التاطحن كان أمراً لا مناص منه . فلو لم
يحدث التاطحن لرأينا الاسلام مباءة للذئاب واللصوص والسفاكين ،
ينهشون به من كل جانب .

يقول النبي محمد : « اختلاف أمتي رحمة » ^(١) وهذا قول
لا يفهمه وعاظ السلاطين . فهم لا يدركون كيف يكون الاختلاف
والنزاع رحمة على الناس . إنهم يعتبرون جماعة المسلمين مقدسة
لا يجوز مساسها بأي حال من الأحوال . ومن يخرج على جماعة
المسلمين ، كأبي ذر ، يكون في نظرهم زنديقاً قد شق عصا الطاعة
على الله ورسوله .

ولم يكنهم هذا فنعوا ، بالاضافة اليه ، كل جدل أو تفكير
حر مخافة أن يؤدي هذا الجدل الى الشك في التقاليد المقدسة والى
الاعتراض على جماعة المسلمين .

إنهم يرومون الجود الفكري بكل ما في هذه الكلمة من
معنى . والواقع أن الجود الفكري والخضوع للسلطان أمران
مترادفان . فهم يقولون : « من تمنطق فقد تزندق » . ويقولون :
« من خرج على السلطان فقد كفر » .

لا مرء في أن الخلاف أو التنازع يؤدي الى الفوضى ويؤدي الى تمزق الشمل وتبعثر القوى الاجتماعية . ولكنه في نفس الوقت يؤدي الى التجديد والتغير .

إنها في الحقيقة مشكلة ذات حدين ، أو هي (Dilemma) كما يسميها علماء الاجتماع . فالمجتمع البشري واقف بين أمرين متناقضين . فهو إما أن يسير في طريق الخضوع والجلود أو يسير في طريق الخلاف والتجدد . والمجتمع الناجح هو ذلك المجتمع الذي استطاع أن يجد له طريقاً وسطاً ، إذ يسمح لقوى التجديد بالافصاح عن نفسها بطريقة سلمية هادئة . وهذا هو ما تحاول الأمم الحديثة أن تسير عليه ...

إن الأمم الحديثة اكتشفت طريقة التصويت والانتخاب المباشر . وهي بذلك تسمح للمجدين من أبناء الأمة أن يحققوا رغبتهم عن طريق التصويت الهادي . ففي كل فترة من الزمن نجد الناس يأتون الى صناديق الانتخاب وبأيديهم اوراق التصويت لكي يعينوا بها حكمهم حسب ما يرون فيهم من نزعة الى الاصلاح والتجديد .

إن نظام الانتخاب الحديث لا يسلم من المعائب . فهو ناقص على أي حال . ذلك لأنه من صنع الانسان الذي لا يسلم من النقص مهما حاول . ولكننا مع ذلك نستطيع أن نقول : أنه كلما كان الانتخاب أصح واكثر تمثيلاً للرأي الأمة كان التذمر الاجتماعي

في الأمة أقل وخطر الثورة فيها أبعد .
يقول لپان عن الانتخاب انه يقوم الآن مقام الثورة في الزمن
القديم . فالانتخاب في نظره عبارة عن ثورة مقنّعة ، تُستعمل فيها
أوراق التصويت بدلاً من رصاص البنادق (١) .
والمجتمع الذي لا يستطيع أن يبدل حكمه بواسطة التصويت
الهاديّ يلجأ عادة الى تبديلهم بواسطة العنف والثورة .

* * *

لقد ابتكر الاسلام طريقة الشورى . ولكنها كانت طريقة
ساذجة سابقة لأنها لم تهضمها عقول الناس في ذلك الحين . فلم تمض
مدة قصيرة على تحقيق نظام الشورى حتى أسىء تطبيقه ورجع الحكم
الاسلامي الى نظام السيف والسوط .
وهذا أمر طبيعي محتوم لا داعي للاستغراب منه . فالانتخاب
ليس نظاماً فكرياً مجرداً . إنه عادة اجتماعية تنبعث من مألوف
الناس وتعتمد على قيمهم وتقاليدهم الموروثة .
ولهذا ظهر حكم السيف والسوط في الاسلام بعد نصف قرن
تقريباً من وفاة محمد ، واختفى به نظام الشورى . فالقيم الاجتماعية
لم تفهم آنذاك هذا النظام ولم تستطع مماشاته أو الاعتياد عليه .
يروى عن النبي محمد انه قال « الخلافة ثلاثون ، ثم تعود ملكاً » (٢) .

(١) وهو يعبر عن ذلك بقوله : Ballots instead of bullets

(٢) انظر : ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ص ٢٠٠

وهذا الحديث ربما كان مكذوباً على لسان النبي . ولعل المحدثين قد اصطنعوه لكي يصوروا به ما حدث في أيام معاوية من تحول في نظام الخلافة .

إنه على أي حال يصور لنا الاعتبار الاجتماعي الذي كان سائداً لدى المحدثين في ذلك الحين ، وذلك عندما رأوا معاوية يحول نظام الشورى الى ملك ورأى تدعّمه الجيوش .

وبعد هذا التحول انقسم الناس الى فريقين متعاكسين : فريق يدعو الى الخضوع للسلطان مهما كان ظالماً ، وفريق آخر يدعو الى الثورة . ولوجود السيف في يد السلطان ، لجأ الثوار الى السيف ايضاً . واصبح التقدم الاجتماعي إذن منوطاً بمدى التصادم بين سيوف المحافظين وسيوف المجددين .

وقد لجأ كل فريق الى كتاب الله وسنة رسوله يستند عليهما لتدعيم موقفه في محاربة الفريق الآخر . هذا يقول : ان السلطان واجب الطاعة والخروج على الجماعة كفر . وذلك يقول : ان النهي عن المنكر واجب وكفاح الظالمين جهاد .

لقد تقدم المجتمع الاسلامي بهذا التصادم والتفاعل طبعاً ، ولكنّه خسر في الوقت ذاته كثيراً من الأرواح والأموال والجهود . ان التقدم يكلف المجتمع غالياً . فهو ليس فكرة مجردة تراود أذهان الفلاسفة . انه بالأحرى نتيجة التفاعل والتصادم المبرير بين قوى المحافظة وقوى التجديد .

ولو كان الناس كلهم محافظين خاضعين لحمد المجتمع بهم ولا أصبح
كمجتمع النمل والنحل — تمر عليه ملايين السنين وهو واقف في
مكانه لا يتقدم .

يُنسب الى النبي حديث غريب له صلة بهذا الموضوع الذي نحن
فيه . يُروى انه قال ما معناه : سألت ربي ان لا يهلك أمتي بالقحط
فأجاب سؤلي . وطلبت منه أن لا يهلك أمتي بالفرق فلي طلي .
وسألته أن لا يجعلهم يتقاتلون فيما بينهم فأبى ^(١) .

ورب محمد له الحق في أن يفرّق أمة محمد ويجعل بأسهم بينهم .
فهو لا يريد أن يكون المجتمع الاسلامي مجتمعاً راكداً جامداً .
فرب محمد هو كما وصفه النبي موسى إذ قال يحاوره : « إن هي إلا
فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي بها من تشاء ... »

يقول الله مخاطباً نبيه محمداً : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة
واحدة . ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ... »
والظاهر أن الله خلق البشر وخلق نزعة الجدل والنزاع فيهم .
وبهذا سلك بهم مسلك التطور الذي لا يقف عند حد .

كتبت ذات يوم في إحدى مجلات بغداد أقول : إن النبي
كان ثائراً مجدداً يدعو للتقدم الاجتماعي في أقصى معانيه ، وذلك
بخلاف ما نرى الآن في رجال الدين من جمود ومحاربة لكل شيء .

(١) انظر : أحمد الهاشمي ، المصدر السابق ، ص ٩٦

جديد . وكان من أكره الأمور عند النبي محمد أن يقول الناس :
« إنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارتهم مقتدون » (١) .

فرد عليّ أحد وعاظ السلاطين قائلاً : « فليس هناك مسلم على وجه الأرض يقول : إنا وجدنا آباءنا . بل يقول : هذا كتاب الله بين أيدينا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد عززه محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : تركت فيكم الثقلين لن تضلوا ما تمسكتم بها — كتاب الله وسنتي . ونحن على العهد مقيمون وبكتاب الله وسنة رسوله متمسكون . ولیدلنا الدكتور على رأيه في التجديد لننبذ كتاب الله وسنة رسوله إن كان يستطيع أن يأتي بشيء جديد أصلح من كتاب الله » (٢) .

وإني لأعجب حقاً من هذا القول الذي يردده وعاظ السلاطين في كل حين . فهم يرفعون كتاب الله بأيديهم محتمين به ، كما فعل اصحاب معاوية في معركة صفين ، ويقولون : هذا هو كتاب الله فلنرجع اليه . إنهم نسوا أن كتاب الله « حال أوجه » كما قال علي

(١) انظر : العدد الأول من مجلة البيان الجديد الصادر بتاريخ ١٧ شباط عام ١٩٥٤ .

(٢) وما نجد الإشارة اليه أن صاحب هذا القول اتهم كاتب هذه السطور بأنه متأثر بأفكار المبشرين المسيحيين ومتأثر معهم . والغريب أنه اتهم من قبل بتهمة معاكسة : هي تهمة الشيوعية وحمل الآراء الهدامة . فهو قد جمع الصيف والشتاء في سطح واحد كما يقولون . وليس هذا بمستغرب ، فكلما التهمتين تعزو الى كاتب هذه السطور حمل أفكار أجنبية غريبة .

بن أبي طالب ، وان كل حزب يستطيع أن يأتي بشيء من كتاب الله يحارب به خصومه .

لقد وجدنا كتاب الله ينهى عن كنز الأموال بصراحة لا تقبل التأويل . ثم جاء السلاطين من بعد ذلك يتأولون ذلك ويناقضونه ويجدون في سنة النبي ما يؤيد دعواهم . فأني تفسير نأخذ يا ترى ؟ إن اتباع كتاب الله ليس معناه أن نقرأه كل صباح ومساء ، ونقبسه ونضعه على رؤوسنا ، ونكتب حروفه بماء الذهب ، ونزخرفه ونزوق فيه .

إن اتباع كتاب الله بالأحرى هو في الاهتداء بذلك المشعل الذي رفعه القرآن في مكاشفة الظلمة والطفأة والترفين .

يكرر الوعاظ قول القرآن : « واطيعوا الله ورسوله وأولي الأمر منكم » . وهم بذلك يأمرون الناس بطاعة السلطان مهما كان ظالماً . إن القرآن يأمر بالطاعة ثلاث : الله ورسوله وأولي الأمر . أما الوعاظ فينسبون طاعة الله ورسوله ويصبون جل اهتمامهم على طاعة أولي الأمر — أي طاعة السلاطين .

إن طاعة الله ورسوله أولى طبعاً من طاعة أولي الأمر . فإذا تناقضت الطاعتان كان الأمر الأول أجدر بالاتباع من الأمر الثاني . وقد جاء في الحديث النبوي : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .



قلنا عن المنطق الاجتماعي الحديث انه منطق التناقض والحركة ،

وهو يخالف منطق الحقيقة الثابتة الذي يسير عليه وعاظ السلاطين .
والواقع أن هذا المنطق الحديث ليس حديثاً بكل معنى الكلمة .
فقد بشر به النبي محمد على وجه من الوجوه .

يروى عن النبي أنه قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة عند رأس
كل مائة سنة من يجدد لها دينها » (١) . فالنبي يعترف إذن بأن دينه
لا يستقيم مع الجود ، وإن كتاب الله وحده لا يكفي لمنع الأمة من
الانحراف . فالنبي يتنبأ بمجيء المصلحين المجددين في أمته كل
مائة عام .

ومما تجدر الإشارة إليه أن ذكر عدد السنين في اللغة العربية
لا يعني العد والحصص على حساب السنين المألوفة . والظاهر أن النبي
كان يقصد بالمائة سنة فترة من الزمن تطول أو تقصر تبعاً لتغير
الظروف الاجتماعية .

إن التاريخ الاجتماعي لا يقاس بعدد السنين . فهو تاريخ متصل
يمر بمراحل شتى حسب عوامل التطور الاجتماعي .
ويخيل لي أن النبي كان يتوقع انحطاط أمته على توالي الأجيال ،
فإن لم يأتها من يجدد دينها ظلت متداعية في انحطاطها إلى ما لا نهاية له .
وقد امتاز الاسلام ، بين سائر الأديان ، بأنه فرض على
أتباعه واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(١) انظر مضمون هذا الحديث في : أبي داود في صحيحه ، وابن الأثير
في جامع الأصول ، والغزالي في المنقذ من الضلال .

يقول النبي محمد : « اذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له : انك ظالم ، فقد تودّع منها » (١) .

وهذا الواجب الاسلامي ، أي واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واجب غريب يدعو الى التأمل . فهو يفرض على الناس أن يجابهوا الظالم بالاعتراض والانتقاد وأن يقولوا له في وجهه : « انك ظالم » . ومن يدرس نفسية الظالمين يجد أنهم لا يستسيغون مثل هذه المجابهة اللاذعة . وكثيراً ما يأمرون بقتل من ينتقدهم أو يعترض عليهم .

يبدو أن النبي كان يعتبر مثل هذه المجابهة جهاداً في سبيل الله ، فهو يقول : « ما من مسلم يُظلم مظلمة فيقاتل فيقتل إلا قتل شهيداً » (٢) . وبهذا أمسى الجهاد في الاسلام نوعين : جهاد العدو الكافر وجهاد الظالم المسلم . وهنا نجد المسلمين قد انقسموا طائفتين : طائفة تؤكد على جهاد العدو الكافر وتنسى جهاد الظالم المسلم ، وطائفة أخرى ترى نقيض هذا الرأي فتؤكد على مكافحة الظالمين وتغفل أمر الأعداء الأجانب . ولعل هذا كان من الأسباب التي جعلت الطائفة الأولى تتهم الطائفة الثانية بكونها صنيعة الأجانب .

جاء الوعاظ الى واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

(١) انظر : عبد القادر المغربي ، الأخلاق والواجبات ، ص ١٦٠ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

الذي فرضه نبي الاسلام فأوّلوه لكي يلائم فلسفتهم في الخضوع للسلطين . فهم قد جعلوا هذا الواجب العظيم وظيفه حكومية حقيرة واطلقوا عليها اسم « الحسبة » . وساعدتهم السلطين في ذلك فعيّنوا نوعاً من الجلاوزة يشبه ما نعرف اليوم عن جلاوزة البلديات ، وأمرهم بالتجول في الأسواق في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

يقول ابن خلدون في هذا الشأن ما يلي : « أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين . يعيّن لذلك من يراه أهلاً له ، فيتعين فرضه عليه ، ويتخذ الأعوان على ذلك ، ويبحث عن المنكرات ، ويعزّر ويؤدّب على قـدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل النع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمّالين وأهل السفن من الاكثار في الحمل ، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الابلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين ... » (١)

فرض النبي واجب النهي عن المنكر لكي يحرّض أمته على مكافحة الظلم ، فجعله السلطين سوطاً بيد الجلاوزة يسلطونه على

رأس البقال والحمّال والمعلم من أهل السوق المساكين .

وفي نظري : ان خير تطبيق لسنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، في هذا العصر ، هو في استعمال المسلم حقه في الانتخاب وفي التصويت الى أبعد الحدود .

كان القدماء يرون بأن النهي عن المنكر غير واجب على المسلم إلا عند توفر شرط المقدرة عليه .. فهم يظنون أن ليس بإمكان الفرد المسلم أن يقوم به تجاه السلطان صاحب الحول والطول . ولذا فهم أجازوا السكوت والخضوع تجاه السلاطين ، وأهملوا اتباع هذا الواجب الاسلامي العظيم .

لا مرأ أن العصر الحاضر قد شاهد انقلاباً هائلاً في نظام الحكم . فكل دولة حديثة ، مهما كانت مصطنعة ، تحتوي على نظام للتصويت والانتخاب بوجه من الوجود . وقد أصبح من الواجب على المسلم في هذا العصر إذن أن يستعمل هذا الحق الذي أتيح له بكل ما استطاع الى ذلك من سبيل .

ولو كنت من أرباب العائم لأفتيت باعتبار التصويت واجباً دينياً ، ولجعت التقاعس عنه ذنباً لا يغتفر .

إن المسلم اليوم قد اعتاد أن ينظر الى الانتخاب نظرة السخرية واللامبالاة . فهو لا يبالي أن يساهم في الانتخاب ولو كان يجري قرب داره أو دكانه .

ونسى المسلم ان من الواجب عليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . ولست أرى طريقاً لتحقيق هذا الواجب إلا بالمساهمة بالانتخاب على صورة من الصور .

إن اللامبالاة التي يواجهها المسلم بها الانتخابات جعلت الانتخاب لعبة بيد الطغاة والمترفين والظلمة . ولو اشترك جميع الناس في الانتخاب بدافع من ضميرهم الديني لرأينا الظالمين يحرقون الأرم من جراء ما يشاهدون من قوة واعية في الجماهير .

لعلنا لا نقالي اذا قلنا إنه كلما نظر الناس في أمر الانتخاب نظراً جدياً وساهموا فيه مساهمة فعلية قلّ تدخل الطغاة فيه وصعب عليهم العبث به كما يفعلون في الوقت الحاضر .

إني أعرض هذا الرأي على رجال الدين ، واتحدّاهم أن يقبلوه أو يحرقوه . وأجسب أنهم لا يفهمونه ولا يستسيغونه لأن عقولهم طبعت بطابع الوعظ السلطاني . فهم لا يريدون أن يحرقوا الوعي الاجتماعي أو يشجعوه ضد أولياء أمرهم من السلاطين .

إني أخشى أن يتهمني وعاظ السلاطين مرة أخرى في أي استلهمت هذا الرأي من مصدر أجنبي وفي أي من أولي الآراء الغريبة أو الأفكار الهدامة .

فكل رأي جديد هو في نظر المترفين رأي هدام وهو مخالف لتراث الآباء والأجداد . إنهم يعتبرونه رأياً قد جاء به الغرباء حيث أرادوا به هدم دين الاسلام .

من الأحاديث المأثورة عن النبي انه قال : « بدأ الاسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغريباء من أمة محمد » (١) .
وتذكرني عبارة الغريب هذه ببحث البروفسور سمل عن « الغريب » . فالاسلام بدأ أول الأمر وهو متهم بأنه دعوة اجنبية غريبة . ثم بدأ أبو ذر بدعوته الاشتراكية بعد ذلك فاتهموه بأنه يدعو لمبدأ لقنه به شخص غريب .

* * *

وأبو ذر في الواقع كان شخصية غريبة . قال عنه النبي : « رحم الله أبا ذر ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده » (٢) .
ومما يلفت النظر أن نجد أبا ذر البدوي الوحيد الذي دخل الاسلام قبل الهجرة ، حين كان النبي معذباً مضطهداً .

والبدو في العادة لا يدخلون في دين لا قوة له . فهم مؤمنون بالقوة ويحتقرون الضعف بشئ أشكاله . ولذا وجدناهم يسخرون من النبي محمد أيام كان ضعيفاً مضطهداً . ولم يكد محمد ينتصر ويأخذ زمام القوة بيده حتى رأينا القبائل البدوية تدخل في دين الله افواجاً افواجاً .

ومن الغريب أن نجد بدوياً واحداً يشذ عن هذه القاعدة — هو صاحبنا أبو ذر . فهو قد اسلم قبل أن يلتقي محمداً . وهو قد لاقى

(١) انظر : عبد الرحمن بدوي ، شخصيات قلقة في الاسلام ، ص ٤٦

٢٠ انظر : عبد الحميد السحار ، أبو ذر الفقاري ، ص ١٥٨ — ١٠٦

من سخرية قومه في هذا السبيل عنتاً كثيراً .
يحدثنا عبد الله بن الصامت ان أبا ذر قال له : « لقد صليت ،
يا ابن اخي ، قبل أن ألقى رسول الله بثلاث سنين » . فسأله ابن
الصامت عن الوجهة التي كان يصلي نحوها . فأجابه أبو ذر : « حيث
وجهني الله عز وجل » ^(١) .

كان أبو ذر يشبه الأنبياء ، ولعله كان نبياً من طراز خاص .
فهذا الرجل يسبق البدو جميعاً بالتوجه لله ... ثم سبقهم بعد ذلك في
الثورة على المترفين .

إتهم أبو ذر المترفين بأنهم يزعمون : « ان يد الله مغلوله وان الله
فقير ونحن أغنياء » . فلاموه في ذلك فقال : « لو كنتم لا تزعمون ..
لأنفقتم مال الله على عباده » ^(٢) .

وغضب منه عثمان غضباً شديداً ، فقال لمن حوله : « أشيروا
علي في هذا الشيخ الكذاب ، إما أن أضربه أو أقتله ، فانه فرق
جماعة المسلمين ، أو أفنيه من ارض الاسلام ... » . فقال علي بن أبي
طالب وكان حاضراً : « أشير عليك بما قاله مؤمن آل فرعون :
فان يك كاذباً فعليه كذبه وإن يكن صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ،
إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب » . وقد غضب عثمان من
علي لجوابه هذا ، واتهمه بأنه هو الذي حرّض أبا ذر عليه في سبيل
اغراضه الخاصة ^(٣) .

(١) انظر : المصدر السابق ، ص ٤٦

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ١٥٧ . (٣) نفس المصدر والصفحة .

فند صبر عثمان أخيراً فأمر بنفي أبي ذر إلى الربذة ، وأمر بأن لا يشيعه أو يودعه أحد . والظاهر أن علياً لم يسمع بهذا المنع ، أو لعله سمع به وتغافل عنه . فخرج لتوديع أبي ذر يصحبه ولداه الحسن والحسين وأخوه عقيل وابن أخيه عبد الله بن جعفر . وكان مع هؤلاء في توديع أبي ذر رجل آخر ، غريب الأطوار أيضاً — هو عمار بن ياسر ^(١) .

يقال أن عثمان غضب على عمار بن ياسر لتوديعه أبا ذر فأمر بنفيه أيضاً . فجاء علي بن أبي طالب إلى عثمان يلومه في ذلك ، فهدده عثمان بنفيه إياه بالذات ... عند ذلك جاء نفر من كبار الصحابة فلاموا عثمان وقالوا له : « كلما غضبت على رجل نفيته . فإن هذا أمر لا يسوغ » . فكف عثمان عن علي وعن عمار ^(٢) .

كانت قضية أبي ذر ، على أي حال ، بمثابة الشرارة التي اندلعت منها الفتنة الكبرى في عهد عثمان . وكان عمر بن الخطاب يخشى أن تندلع تلك النار في عهده . فكان يداريها ويلطف منها ما استطاع إلى ذلك من سبيل . وقد تنبأ عمر ، كما رأينا ، بقرب اندلاع النار . ولو بقي عمر في قيد الحياة مدة أطول لربما رأينا منه أشياء كثيرة في سبيل القضاء على جنود تلك الفتنة أو للتلطيف منها على أقل تقدير .

(١) انظر : عبد الحميد السحار ، أهل البيت ، ص ٦٨

(٢) انظر : طه حسين ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٦٥

ويبدو ان عثمان لم يكن بذلك الرجل الحكيم الذي يستطيع أن يعمل شيئاً في هذا السبيل . كان عثمان رضي الخلق رؤوفاً عطوفاً شديد اللين والرحمة محباً لذوي قرباه . وهذه صفات تصلح لمؤمن قابع في بيته . إنما هي لا تصلح لرجل يدير دفعة السفينة في بحر شديد الموج .

لقد ظهرت في أيام عثمان ، كما اشار الدكتور طه حسين ، طبقة قوية من اصحاب الملكيات الضخمة ^(١) . وكان بازائها المحرومون من سواد الناس . وهذا أمر شديد الخطر . فهو بمثابة وضع برميل البارود قرب شعلة من النار ، سيما اذا كان في الناس وعاظ أفذاذ من طراز أبي ذر يثبون دعوة المساواة والعدالة الاجتماعية .

ارجع المؤرخون السبب الأكبر في تلك الفتنة الى عبد الله بن سبأ — ذلك اليهودي الطارئ الذي دخل في الاسلام يريد الكيد به .

قالوا عن ابن سبأ : انه قد ساءه انتشار الاسلام وانتصاره فجاء يريد تحطيمه على رؤوس اصحابه وقد نجح اللعين فيما اراد نجاحاً منقطع النظير .

الظاهر ان اصحاب الملكيات الكبيرة التي نشأت في أيام عثمان هالهم ذلك التدمير الذي انتشر بين الجمهور لآراء ثرواتهم المفرطة

(١) انظر : طه حسين ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٠٥ .

فنسبوا هذا التذمر الى شخص يهودي طارىء جاء يريد المكيدة بالاسلام وأهله . وكأنهم بذلك ارادوا تغطية السبب لأصلي في ثورة الغوغاء عليهم .

إن الأعمال العظيمة التي تنسب الى عبد الله بن سبأ لا يمكن أن يقوم بها إلا عبقرى أو ساحر أو منوّم مغناطيسي من طراز فذ . فهو لابد أن يكون ذا عيون مغناطيسية تكسر الصخور أو ذا قوة نفسية خارقة تجعل الناس امامه كالغنم يتأثرون بأقواله من حيث لا يشعرون .

ولو كان قد ظهر في أيام عثمان مثل هذا الرجل لوصل النيا وصفه على وجه من الوجوه . والغريب أننا لا نجد لابن سبأ ذكراً في المصادر المهمة التي قصّت أمر الخلاف على عثمان . فلم يذكره من المؤرخين سوى الطبري في رواية واحدة من رواياته هي رواية سيف بن عمر . ويبدو ان المؤرخين المتأخرين اعتمدوا في حكاية ابن سبأ على هذه الرواية وحدها ^(١) ، واخذوا يزوِّقون فيها ويستفيدون منها لأغراضهم المذهبية المتسوعة .

ومن المدهش أن نجد المذاهب الاسلامية على اختلاف انواعها تؤمن بحكاية ابن سبأ وتبني عليها كثيراً من آرائها .

ولست أجد في التاريخ حكاية وهمية تروج وتبقى على توالي الدهور مثل هذه الحكاية السخيفة . ولعل هذه الحكاية قد لامت

اغراض جميع المذاهب فتمسكوا بها وأخذوا يستندون عليها في كل وجه .

ورحم الله ذلك الداهية الذي اخترعها . فهو قد اخترع بها آلة فكرية لا تقل في فائدتها عن آلة الطنبور ، إذ يضرب عليه المبتهج والحزين ، ويتلذذ به الفقير والغني معاً .

يروى الشيعة حكاية ابن سبأ فيذمونهم وينسبون اليه كل نقيصة ويطعنون في سلوكه ^(١) . فهم يعزون اليه الغلو في تقديس علي بن أبي طالب أو تأليهه . ولعلمهم يقصدون بذلك أن يدرأوا عن انفسهم تهمة الغلو في علي . وهم يقولون إن علياً أحرق اصحاب ابن سبأ بالنار لغلوهم فيه ونفى ابن سبأ نفسه الى المدائن .

وعلى هذا فالشيعة ضربوا عصفورين بحجر واحد . فهم من جهة نزهوا إمامهم علي من حب الغلو فيه . وهم من الجهة الأخرى برهنوا على أنهم ليسوا من السبائيين الغلاة « لعنة الله عليهم » .

أما اهل السنة فقد استفادوا بدورهم من حكاية ابن سبأ استفادة كبرى . فهم يحبون الصحابة كلهم ، لا فرق في ذلك بين من أسلم قبل الفتح أو أسلم بعده . فهم يحبون مروان ومعاوية . وهم يحبون علياً وأباذر . وهم يحبون كل من صحب النبي ولو يوماً واحداً — كلهم في رأي اهل السنة اخيار ابرار رضي الله عنهم ورضوا عنه .

(١) انظر : محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٦ ص ٢٥١

وهنا تظهر لهم مشكلة كبيرة . فهؤلاء الصحابة تنازعوا وتشاتموا
وتقاتلوا وكفّر بعضهم بعضاً . فكيف يتقاتل الأخيار فيما بينهم يا ترى ؟
قال اهل السنة : ان السبب في هذا التقاتل هو اللعين ابن سبأ .
فهو الذي أثار الثورة على عثمان وهو الذي حرض الصحابة بعضهم
على بعض من حيث لا يدرون ، وهو الذي منع الصلح بينهم حين
كان الصلح وشيكاً ...

ولذا نجد ابن سبأ قد تحمل اوزار العالمين جميعاً . ولو كان ابن سبأ
شخصاً حقيقياً لكثير بكاؤه واعتراضه على هذه التهم التي تكال له
وهو نائم . فكل مكسورة ترمى عليه — كما يقول المثل الدارج .

* * *

قلنا آنفاً ان كل حركة اجتماعية جديدة تُتهم أول الأمر بأنها
من صنع الأجانب والزنادقة ، فاذا نجحت واستولت على الحكم
صارت من صلب الدين ودخلت في سجل المقدسات الموروثة .

فلو ان الحركة الاشتراكية التي دعا اليها أبو ذر نجحت لأصبح
أبو ذر في تاريخ الاسلام من اعظم الرجال ولعدّه المؤرخون من
الحكماء اصحاب النظر البعيد والرأي السديد .

فشل أبو ذر في حركته لسوء الحظ فأصبح في نظر الكثير
من الناس مهوساً أو مغفلًا أو خارجياً .

مات أبو ذر منفياً منكوباً . فلم يبق ذكره إلا في قلب علي بن
أبي طالب وعمار ومن لف لفهما . ولو أنه مات منتصراً لرأينا

بغداد تسمى اليوم « بلد أبي ذر » بدلاً من بلد الرشيد .
إنها طبيعة الدنيا . وقد وصفها علي بن أبي طالب بقوله : « اذا
اقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره ، واذا ادبرت عنه سلبته
محاسن نفسه » (١) .

ومن المؤسف ان نجد الناس ، وفيهم المفكر والحكيم
والفيلسوف ، ينصرفون مع الدنيا فيحكمون على الأشخاص بما تحكم
هي عليه . فرب صدقة صنعت بانسان الى اوج المعالي فجاء الناس من
بعد ذلك ينسبون اليه كل حسنة ، ويعدون نجاحه ناشئاً عن بعد
نظره ورجاحة عقله . ولو حققنا في الأمر لوجدنا ذلك الانسان قد
ساعده الحظ فنجح في معركة أو مات عدوه فتغلب عليه . لكنه
ارتفع رغم ذلك في اعين الناس واصبحت كل سيئاته حسنات .
وقد يفشل الانسان العظيم احياناً من جراء مصادفة سيئة طرأت
عليه ، فيأخذ الناس عند ذلك بالبحث عن عيوبه ، حيث يعززون
فشله الى سوء نيته أو ضعف تفكيره . وقد يقولون عنه انه كان
عميلاً مأجوراً من عملاء الأجانب .

لينظر القارئ الى الحركة العباسية مثلاً . لقد قام بها الفرس
وحاربوا دولة العرب ، فانتصروا بحركتهم هذه انتصاراً حاسماً .
وجاء المؤرخون بعد ذلك يقولون عنها : انها كانت ثورة عظمى
في سبيل ارجاع الدين الى نصابه واحياء سنة الرسول .

(١) انظر : محمد عبده ، نهج البلاغة ، ج ٣ ص ١٥٣

ولنفرض ان هذه الحركة التي قام بها الفرس لم تنجح . ولم يكن من المستبعد أن ينتصر مروان الحمار على جيش بني العباس في وقعة الزاب ، ويقضي على الحركة في مهدها .

ولو حدث هذا لرأينا المؤرخين يقولون عنها : انها كانت حركة مجوسية جاءت للقضاء على الاسلام .

لقد ظهرت حركات فارسية عديدة بعد الحركة العباسية فقضى عليها العباسيون ، وقتلوها في مهدها . فصارت في نظر المؤرخين حركات إلحادية غايتها هدم الاسلام وإحياء المجوسية (١) .

* * *

وقد شاهد التاريخ الحديث شيئاً كثيراً من هذه التهم التي تسكال لكل مجدد أو ثائر .

وليس بعيد عنا ذلك اليوم الذي نهض فيه العرب يطالبون بحقوقهم من الخاقان ابن الخاقان — سلطان المسلمين . فقد اتهم العرب آنذاك بأنهم دعاة تفرنج وزندقة وانهم يريدون أن يشقوا عصا الطاعة على خليفة الله في ارضه .

وعندما انعقد المؤتمر العربي في باريس عام ١٩١٣ قال العثمانيون بأنه كان مؤتمر الجواسيس ووكلاء الافرنج ونظم المرحوم الرصافي في ذلك شعراً لا يزال محفوظاً في بطون الكتب (٢) .

(١) سبحت هذا بأسباب في كتابنا القادم « الحركات الاجتماعية في الاسلام »

(٢) انظر : ديوان الرصافي ، قصيدة « ما هكذا » .

قال الرصافي يصف المؤتمر العربي :

إذ راح يستنجد الافرنج منتصفاً
كأنه حملٌ يستنجد الدنيا

لو كان في غير باريز تألبهم
ما كنتُ أحسبهم قوماً مناكياً (١)

فالرصافي يتهم القوميين من العرب في ذلك العهد بأنهم يستلهمون دعوتهم من الافرنج . والرصافي لا يلام في هذا . فقد كانت هذه التهمة آنذاك مألوفة تتداولها الأفواه في أرجاء الدولة العثمانية .
وأخيراً .. قضى على الدولة العلية وذهب سلطان المسلمين الى رحمة ربه . فأصبح الجواسيس ابطالاً وصعدوا الى أوج المعالي .
فلو ان الدولة العلية خرجت منتصرة من الحرب ، لرأينا معروف الرصافي يصبح شاعر الاسلام تزين صدره الأوسمة الرفيعة ، ولذهب الجواسيس الى القبور .

والآن بعد أن انتصر المطالبون بحقوقهم اخنوا يغمطون الحقوق بدورهم . إنها دورة الفلك — يصعد النازل فيها وينزل الصاعد .
كانوا ثواراً فأمسوا جلاوزة . وجاء الصعاليك يطالبونهم بالحقوق المغموطة .



إن عبد الله بن سبأ موجود في كل زمان ومكان . فكل حركة
جديدة يكن وراءها ابن سبأ . فان هي نجت اختفى اسم ابن سبأ
من تاريخها واصبحت حركة فضلى . أما اذا فشلت فالبلاء نازل على
رأس ابن سبأ .. وانهاالت الصفعات عليه من كل جانب .

إن ابن سبأ لا يهدأ على كل حال . فهو دائم ينتهر الفرص
في كل سبيل .
وما دام الظلم موجوداً فان كل انسان يُحتمل أن يكون سبأياً —
والعياذ بالله .



الفصل السادس

قریش

ذكرنا في فصل سابق أن الواعظين دأبوا على تصنيف رجال التاريخ الى صنفين متعاكسين : أخيار وأشرار . وهم قد اعتادوا على نسبة كل مثالب الدنيا الى صنف الأشرار ، وكل فضائلها الى صنف الأخيار .

وتراهم يزجرون اذا جئتهم بخبر يخالف هذا التصنيف الثنائي . فالخير من رجال التاريخ لا يفعل في نظرهم إلا خيراً — طول حياته . وكذلك الشرير هو عندهم شرير في جميع افعاله من أولها الى آخرها . وهذا التصنيف الثنائي ، كما قلنا ، تصنيف غير واقعي . فالإنسان في الواقع مزيج من الشر والخير ، إذ لا يسلم أي إنسان من افعال صالحة وافعال طالحة . والفرق بين الناس في هذا هو فرق نسبي ، أو هو كما يقول اصحاب المنطق الحديث : فرق بالدرجة لا بالنوع . والإنسان الذي يخلص من كل عيب هو ملاك .. لا إنسان . ومن يجعل بعض بني آدم من نوع الملائكة إنما هو خادع أو مخدوع ...

إن الخير والشر أمران اعتباريان . وكل إنسان ينظر فيها بمنظاره الخاص وقيسهما حسب المقاييس التي نشأ عليها وعرفها . والملاحظ أن كل إنسان يدعي أنه أقرب الى الحق والخير من غيره ..

إن النزاع بين البشر ليس نزاعاً بين الخير والشر كما يتوهم الوعاظ . إنما هو بالأحرى نزاع بين اعتبارين مختلفين للخير ^(١) . فكل فريق يرى الخير من جانبه ويتعصب له ويسأل الله أن يرزقه الشهادة في سبيله .

ومما يؤسف له أن نجد مؤرخينا يسلكون مسلك الواعظين في تصنيفهم الثنائي لرجال التاريخ . فهم يدرسون رجال التاريخ على اعتبار أن قسماً منهم محق والقسم الآخر مبطل . وتراهم لذلك يحتكرون جميع خصال الخير للقسم الأول ، وجميع خصال الشر للقسم الثاني . وإذا سمع أحدهم خبراً يشير إلى وجود شيء من الشر في أحد أصحاب الحق ، مط شفتيه مكابرةً وعناداً وجزم بأن الخبر مكذوب من أساسه .

وبهذا يصبح عقل المؤرخين كالغربال لا يأخذ من الأخبار إلا ما يلائم مقياسه الخاص في الخير والشر .

ومن يطلع على التاريخ الإسلامي يجد كل طائفة من المسلمين تملك صورة خاصة من التاريخ تختلف عن ما يملك غيرها منه . فكل طائفة لديها مقاييس اعتبارية جاءت من عقائدها الدينية . وهي إذن تطبق هذه المقاييس على حوادث التاريخ ورجاله . فما لائم تلك المقاييس أخذته وما خالفها رفضته .



أشرنا في فصل سابق الى أن اصحاب النبي كانوا بشراً مثل غيرهم من الناس ، تحذو بهم مصالحهم ، وتؤثر في سلوكهم العقد النفسية والقيم الاجتماعية . فهم لم يكونوا ملائكة معصومين من الذنوب . هذا ولكن المؤرخين سألهم الله احاطوا اخبارهم بهالة من القدسية لا ينفذ اليها العيب . فكل خبر يشين من منزلتهم العالية أو لوه وعلاوه حتى صار فضيلة لا مرأه فيها .

أما اعداؤهم فقد نالوا من هذه الغربة التاريخية حيفاً كبيراً ، إذ أنهم اصبحوا في نظر المؤرخين كتلة متماسكة من الشر الذي لا ينفذ اليه الخير ابداً .

فالمؤرخون ينسبون الى أبي جهل مثلاً كل عيب ونقيصة ويحجروونه من كل فضيلة . بينما هم يأتون الى أقرانه الذين ساعدوا الحظ فأسلموا في اللحظة الأخيرة فينزّهونهم عن كل نقيصة ، ويضفون عليهم هالات الشاء .

إن الفرق بين أبي جهل وغيره من نبلاء قريش ، في السلوك وتركيب الشخصية ، لم يكن كبيراً . فمعظمهم كانوا من الطبقة المرابية التي تستغل الضعفاء وتتعالى على الناس . إنهم كانوا من طينة واحدة . وقد يختلف بعضهم عن بعض بشيء من الصفات . لكنه على أي حال اختلاف بالدرجة لا بالنوع — كما يقول اصحاب المنطق الحديث ،

فن سوء حظ أبي جهل انه قتل في معركة بدر ، في صفه

المشركين ، فقال بذلك لعنة الأبد . ولو أن الصدفة ساعدته كما ساعدت غيره فنجى من تلك المعركة ثم بقي الى يوم الفتح فأسلم ، لصار من كبار الصحابة أو القواد الذين رفعوا راية الاسلام ونصروا دين الله .

إنها مسألة صدفة . والصدفة تلعب بمقدرات الرجال لعباً هائلاً . وهذا أمر نشاهد مصداقه يجري أمام أعيننا كل يوم . أما المؤرخون فهم ينظرون في الأمر نظرة مثالية خالصة لا تستند على أساس من الواقع . فلا يكاد الرجل يلاقي محمداً وينطلق بين يديه بكلمة الشهادة حتى تنقلب طبيعته انقلاباً كلياً ويصبح خيراً بعد ما كان شراً .

إن هذا أمر يناهز ما نعلمه من نوااميس الطبيعة البشرية . فالإنسان لا تتغير أخلاقه بمجرد أن ينتمي الى دين أو يدخل في حزب . ولا تغير العقيدة أخلاق الناس إلا قليلاً .

ونحن نشاهد الناس في أيامنا هذه يعتقدون مختلف العقائد والآراء وتبقى أخلاقهم كما هي لا يحصل فيها شيء من التبديل أو التغير . والمؤرخون يعتقدون أن البشر قديماً كانوا على غير ما نحن عليه اليوم . وهذا خطأ فاحش . فالناس كالناس — قديماً وحديثاً . وما نرى في أهل هذا العصر من أخلاق يمكن أن نرى مثيله في أهل العصور السالفة .

إن كثيراً من الرجال ، الذين كانوا مع أبي جهل يحاربون

الاسلام ويضطهدون أتباعه ، دخلوا الاسلام أخيراً فأصبحوا من
الأخيار . وفتح الله على أيديهم في موقعة من المواقع الحربية التي
خاضها الاسلام فصاروا في نظر المؤرخين أبطالاً من أبطال الدين
واعلاماً من اعلام الهدى والرشاد .

ولو أن سهماً طائشاً اصاب احدهم في موقعة من المواقع التي
حارب بها محمدآ في أول الأمر ، لو جدناه اليوم ملعوناً ومأواه جهنم ...
إن من أرفع الأخطاء التي يقرها المؤرخون هو أنهم يتصورون
المسلمين الأولين انقلبوا اختياراً بعد أن كانوا اشراراً — فجأة
واحدة . إنهم اغفلوا بهذا مفهوم الشخصية البشرية .

فليس من المعقول أن ينقي الانسان قلبه فجأة من العقد النفسية
والقيم الاجتماعية ، ويصبح ملاكاً طاهراً بمجرد قوله : لا إله
إلا الله ...

قال النبي محمد : « الناس معادن ، خيارهم في الجاهلية خيارهم
في الاسلام » (١) . ولعله كان يقصد بهذا القول ان الشرير الظالم
العاني لا ينقلب خيراً تقياً بمجرد دخوله في الاسلام . فهو قد يبقى
ظالماً عاتياً واسكنه يطلي ميوله الظالمة بطلاء من الصوم والصلاة ، أو
من التسييح والتكبير .

يقول البروفسور غوين في بحثه عن الدين المسيحي : إن هذا

الدين فسد عند ما دخل فيه الامبراطور قسطنطين ومن معه من القواد والأمرء والجلالوزة . فالدين المسيحي كان قبل ذلك ديناً مضطهداً ، وكان بذلك ديناً يدعو الى الرحمة والتقوى والخير . أما بعد أن أصبح دولة يحميه الأمرء والقواد فقد انقلب الى نظام للطغيان وسفك الدماء ، ونزع عنه ثوب الطهارة والتقوى والخير^(١) . وقد نظم دانتي ، الشاعر الايطالي المشهور ، في هذا شعراً فقال :
 إيه يا قسطنطين .. إن اعتناقك المسيحية انتج من الشر شيئاً كثيراً ... فلقد جعلت المسيحيين الأولين ، بنصرك ايام ، مترفين !^(٢)

إن من الجائز أن نقول عن دين محمد ما قال البروفسور غوين عن دين المسيح . فدخل قريش ، تلك القبيلة المرابية الطاغية ، في الاسلام أدنى الى فساد الاسلام والى سلوكه سبيل الترف والطغيان . كان الاسلام في بدء أمره ، ثورة كبرى على طغيان قريش — كما كانت المسيحية ثورة على طغيان القياصرة .

إن دخول قريش في الاسلام أفاده من ناحية وأضر به من ناحية أخرى . فقريش جعلت من الاسلام دولة فاتحة منتصرة تعنو لها الرقاب . ولكنها جعلت منه في الوقت ذاته نظاماً للطغيان والفتح لا يختلف عما شهدنا من قبل في نظام القياصرة والأكسرة .

* * *

حاربت قريش النبي محمداً حرباً لا هوادة فيها ، واضطهدت
اتباعه اضطهاداً قاسياً . يقول المؤرخون : انها حاربت محمداً من
أجل آلهتها . والواقع انها حاربت من أجل مصالحها ومنزلتها الطبقية
وكرامتها القبلية . إنها ظننت بأن الدين الجديد سوف يقضي على
الكعبة وعلى الحج وعلى الأسواق والتجارة .

كانت قريش القبيلة التجارية الوحيدة بين قبائل العرب كلها .
فكانت تشجع الحج وترعى الأسواق الأدبية والتجارية التي كانت
تقام في موسم الحج . فذالت بذلك ثروة طائفة ومنزلة اجتماعية عليها .
يقول الزمخشري : « كانت لقريش رحلتان ، يرحلون في الشتاء
الى اليمن ، وفي الصيف الى الشام ، فيمتارون ويتجرون . وكانوا
في رحلتهم آمنين ، لأنهم أهل حرم الله وولاية بيته ، فلا يُتعرض
لهم ، والناس غيرهم يُتخطفون ويُغار عليهم ... » (١)

ومعنى هذا أن الحج كان مغنماً اجتماعياً واقتصادياً لقريش ،
تنتفع به في تدعيم تجارتها وفي اعزاز شرفها بين القبائل .
جاء النبي محمد أخيراً يسب او ثائن الكعبة ويصلّي باتجاه بيت
المقدس . فرأت قريش في ذلك خطراً كبيراً على مصلحتها ومنزلتها .
فحاربت الدين الجديد حرباً عنيفة من أجل ذلك .

(١) انظر : أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ١٤

استطاع محمد في النهاية أن يُدخل قريشاً في دينه الجديد ، وساعده في هذا أمور ثلاثة :

(١) حوّل محمدُ القبلة من جهة القدس الى جهة الكعبة . ثم سَنَّ لاتباعه الحج الى الكعبة باعتبار أنها بيت الله . فأصبح هدف محمد القضاء على اوثان الكعبة فقط . أما الكعبة ذاتها فبقيت مصونة مقدسة لديه .

(٢) شرع محمد لاتباعه شرعة الحرب واشهار السيف دفاعاً عن الدين . وقد أدت هذه الشرعة الجديدة الى انتصاره على قريش انتصاراً حاسماً . فالتفتت اليه انظار القبائل البدوية واخذت تند اليه افواجاً افواجاً .

(٣) اخذ محمد يتألف رؤساء قريش ويجذبهم الى جانبه بشتى الوسائل . فقد صار يسميهم « المؤلفة قلوبهم » ويعطيهم من الغنائم حصة كبرى ويعيّنهم في المناصب الجديدة والقيادات .

عند ما فتح محمد مكة جاء الى الكعبة فخطم اوثانها في نفس الليلة التي تلت يوم الفتح . واستيقظت قريش من نومها في الصباح التالي فوجدت اوثانها المقدسة مهشّمة في التراب بشكل مزير . فلم تكثرث لهذا المنظر الهائل ، ودخلت في الدين الجديد فوراً .

إن من المدهش حقاً أن نجد قوماً يحاربون النبي نيفاً وعشرين سنة من أجل اوثانهم ثم يرونها فجأة مطروحة في التراب وهي مهشّمة ، فلا يزالون ولا يحزنون .

إن هذه ظاهرة عجيبة . وهي تشير الى أن قريشاً لم تكن مخلصه
لأوثانها في محاربتها محمداً . إنها كانت بالأحرى مخلصه لمصلحتها
وكرامتها . فلما وجدت مصلحتها مصونة وكرامتها موفورة في الدين
الجديد ، تركت آلهتها حالاً وانضمت الى صفوفه ...

* * *

لقد كان من سوء حظ الدين الجديد أن مؤسسه مات في إبان
انتصاره . وقد يصح القول إن محمداً لو كان باقياً على قيد الحياة
مدة أطول لوجدنا قريشاً تتبع طريقاً آخر غير الطريق الذي
اتبعته بعد موت النبي .

لا نكران أن محمداً أَلَفَ قلوب القرشيين بالأموال . ولكننا
لا ندرى ماذا كان يصنع بهم بعد ذلك . إن شخصية محمد كانت
بعيدة الغور ثاقبة البصر — من طراز فذ عجيب . ولعله كان ينوي
أن يجذبهم الى الدين أول الأمر ثم يروضهم على تعاليمه أخيراً .

لقد كان موت محمد في تلك السن المبكرة خسارة للإسلام
لا تعوّض . وأحسب ان أحداً لم يشعر بتلك الخسارة الفادحة على
حقيقتها . فقد بكى المسلمون محمداً بكاءً لا ريب فيه . ولكن أمر
الخلافة أشغلهم فجعلهم ينسون أهمية فقدته بعض النسيان .

* * *

جاء الى الخلافة صاحب النبي المفضل ، أبو بكر . وكان هذا
الرجل من قريش ، لا مراة في ذلك . ولكنه كان ذا شخصية

لا تشابه ما كان معروفاً عن القرشيين من كبرياء وطفيان وقسوة .
كان أبو بكر متواضعاً لين الجانب ، فلم يتعال على أحد قط
في جاهلية أو اسلام ^(١) . وهذه صفة قلما نجد لها مثيلاً بين أقرانه
من القرشيين . وكان أبو بكر أول رجل من شرفاء قريش دار
بالاسلام ^(٢) .

وإني لأظن بأن أبا بكر كان يضر لقبيلة قريش شيئاً من
الكرهية ، وذلك لما كان بين مزاجه ومزاجهم من تباين . فهم
متكبرون يصعرون خدودهم على الناس ولا يراعون لمن دونهم
من الناس حرمة ولا تأخذهم رحمة . أما هو فكان ، كما وصفته
ابنته عائشة ، غزير الدمعة حزين القلب أسيفاً ^(٣) .

أرسل اليه عمرو بن العاص برأس قائد من قتلى الأعداء أثناء
غزوه طريق الشام . فأنكر أبو بكر ذلك أشد إنكار . وحاول
أحد اصحابه أن يخفف عليه الأمر فقال عن الأعداء : « انهم يصنعون
ذلك بنا » فقال أبو بكر : « أيستنون بفارس والروم ؟ لا يحمل
إلي رأس ... » ^(٤) .

ولو قارنا هذا بما صنع القرشيون بعد ذلك من حمل للرؤوس
وسبي للنساء وانتهاك الحرمات لرأينا تبايناً في المزاج كبيراً .

(١) انظر : عباس العقاد ، عبقرية الصديق ، ص ٤٣

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ١١٣

(٣) انظر : المصدر السابق ، ص ٤٥

(٤) انظر : المصدر السابق ، ص ١٠٧

والظاهر أن قريشاً كانت تبادل أبا بكر العداء والكراهية .
فعندما تولى أبو بكر الخلافة غضب خالد بن الوليد وغضب أبو سفيان ،
وهما ، كما لا يخفى ، من رؤساء قريش .

جاء خالد الى علي بن أبي طالب يثيره على أبي بكر قائلاً :
« يا أبا الحسن .. يا بني عبد مناف .. أغلبتم عليها ؟ » فأجابه عليّ :
« أمغالبه ترى أم خلافة ؟ ! » (١) .

وغضب أبو سفيان ايضاً من خلافة أبي بكر واعتبرها نكسة
على قريش . والظاهر أن قريشاً كانت تعتبر أسرة أبي بكر من
الأسر المستضعفة في قريش .

جاء أبو سفيان الى عليّ والعباس يستثيرهما ويقول : « يا علي ..
وأنت يا عباس .. ما بال هذا الأمر في أذل قبيلة من قريش وأفلها ؟
والله لو شئت لأملأنّها عليه - عليّ أبي بكر - خيلاً ورجلاً وأخذنّها
عليه من أقطارها » . فأجابه عليّ جواباً يشبه من بعض الوجوه
جوابه لخالد بن الوليد (٢) .

من المحتمل جداً أن يكون أبو سفيان في دخيلة نفسه حاقداً على
الاسلام كارهاً له ، فليس من السهل على أبي سفيان أن ينسى
كفاحه الطويل ضد محمد . وليس من المستبعد أن تكون قد نشأت
في عقله الباطن عقدة نفسية ضد الاسلام واهله . والعقدة اذا

(١) انظر : بشير بموت ، الفاروق ، ص ٣٦

(٢) انظر : عباس العقاد ، أبو الشهداء ، ص ٢٥ — ٢٦

تكونت في النفس صعب زوالها في مدة قصيرة .

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد : « وظل أبو سفيان الى ما بعد اسلامه زمنًا يحسب غلبة الاسلام غلبة عليه » ^(١) . وهذا قول لا يخلو من صواب . فالرجل الذي يحارب حزباً من الأحزاب نيفاً وعشرين سنة حرباً لا هواة فيها ، يصعب عليه أن ينسى ذلك حالماً يُقسر على الدخول فيه .

شاهد أبو سفيان جيوش المسلمين وهي تدخل مكة فاتحة فقال لصديقه العباس بن عبد المطلب : « والله يا أبا الفضل .. لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً » ^(٢) . فهو يظن أن محمداً طالب ملك وقد نجح في طلبه .

إن القيم المدفونة في اللاشعور لا تزول بسرعة ، ولعلها تبقى في الانسان حتى ساعة الموت . فأبو سفيان كان يتصور بأن محمداً منافس له في طلب الرئاسة على العرب . ولا شك انه تألم عند ما غلبه منافسه في ذلك .

نظر أبو سفيان الى النبي ذات يوم نظرة الحائر المتعجب ، وهو يسأل نفسه : ليت شعري بأي شيء غلبني هذا الرجل ؟ فلم يخف على النبي معنى هذه النظرة ، وأقبل عليه حتى ضرب يده بين كتفيه وقال : « بالله غلبتك يا أبا سفيان ! » ^(٣) .

(١) انظر : المصدر السابق ، ص ٢٤

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ٢٣

(٣) انظر : المصدر السابق ، ص ٢٤

يقال إن أبا سفيان كان يود من صميم قلبه أن ينهزم المسلمون في واقعة حنين التي تلت فتح مكة . ذكروا أنه هتف عند ما رأى المسلمين ينهزمون أول الأمر وقال : « ما أراهم يقفون دون البحر »^(١) . ولعله كان يود أن يُرمى المسلمون في البحر بعد هزيمتهم تلك . وعند ما وقعت معركة اليرموك كان أبو سفيان يهتف لجيوش الروم ، ويود أن تنتصر على جيش غريمه محمد^(٢) .

ونحن لا نستبعد هذا سيما إذا علمنا أن أبا سفيان كان ذا قيم بدوية تعز بتمجد الفرد والعائلة أكثر مما تعز بتمجد دين أو انتصار مبدأ . ومن يطلع على عادات العشائر العربية في الوقت الحاضر يجد على هذا أمثلة كثيرة . فالفرد العشائري يذبح الأنبياء والأولياء في سبيل أن لا تهان كرامته أو كرامة عائلته . إنه مسلم في عقله الظاهر بدوي في عقله الباطن — كما أشرنا الى ذلك من قبل .

أوصى أبو بكر بالخلافة من بعده الى عمر . وعمر هذا كان أكثر من أبي بكر كراهة لقريش وحنفاً عليها . وقد كرهته قريش وكرهت خلافته . يتضح هذا من الحديث الذي أدلى به أبو بكر الى ابن عوف ، أحد أغنياء قريش ، أثناء مرضه الذي توفي فيه . قال أبو بكر : « ... ما لقيت منكم أيها المهاجرون أشد عليّ من

(١) انظر : نفس المصدر .

(٢) انظر : نفس المصدر .

وجعي . إني ولّيت أمركم خيركم في نفسي ، فكلّكم ورم أنفه أن يكون له الأمر دونه . ورأيت الدنيا قد اقبلت ، ولما تقبل ، وهي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج ، وحتى يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذربي كما يألم أحدكم إذا نام على حسك السعدان . والذي نفسي بيده لئن يقدم أحدكم فيضرب عنقه في غير حد خير له من أن يخوض غمرات الدنيا . ثم أنتم غداً أول ضالّ بالناس يميناً وشمالاً . لا تضيعوهم عن الطريق : يا هادي الطريق جرت ! » (١) .

إن قريشاً قد ساءها في أول الأمر أن يتولى أمورها رجل من أسرة تيم ، ولعلها امتعضت أن يتولى بعده رجل من عدي . وكلتا الأسرتين لم يكن لهما شأن في أيام الجاهلية .

من أوائل الأمور التي قام بها عمر بعد توليه الخلافة أنه كتب كتاباً مستعجلاً يعزل به خالد بن الوليد عن قيادة الجيوش الإسلامية . خاض المؤرخون في تعليل هذا العزل المفاجيء الذي لم يكن له سبب ظاهر ، سيما عندما وجدوا جيوش المسلمين في تلك الآونة محتاجة الى قائد مدرب كخالد يقودها ضد جيوش الروم الهائلة . أرجح الظن عندي ان عمر كان يكره أن يولّي احد اشرف قريش السكبار أمراً هاماً من أمور المسلمين . وربما خاف عمر منهم أن يفتوا الناس .

كلّ عمر يتهم اشراف قريش بأنهم لا يخلصون في الجهاد
للاسلام ولا يعرضون أنفسهم للموت في سبيله . يقال ان خالد بن
الوليد رأى عكرمة بن أبي جهل مصروعاً في إحدى معارك الشام ،
فوضع رأسه على فخذه واخذ ينظر اليه ويقول : « زعم ابن حنمة
أننا لا نستشهد ! »^(١) وكان خالد يقصد بابن حنمة عمر بن الخطاب
امتهاناً له .

يقول الطبري : ان قريشاً ملّت عمر بن الخطاب فهو قد
حصرها بالمدينة ومنع عليها التجوال في الأمصار ، وقال بصريح
العبرة : « ... ألا ان قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات
دون عبادة . ألا فأما وابن الخطاب حيّ فلا ! إني قائم دون شعب
الحرّة أخذ بحلّاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار »^(٢) .
وكان عمر معروفاً بحبه للأعراب . وقد أوصى بهم خيراً عند
وفاته وقال عنهم انهم « مادة الاسلام »^(٣) . ومعنى ذلك انه كان
ينظر اليهم نظرة مخالفة لما كانت قريش تنظر بها اليهم . فقريش
كانت في ذلك العهد تتعالى على الأعراب ، كما سيأتي بيانه . وكانت
تعتبر نفسها قوام الاسلام وأساسه الذي بني عليه^(٤) .

كان المسلمون في عهد عمر طبقتين : طبقة عليا مؤلفة من

(١) انظر : طه حسين ، الفتنة الكبرى ، ج ١ ص ٨٣

(٢) انظر : المصدر السابق ، ج ١ ص ٧٩

(٣) انظر : بشير يموت ، المصدر السابق ، ص ١٨٤

(٤) انظر : الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٥ ص ٨٦

أشراف قريش^١، وطبقة سفلى مؤلفة من سواد الأعراب أبناء القبائل البدوية. أما الأعاجم فلم يكن لهم شأن في ذلك الحين. إذ لم يكن قد دخل منهم عدد كبير في الاسلام آنذاك.

ومن الغرائب التي قام بها عمر انه حين عمار بن ياسر والياً على الكوفة^(١). وعيّن سلمان الفارسي والياً على المدائن^(٢). وهذان الرجلان من الموالي إذ سبق أن كانا من العيد قبل ظهور الاسلام. ونحن نسمع اليوم بهذا الخبر فلا نهم له. ولكنه كان في غاية الأهمية يومذاك سيما في نظر قريش. فليس من الهين على قريش أن ترى عبداً من عبيدها السابقين يتولى عليها ويحكم مصرّاً من اكبر الأمصار الاسلامية.

يقال إن أبا سفيان وسهيل بن عمرو وجماعة من كهراء قريش وقفوا بباب عمر يستأذنون في الدخول عليه. فلم يأذن لهم وأذن لبلال وصهيب وهما موليّان فقيران. فتورّم أنف أبي سفيان من هذه المهانة وقال محنقاً: «لم أر كالיום قط. يأذن لهؤلاء العيد، ويتركنا على بابهم!»^(٣).

ومما يضحك أن عمر أمر بمعاكمة خالد بن الوليد على ما كان يهيب الشعراء من جوائز على طريقة قريش القديمة. وقد سئل خالد

(١) انظر: سيد قطب، المصدر السابق، ص ١٦٢

(٢) انظر: عبد الرحمن بدوي، المصدر السابق، ص ٢٥

(٣) انظر: سيد قطب، المصدر السابق، ص ١٦٢

اثناء المحاكمة عن تلك الهبات : أهي من ماله أم من مال المسلمين ؟ فسكت خالد . فقام اليه بلال الحبشي فتناول عمامته ونفضها ثم شدّها بها ، وخالد لا يمنع . . (١)

إن هذا أمر يسهل علينا تصويره الآن ، بعد أن أصبح بلال في نظرنا قديساً عظيماً . أما في ذلك العهد فكان أمراً هائلاً تنخلع له القلوب ، حيث قام عبد أسود الى بطل من ابطال قريش وزعيم من زعمائها فيأخذ عمامته من على رأسه ويعقله بها وهو لا يتكلم ولا يمانع .

ولم يكتف عمر بهذه الاهانات التي وجهها الى قريش إذ سلط عليها عبيدها السابقين . إنه فعل شيئاً آخرأ أدهى منه . ذلك أنه أبطل نصيب « المؤلفة قلوبهم » من الفى ، وحرم قريشاً بهذا من عطاء كانت تنعم به في ايام النبي وايام خليفته أبي بكر .

إن نصيب « المؤلفة قلوبهم » المذكور في القرآن ومفروض فيه حيث لا يجوز أن يعث به عابث . لكن عمر لم يبال بهذا . فلقد نسخ أمراً صريحاً جاء به القرآن احتقاراً لقريش وإضراراً بها . وقال عمر تبريراً لعمله هذا : ان رسول الله كان يعطيهم يوم كان الدين ضعيفاً محتاجاً الى نصرهم ، أما اليوم فقد أصبح الدين قوياً لا يحتاج الى تأليف قلوبهم أو استرضائهم .

ومن الغريب أن نجد عمر ينسخ آية من القرآن ولا يبالي .

(١) انظر : عباس العقاد ، داعي السماء ، ص ١٣٣

ولو فعل أحد مثل هذا الفعل في عصرنا هذا لثار عليه رجال الدين من كل حذب وصوب . إن عمر نظر في ذلك الى مصلحة الاسلام . فهو لم يتقيد بالشكليات أو يتمسك بحرفية الدين كما يفعل اصحابنا من رجال الدين في هذه الأيام (١) .

الظاهر أن عمر بن الخطاب كان يكره قريشاً وتكرهه قريش منذ بدء الدعوة . وقد أشار عمر نفسه الى هذه الكراهية المتبادلة يوم الحديبية حين اراد النبي أن يرسله سفيراً الى قريش . قال عمر : « يا رسول الله .. اني أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني . وقد عرفت قريش عداوتي اياها وغلظتي عليها . ولكنني أدلك على رجل أعز بها مني : هو عثمان بن عفان » (٢) .

فاذا كان عمر يغلظ على قريش ويعاديها في أيام محمد فليس من الهين عليه أن ينسى تلك العداوة نسياناً تاماً ، أو تنساه قريش ، أثناء خلافته .

ومما تجدر الإشارة اليه في هذا الصدد أن عمر كان يميل الى علي

(١) شاهدنا ذلك منهم بجلاء في أمر الغاء الوقف الدرّي . والوقف الدرّي عجيبة بدوية تنافي روح الاسلام . هذا ولكن رجال الدين لا يعرفون من دينهم غير الحرفيات والشكليات ، وينسون هدف الدين الأصلي .

(٢) انظر : محمد حسين هيكل ، المصدر السابق ، ص ٣٤٠

بن أبي طالب كل الميل . وعليّ هذا كان من أثقل خلق الله على قريش وابعضهم . فقد كان عليّ يكره قريشاً وتكرهه قريش كرهاً لا حدّ له — كما سيأتي بيانه .

اتخذ عمر عليّاً مستشاراً له . يقول سعيد بن المسيب ان عمر كان يتعوّذ من معضلة ليس لها أبو الحسن يعني عليّاً (١) .

وتزوج عمر من أم كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب . فحال ذلك قريشاً وظنوا انه سيوليه الخلافة من بعده رغم آناهم (٢) .

ومن المحتمل أن عمر كان يهوى أن يوصي بالخلافة من بعده الى عليّ بن أبي طالب . ولعله لم يفصح عن هواه هذا خوفاً من كيد قريش .

إن قريشاً كانت تكره أن تصير الخلافة الى عليّ أو الى أحد من بني هاشم . وقد أشار عمر الى هذا إذ تحدّث به الى عبد الله بن عباس قائلاً ما معناه : ان قريشاً كرهت أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتبأوها بهما عليها (٣) . والظاهر أن قريشاً كرهت بني هاشم منذ وقفوا بجانب محمد في بدء الدعوة وأبوا أن يتخلوا عنه .

كانت قريش تريد أن تصير الخلافة الى عثمان . فهو ينتمي الى اكبر بيت في قريش : هو بيت أمية . وعثمان كان مع ذلك معروفاً

(١) انظر : ابن حجر ، الصواعق المحرقة ، ص ٧٦

(٢) انظر : عبد الفتاح عبد المقصود ، علي بن أبي طالب ، ص ٢٧٧

(٣) انظر : عبد الحميد السحار ، أهل البيت ، ص ٥٠

باللبن وحب الأقارب . فكانت قريش تراه خير مرشح لها يوصلها إلى غايتها المنشودة .

قارن عمر بن عليّ وعثمان ، فقال عن عليّ : « لو ولوها الأجلح لهم على الجادة » ^(١) . وقال عن عثمان : « ... لو وليها لحل بني أبي معيط على رقاب الناس ، ولو فعلها لقتلوه » ^(٢) . يبدو من هذا أن عمر كان حائراً يودّ أن يوصي بالخلافة لعليّ ولكنه يرى أن قريشاً ستقاومه وتتحزب ضده ، وفي ذلك فتنة وانشقاق في الاسلام . وتلك حيرة كبرى .

يقال إن نفراً من الصحابة دخلوا على عمر بعد ما طعنه أبو لؤلؤة فطلبوا منه أن يعيّن لهم خليفته من بعده فقال : « من استخلف ؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته ، فإن سألتني ربي قلت سمعت نبيك يقول : انه أمين هذه الأمة . ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته ، فإن سألتني ربي قلت سمعت نبيك يقول : إن سالماً شديد الحب لله » ^(٣) .

ويخيّل لي ان هذا القول من عمر كان بمثابة ترشيح غير مباشر لعلي بن أبي طالب . وربما خشى عمر أن يعلن اسم عليّ صراحة فجاء بإشارة ذات مغزى تدل عليه .

(١) انظر : طه حسين ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٤

(٢) انظر : البلاذري ، أنساب الأشراف ، ص ١٧

(٣) انظر : ابراهيم حسن ، المنظم الاسلامية ، ص ٣٩

يقول عمر في فضل أبي عبيدة أن النبي وصفه بأنه أمين هذه الأمة . هذا والصحابة يعرفون أن النبي مدح علياً أعظم من هذا حيث قال : « عليٌّ مني بمنزلة هرون من موسى » . ويقول عمر في فضل سالم أن النبي وصفه بكونه شديد الحب لله . والصحابة يعرفون أن النبي قال في علي : « يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » . فهذان الحديثان النبويان في مدح علي كانا معروفين ومتداولين على أفواه الناس في ذلك الحين ^(١) .

إن عمر ، فيما اظن ، كان يقصد بتأيانه فضيلة أبي عبيدة وسالم أن يستدرج الحاضرين لذكر علي وفضائله . وأحسب أن الحاضرين لم يرق لهم هذا الاستدراج . فعلي كان غير محبوب لدى الكثيرين منهم .

استحق أبو عبيدة وسالم الخلافة ، في نظر عمر ، بفضيلة هي أقل من فضيلة علي . فلماذا لم يستحق الخلافة عليّ إذن ؟ من المعقول أن عمر أراد بكلمته تلك أن يشير إلى أحقية عليّ على سبيل السكينة والرمز . والحرر تكفيه الإشارة .

قد يظن البعض في هذا العصر أن عمر كان يستطيع أن يعيّن خليفته فيقبل الناس منه هذا التعيين ويرضخون له . إنما الآن ننظر

(١) روى هذين الحديثين البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل والطبراني والبرار وغيرهم عن بعض كبار الصحابة . (انظر : ابن حجر ، المصدر السابق ، ص ٧٢) .

في الأمر نظراً سطحياً ، ولا ندرى ما ذا كان يجري وراء الستار في ذلك الحين من مؤامرات ومكائدات .

رأينا من قبل كيف امتعضت قريش من تولي عمر للخلافة بعد أبي بكر . وقد جرى هذا في الوقت الذي كانت قريش فيه لا تزال ضعيفة قليلة المال والنفوذ حيث لم تكن آنذاك قد استرجعت قوتها بعد الضربات القاصمة التي كالحا لها النبي محمد .

أما في اواخر أيام عمر فقد كانت قريش قوية غنية ، إذ استعادت في خلافة عمر كثيراً من نفوذها الضائع . وقد كان عمر نفسه يحشاه ، كما رأينا ، ويحذر الناس من مكائدها . ولو أن عمر ولى علياً من بعده لرأينا قريشاً تقوم وتقعده ، وتقلب الدنيا على رأس علي — عدوها اللدود .



حدثت بعد موت عمر أزمة الشورى المعروفة . وكان التنافس شديداً بين مرشحين قوين هما : علي وعثمان . فكان عثمان مرشح قريش . وكان علي مرشح الغوغاء والأعراب والموالي من امثال أبي ذر وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي .

ولعل قريشاً لم تتم ليلة الانتخاب ولم يغمض لها جنن . فربما كانت قريش تلك الليلة دائبة في تدعيم مرشحها بكل وسيلة ممكنة . وعند ما وقف ابن عوف يريد أن يعلن مبايعة أحدهما صاح عمار بن ياسرهما قفاً : « إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع علياً » .

فصاح عبد الله بن أبي سرح راداً على عمار قائلاً : « إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان » (١) .

وهذه المشافهة تدل على ما كان يمكن في اعماق النفوس من ميل دفين . فعمار يتكلم باسم المسلمين ، وابن سرح يتكلم باسم قريش .

وقد تشاتم عمار وابن أبي سرح بعد ذلك . يقول عمار لابن أبي سرح ساخراً : « متى كنت تنصح للمسلمين ؟ » . فيجيبه أحد انصار بني أمية قائلاً : « لقد عدوت طورك يا ابن سمية ، وما أنت وتأمر قريش لا نفسها » (٢) .

يتضح من هذا أن الأطار الفكري الذي كان مكباً على عقلية عمار هو مصلحة المسلمين بغض النظر عن الطبقة التي ينتمون إليها . أما بنو أمية فكانوا يعتبرون المسألة لا تعدو أن تكون نزاعاً عائلياً بين القرشيين أنفسهم في سبيل التأمر على بقية المسلمين .

وبعد أن تمت البيعة لعثمان . استاء علي بن أبي طالب وقال مخاطباً ابن عوف : « جبوته جبو دهر ، ليس هذا أول يوم تظاهرت فيه علينا . فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ! » (٣) .



(١) انظر : عبد الحميد السحار ، المصدر السابق ، ص ٦٣

(٢) انظر : نفس المصدر والصفحة .

(٣) انظر : المصدر السابق ، ص ٦٤

شعرت قريش بغبطة الانتصار يوم تمت البيعة لعثمان . وكان
أكثرهم اغتباطاً بالطبع أبو سفيان شيخ قريش .

يقال إن أبا سفيان سأل اقرباءه في ذلك اليوم هامساً : « أفیکم
أحد من غیرکم ؟ » ولما اطمان من عدم وجود الغرباء في المجلس هتف
قائلاً : « يا بني أمية .. تلقفوها تلحف الكرة . فوالذي يحلف به
أبو سفيان ما زلت ارجوها لكم ، ولنصيرنَّ الى صبيانكم وراثه »^(١) .

ويقال كذلك ان أبا سفيان مر بعد ذلك اليوم بقبر حمزة عم
النبي الذي قتل في معركة أحد ، فركل القبر برجله وقال :
« قم يا أبا يعلي .. فان الأمر الذي قاتلنا عليه صار إلينا وراثه »^(٢) .
هل قال أبو سفيان مثل هذا القول حقاً ؟ لا ندرى ... ولكننا
لا نستبعد ان يتفوه أبو سفيان به . وهو إن لم يتفوه به فعلاً فقد
كان يشعر بعمقه في اعماق نفسه .

إن أبا سفيان لا يستطيع أن ينسى عداؤه السابق وحروبه
التواصلة في مقاومة الاسلام . ومن المحتمل انه كان يحسب انتصار
الاسلام هزيمة شخصية له — كما رأينا سابقاً .

وليس من الصعب أن نتصور أبا سفيان يلقن ابنه معاوية أو
يوحى اليه ويفرز في عقله الباطن هذه الفكرة ويحرّضه على استرجاع
مجد قريش الذي هدمه محمد .

(١) انظر : سيد قطب ، المصدر السابق ، ص ١٨٣

(٢) انظر : عبد الله السيبي ، عمار بن ياسر ، ص ٩٤

قلنا في أول الفصل ان الانسان لا تتغير عاداته وطبائعه فجأة بمجرد دخوله في دين جديد . وهو إن استطاع أن يغير شيئاً من سلوكه الظاهر ، فهو لا يقدر على تغيير عقله الباطن إلا قليلاً .

إن الانسان قد لا يدرك ماذا يختبئ في اعماق لاشعوره من عقد نفسية وقيم اجتماعية . فهو مسير بهذه القيم والعقد من حيث يشعر أو لا يشعر . ومن الظلم أن نطلب من إنسان نشأ في بيئة معينة أن يكون انساناً آخر شبيهاً بمن نشأوا في بيئة أخرى .

يخيل لي ان أباسفيان ومعاوية ومروان وغيرهم ، من زعماء قريش الذين أهانهم الاسلام ، ظلوا حتى آخر يوم من عمرهم يشعرون بمرارة الخذلان ويودّون ان يستعيدوا ما كان لهم من مؤدّد فائت .

ومما تجدر الاشارة اليه ان النبي كان يكره مروان وأباه ويسميه الوزغ ابن الوزغ ، وقد طردهما من المدينة ^(١) . وظلا مطرودين في ايام أبي بكر وعمر . فلما تولى عثمان ارجع مروان الى المدينة وزوّجه ابنته وجعله وزيره وعضده الأيمن في توجيه دفعة الحكم . ولعله اتخذ بمثابة ما نسميه اليوم حامل اختام الملك أو رئيس الديوان ^(٢) .

(١) يقال أنهما كانا يقدان مشية النبي سخرية به ويضحكسان الناس عليه

نفغضب للنبي عليهما بعد أن أحس بما كانا يفعلان ونقاها الى الطائف .

(٢) انظر : صادق عرجون ، عثمان بن عفان ، ص ١٢١

إن هؤلاء الأشخاص الذين نشأوا على احتقار محمد وعلى مقاومة الاسلام ، لا يمكن ان تطهر قلوبهم من ذلك في زمن قصير .
 إن من سوء حظ الاسلام أن دخل فيه أناس من هذا النوع .
 فهم مهما صاروا مخلصين بعدئذ فان العقدة النفسية التي كانت مغروزة في عقولهم الباطن لا تدعهم يسلكون سبيل المؤمنين المخلصين . وليس يبدؤهم ان يفعلوا غير ذلك . فهم مسيرون بما انطوت عليه نفوسهم من احقاد — أرادوا ذلك أم لم يريدوه .

* * *

فرحت قريش بتولي عثمان الخلافة واعتبرته نصراً لها . وقد استغلت هذا النصر أبشع استغلال . وهال الناس أن يروا قريشاً ترجع الى سؤدها القديم .

وكان من اكثر الناس امتعاضاً من هذا الرجوع الموالي المستضعفون من ناحية والأعراب من ناحية أخرى . فالموالي لا ينسون ما اضطهدتهم قريش به في بدء الدعوة ، وظلت ذكرى ذلك الاضطهاد عقدة دفينه في اعماق قلوبهم لا تزول . أما الأعراب فكانوا يكرهون قريشاً لتعاليلها عليهم وقد ساء لهم أن يروا قبيلة واحدة تمتاز عليهم وتحسب لنفسها النىء والولايات .

وكان أبو ذر ينطق بلسان الأعراب هؤلاء . أما الموالي فكان ينطق بلسانهم رجل منهم هو عمار بن ياسر — كما سيأتي .

لقد كلن الموالي آنذاك قليلين . وتحمل وزر الثورة كلها الأعراب .

* * *

ولو درسنا هذه الثورة دراسة موضوعية لوجدناها كانت في الغالب نزاعاً بين قريش والأعراب . إذ أن مال الله الذي انهال على المدينة نتيجة الفتوح العربية ذهب معظمه الى جيوب قريش . ولم تحصل منه القبائل العربية إلا نزرأ يسيراً . فكان الأعراب يشعرون بأنهم هم الذين فتحوا الممالك ومضروا الأمصار . ولم يرضهم أن يجدوا غنائم الفتح تذهب الى فئة صغيرة تسكبر عليهم — هي فئة قريش .

يقول المؤرخون ان أول بوادر الثورة على عثمان جاءت من الكوفة . وسببها المباشر هو تصريح سعيد بن العاص الأموي والي الكوفة حيث قال : « إن السواد بستان قريش » . فقام اليه افراد من القبائل العربية يردون عليه قائلين : إنما السواد في إفاة الله علينا ، وما نصيب قريش إلا كنصيب غيرها من المسلمين ^(١) .

اثار هذا القول الذي تفوه به الوالي القرشي اعراب الكوفة فأخذوا يتذمرون ويعترضون ويشغبون . فسفرهم الوالي بأمر عثمان الى معاوية في الشام . ولو نظرنا في النقاش الذي ثار بينهم وبين معاوية لرأيناه نقاشاً حول قريش بالذات .

(١) انظر : طه حسين ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١١٠

قال معاوية من جملة ما قال : « إنكم قوم من العرب ... وقد بلغني أنكم نقيم قريشاً ، وإن قريشاً لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم . وإن أئمتكم لكم إلى اليوم جنة ، فلا تسدوا عن جنتكم ... » فأجابه أحدهم قائلاً : « كم تكثر علينا بالامرة وبقرش ، فما زالت العرب تأكل من قوائم سيوفها وقريش تجار »^(١) . وبعد مقتل عثمان وصفت السيدة عائشة الثوار وصفاً واضحاً يدل على أنهم كانوا من الأعراب والموالي . قالت : « أيها الناس ! إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظمأ بالأمس ... والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم »^(٢) .

ووصف علي بن أبي طالب الثوار بوضوح مثلما وصفتهم السيدة عائشة . فانه لما طالبه بالقصاص من قتلة عثمان قال : « ... كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت اليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤا . فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون »^(٣) .

ويبدو أن عداة الأعراب لقريش كان أمراً محتوماً . فقريش كانت ، كما أسلفنا ، أغنى قبيلة في العرب قبل الإسلام . فكانت

(١) انظر : ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ص ١٢٠

(٢) انظر : عباس العقاد ، عبقرية الامام ، ص ٥٥

(٣) انظر : نفس المصدر والصفحة .

سادنة السكبة وحامية الاوثان وراعية الأسواق التجارية والأديبة التي كانت تعقد قرب مكة في موسم الحج ، فيؤمها العرب يتبارون فيها ويتسلمون الجوائز على ذلك من قريش .

حاولت قريش أن تستعيد تلك المكانة الماضية بين العرب . ونسيت أن الوضع قد تبدل ...

كان العرب قبل الاسلام يقدون الى مكة فتغمرهم قريش بوفادتها وجوائزها . فكانوا يحترمونها ويصونون قوافلها اعترافاً منهم بفضلها عليهم . فالأمر كان عبارة عن أخذ وعطاء وتبادل منافع .

أما في الاسلام فقد تغير الحال . ذلك ان العرب أخذوا يشعرون بأنهم هم اصحاب الفضل الأول . فبأسياقهم فتحت الممالك وانهارت الغنائم . فبأي حق تتأمر قريش عليهم وتأخذ من الفيء حصّة الأسد دونهم .

إن المناقشة التي دارت بين معاوية واعراب الكوفة تشير الى هذا بوضوح . فمعاوية يذكرهم بفضل قريش عليهم فلولاها لرجع العرب قبائل مبعثرة كما كانوا في أيام الجاهلية . وكان جوابهم على هذا القول ان قريشاً ليس لها فضل في فتح الممالك لأنها قبيلة من التجار الأغنياء .

كل فريق ينظر الى الأمر من جانبه الخاص . ولا يعترف للفريق الآخر بحقه . وهذا هو شأن البشر في كل زمان ومكان .

قلنا إن قريشاً سُرّت ببيعة عثمان سروراً لم تستطع كتمانها .
والظاهر أن سرورها هذا لم يدم طويلاً . فقد ذهبت السكره وجاءت
الفكرة — كما يقول المثل السائر .

إن عثمان كان آنذاك شيخاً هرمًا بين الثمانين والتسعين من
عمره ^(١) . وقريش لا تستطيع أن تطمئن من بقاء سلطانها طويلاً .
فشيخها عثمان سوف يموت عاجلاً أم آجلاً .

وكانت قريش تعلم بأن الناس سيختارون بعد موت عثمان علياً
الذي سوف يقضي على سلطانها وينزلها عن مقامها الذي كلفت
طويلاً في سبيل اعلائه .

ليس من السهل أن نتصور قريشاً هادئة النفس في خلافة عثمان
سيما في العهد الأخير منه . فهي لا بد كانت تضرب اخماساً بأسداس
في سبيل أن تنقذ موقفها من الورطة التي ستحقيق بها بعد عثمان .

مات أبو سفيان في أيام عثمان ، وتولى زعامة قريش من بعده
ابنه معاوية . ومعاوية هذا اشتهر في التاريخ بأنه كان من أدهي
العرب وأبعدهم نظراً وأعظمهم حيلة .

وليس من المعقول أن يكون معاوية مطمئناً في خلافة عثمان .
لأنه لا بد فاعلاً شيئاً لدرء الخطر المقبل .

والمشكلة أن زعماء قريش لم يكونوا من أولي السابقة والجهاد في
الاسلام . فمعظمهم كانوا في جانب المشركين يحاربون الدعوة الجديدة .

(١) انظر : طه حسين ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٠

ولم يكن أحد منهم أهلاً في نظر الناس لتولي الخلافة بعد عثمان .
لقد كان عثمان الرجل الوحيد ، بين اشراف قريش ، الذي
آمن وهاجر وجاهد وأتفق أمواله في سبيل الدين الجديد . واغلب
القرشيين الذين دخلوا الاسلام في بدء الدعوة كانوا من أسر
مستضعفة . أما ابناء الأسر القوية من قريش ، كبنی أمية وبنی
مخزوم ، فقد كانوا اعداءً ألداءً للدين الجديد . ولما دخلوا فيه في
الساعة الأخيرة كان ايمانهم به رقيقاً ^(١) .

يخيل لي ان معاوية كان دائب التفكير في مصير قريش .
ولعله كان يخشى أن تُهزم قريش بعد عثمان على يد علي بن أبي طالب
كما هزمت من قبل على يد محمد بن عبد الله .

* * *

كان المرشح الأكبر للخلافة بعد عثمان علياً — كما رأينا سابقاً .
ويلي علياً في هذا طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الله
بن عمر .

ومن الواضح أن معاوية لم يكن يطمئن من هؤلاء جميعاً . ف هؤلاء
كانوا أقرب الى تفهم روح الاسلام من سائر القرشيين . وهم
لا يستطيعون ، مهما تغيرت بهم الظروف ، أن يكونوا مثل أبي
سفيان في نزعتهم القبلية أو طلبهم للرئاسة .

رأينا الزبير يخرج من معركة البصرة نادماً عند ما وجد عماراً

(١) انظر : أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ٧٢

في جانب عليّ وتذكّر قول النبي فيه انه تقتله الفئة الباغية^(١).
ورأينا طلحة يستغفر ربه ساعة موته ويطلب منه العفو على ما بدر منه^(٢).
ورأينا سعد بن أبي وقاص يترك أمور الدنيا بعد مقتل عثمان ويجابه
معاوية بما لا يرضي .

أما عبد الله بن عمر فكان أشبه الناس بأبيه زهداً وتقوى
وايثاراً للعدل .

وليس من المستغرب إذن أن نجد معاوية قلقاً على مصير قريش
إذا تولى الخلافة بعد عثمان أحد هؤلاء .

* * *

يحدثنا التاريخ أن معاوية بدأ منذ أيام عمر يثبت الأمر له في الشام
ويسير في ذلك سيرة من يريد أن يجعل الشام عاصمة ملكه القادم .
وسلك معاوية في الشام مسلك الأكسرة والقيصرية . وكأنه
أراد أن يعدّ المجتمع الشامي إعداداً خاصاً يجعله يؤمن بمبدأ الطبقية
ويغفل مبدأ المساواة الذي جاء به الاسلام .

كانت الأمصار الاسلامية كلها تلهج حينذاك بمبدأ المساواة
والعدالة الاجتماعية ، وعتقد بأن الناس كلهم سواسية كأسنان
المشط ، حيث يدخل الشقي النار ولو كان سيداً قرشياً ، ويدخل
التي الجنة ولو كان عبداً حبشياً .

(١) انظر : طه حسين ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٩

(٢) انظر : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٠

أما في الشام فكان الأمر على النقيض من ذلك . والظاهر ان معاوية منع كل من تحدّثه نفسه بفكرة المساواة أن يدخل الشام . فلما أخذ أبو ذر يبيّن هذه الفكرة الخطرة في الشام كتب معاوية الى عثمان يخبره بأن أبا ذر قد أعضل به وانه يريد أن يفسد الشام عليه . فأمره عثمان بإرجاءه الى المدينة ^(١) . ومعنى هذا أن معاوية كان يريد أن تبقى الشام في مأمن من المبادئ الهدامة ، ولا بأمن عنده أن تشتعل بها بقية الأمصار .

وقد نجح معاوية في هذا نجاحاً لا يستهان به ، حتى أصبحت طاعة اهل الشام مضرب المثل في ذلك العصر .

يتحدث السعودي عن اهل الشام فيقول : « ولقد بلغ من أمرهم في طاعتهم له انه صلّى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة في يوم الأربعاء وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها ... » ^(٢)

شاهد عمر بن الخطاب اثناء سفره الى الشام معاوية وهو يمشي في موكب من الحراس والجلالوزة كما كان يمشي أي حاكم من حكام الأزمنة السالفة . فغضب عمر من هذا وصرخ به قائلاً : « أكسروية يا معاوية !؟ » فأجابه معاوية معتذراً بأنه في ثغر تجاه العدو وانه يحتاج الى مباهاة العدو بزينة الحرب والقتال ^(٣) .

(١) انظر : عباس العقاد ، عبقرية الامام ، ص ٥٢

(٢) انظر : السعودي ، مروج الذهب ، الجزء الثاني .

(٣) انظر : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٣٠

يعتقد ابن خلدون بأن عمر اقتنع بجواب معاوية هذا . ويدافع ابن خلدون عن معاوية قائلاً أنه باتخاذ مظاهر الكسروية لم يكن يقصد ارتكاب الباطل والبغي والظلم . فمعاوية في رأي ابن خلدون كان يقصد بذلك وجه الله (١) .

وإني لأعجب من رأي ابن خلدون هذا . فكل إنسان يدعي أنه يقصد وجه الله في مختلف أعماله . والمشكلة ليست في ما يدعي الإنسان أو يعتقد ، إنما هي في ما هو عليه من اتجاه لاشعوري . فنحن لا يهمننا ما يعتقد الإنسان في نفسه . إن الذي يهمننا بالأحرى هو ما انطوى عليه عقله الباطن من عقد نفسية وقيم اجتماعية .

يريد معاوية مغالبة اعداء الاسلام فيتخذ طريقته في الأبهة والمباهاة . وهذا أمر جائز في نظر السياسيين . ولكنه لا يجوز في نظر أهل الدين . فالدين لم يأت للمغالبة من أجل المغالبة ذاتها . إنه جاء للمغالبة في سبيل مبدأ عادل يؤمن به . وإذا أراد الدين الانتصار على العدو من غير اهتمام بالمبدأ الذي جاء من أجله ، صار دولة وانتفت عنه صفة الدين . إن الدين يسمى آنذاك ألعبوبة بيد الساسة يطولون به أعمالهم التي يقومون بها في سبيل الفتح والاستغلال .

لست أظن بأن عمر اقتنع بجواب معاوية كما يعتقد ابن خلدون . وأكاد أجزم بأن عمر كان يخفي في دخيلة قلبه شيئاً آخر .

* * *

قتل عمر بن الخطاب ، على كل حال ، قبل ان يعمل شيئاً في سبيل القضاء على جرثومة تلك النعرة الجديدة التي بدأت تنمو في المجتمع الاسلامي شيئاً فشيئاً .

جاء عثمان أخيراً فاستغلت قريش عهده في هذا السبيل . وتوجه عند ذاك معظم القرشيين الذين كانوا من طراز معاوية الى الشام يؤسسون هناك عهدهم الجديد .

يقول بعض المؤرخين ان قريشاً استطابت فاكهة الشام ، فذهبت اليها واستقرت فيها ^(١) . وهذا القول فيه شيء من السخافة . فقريش لم تستطب فاكهة الشام . إنما استطابت بالأحرى فاكهة المجتمع الشامي الذي أسسه معاوية وجعل منه مؤثلاً للسيادة والاستثمار الطبقى .

* * *

ولعلنا لا نغالي اذا قلنا بأن الشام اصبحت في عهد عثمان هي العاصمة الحقيقية لدولة الاسلام الناشئة . ويصح أن نقول بأن معاوية صار آنذاك الخليفة الفعلي .

ومما يدل على هذا ان جميع من كان ينفيهم عثمان أو ينفيهم ولاته في الأمصار المختلفة يساقون الى معاوية . فأبوذر وثوار البصرة والكوفة سيقوا الى معاوية ليرى رأيه فيهم .

يقال إن رجلاً في البصرة كان متقشفاً زاهداً حرم على نفسه

(١) انظر : جرجي زيدان ، التمدن الاسلامي ، ج ٤ ، ص ٥٣

أموراً أحلها الله لعباده . فقد اشترى عنه انه لا يأكل اللحم ولا يرى
الزواج ولا يشهد الجمعة . فكتب والي البصرة بأمره الى عثمان
فأمره عثمان ان يسيّره الى معاوية . وبعد ان امتحنه معاوية وجد
ان لا بأس منه فرضى عنه وابقاه عنده ^(١) .

يتضح من هذا ان معاوية كان هو المدبّر الفعلي لشؤون
السياسة الاسلامية في عهد عثمان . فكل من يدعو الى رأي جديد ،
خطراً كان أم غير خطر ، يساق الى معاوية ليمتحنه ويقرر مصيره .
فاذا وجد مأموناً أبقاه في الشام . أما اذا وجد خطراً أبعده عنها
وأنقذ المجتمع الشامي من مبادئ الهدامة .

ويبدو ان معاوية كان لا يكثر بما يحدث في بقية الأمصار
من فوزى أو شغب . جل همه كان منصباً على الشام ، إذ يريد
ان يصونها من كل بواغ التفكير الحر أو الوعي السياسي .
وقد سار على هذه السياسة جميع من جاء بعد معاوية من خلفاء
بني أمية ^(٢) . فهم لا يكادون يرون في الشام رجلاً لساناً منطقياً
يحاول تنبيه الناس حتى يبعده عنها .

إن معاوية قد سنّ لهم سنة الابقاء على الشام هادئة لا جدل فيها
ولا حرية فكرية لتسكون لهم مركزاً وطيداً يسيطرون منه على بقية
الأمصار . وقد نجحوا في هذه السياسة نجاحاً لا بأس به . فكانوا

(١) انظر : طه حسين ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١١٦

(٢) انظر : سيد الأهل ، الخليفة الزاهد ، ص ٢٠٦

يحاربون جميع الأمصار بجيش الشام المطيع لهم . فكانت الأمصار متفرقة ليس فيها نظام . واستطاع الأمويون ان يضربوها بأهل الشام مصراً بعد مصر . فتغلبوا عليها جميعاً في النهاية .

إن هذه السياسة التي ابتكرها معاوية قد اتبعها موسوليني في هذا الزمن . فموسوليني كان يقول ان جماعة منظمة قليلة تستطيع ان تغلب على جماعة مبعثرة كبيرة . وقد أسس حزبه الفاشستي على هذا الأساس ، ونجح به نجاحاً كبيراً — كما هو معروف .

* * *

إن معاوية كان يهتم بتوطيد أمره في الشام ولا يولي بالأمصار الأخرى . ولعله كان يهوى ان يجد في بقية الأمصار فوضى وشغباً لكي لا يجتمعوا على احد بعد عثمان ، وبذلك يستطيع ان يضربهم واحداً بعد الآخر .

وليس من المستبعد ان يكون معاوية قد شجع الثورة على عثمان بعد أن رآها تستفحل . ومن شأن السياسي الماهر ان يعكّر الماء لكي يصطاد فيه .

وربما ارسل معاوية الى مروان ، القابع بجانب عثمان ، يأمره بأن يزيد في الطين بلة ، وان يضرب الناس بعضهم ببعض ، لكي تتطوّر الثورة بهم وتدفعهم في طريق الهوس والرعونة .

إن الثورة على عثمان لم تكن منظمة . فكانت تلهج بمبادئ العدل والمساواة ولم تضع خطة عملية لتحقيقها . ومن يدري فلعل

معاوية استفاد من هذا الوضع فدرس فيه بعض المأجورين الذين كانوا يتظاهرون بالاخلاص للثورة ويعملون في الخفاء على توريطها .

يقول المؤرخون ان الذي دبّر الثورة هو اللعين ابن سبأ . وأحسب ان معاوية ابتدع اسطورة ابن سبأ وابتدع كذلك خطة عملية لتحقيق هذه الاسطورة على وجه من الوجوه .

وقد شاهدنا الساسة في هذا العصر يدسون في كل انتفاضة شعبية بعض جواسيسهم لكي يورطوها في المآزق المردية .



إن من يدرس سياسة مروان اثناء الثورة قد يعجب مما قام به هذا الرجل من حمق ورعونة وتحدٍ صارخ .

رأينا مروان بعد مقتل عثمان على شيء من الاتزان والتروي وبعد النظر . أما في أيام عثمان فقد كان طائشاً الى ابعد حدود الطيش . فما هو السبب ؟

إني أتهم مروان بأنه كان السبب الأكبر في مقتل عثمان ، وأتهم معاوية بأنه هو الذي اوعز الى مروان بذلك .

يعتقد القاضي ابن العربي بأن مروان كان رجل عدل ومن كبار الفقهاء ، وان فقهاء الأمصار أجمعوا « على تعظيمه واعتبار خلافته والتلفت الى فتواه والانقياد الى روايته » (١) . ويقول ابن

١ انظر : أبو بكر ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ص ٨٩ - ٩٠

العربي بعد ذلك : « وأما السفهاء من المؤرخين والأدباء فيقولون على أقدارهم » (١) .

ويأتي الأستاذ محب الدين الخطيب فيؤيد قول ابن العربي تأييداً كبيراً ، ويقول : انه ليس من المعقول ان يكون مروان مدبر هذه الفتنة إذ لم تكن له مصلحة فيها (٢) .

والأستاذ الخطيب يعزو كل اسباب الفتنة الى السبائين وعلى رأسهم مالك الأشتر . فهو يرى ان السبائين كان لهم مصلحة في قتل عثمان ، أما مروان فلا مصلحة له في ذلك . وهذا رأي غريب . ولست أرى أحداً يستفيد من مقتل عثمان بمقدار ما يستفيد منه مروان ومن لفّ لفه من زعماء قريش .

إن من يريد ان يكتشف الفاعل الأصلي للجريمة من الجرائم يجب عليه قبل كل شيء أن يبحث عن له مصلحة في ارتكاب تلك الجريمة . والانسان في الغالب لا يجب ان يرتكب جريمة من غير سبب يدعوه الى ارتكابها .

واقرب الناس الى ارتكاب الجريمة هو من له مصلحة فيها . هذا هو المبدأ الذي يسير عليه مكتشفو الجرائم في عصرنا هذا . وما أحرانا ان ننظر في مقتل عثمان بمثل هذه النظرة الحديثة .

أما ان ننظر في مقتل عثمان باعتبار انه من فعل أناس جيلوا

(١) انظر : المصدر السابق ، ص ٩٠

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ١٢٦

على الشر ، فذلك نظر لا يلائم ما نعرف عن طبيعة الانسان من
نواميس وميول .

إن الأستاذ الخطيب يعتبر مروان رجلاً صالحاً لا يُقدم على
مثل هذا العمل الفظيع . ونسى أن مروان أقدم في حياة النبي على
ما هو أفظع من هذا حيث نفاه النبي من جرّائه الى الطائف ، وظل
منقياً طيلة ايام أبي بكر وعمر .

اصبح مروان ، في نظر الخطيب ، صالحاً . وذلك لأنه صار
في ما بعد خليفة ودخل في سجل أمراء المؤمنين . وهذا هو دأب
وعاظ السلاطين في كل زمان ومكان .

فهم يعتبرون كل من تولى السلطة صالحاً . أما الثائر على السلطان
فهم يعتبرونه شريراً أو مغفلاً أو مغرضاً .



لو درسنا مراحل الثورة التي سبقت مقتل عثمان ، لوجدنا مروان
يتخذ شتى الوسائل في سبيل تهيج الثوار ومنع الصلح بينهم وبين
عثمان . ومن يدرس هذه المراحل دراسة موضوعية لا يستطيع ان
يرى مروان من تهمة التآمر على عثمان وإيراده حتفه .

نستطيع ان نصنّف الحوادث التي سبقت مقتل عثمان الى
ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : مجيء الثوار الى المدينة ، يطالبون عثمان باقامة
العدل واتّباع سنة من قبله . وقد خرج الثوار من المدينة راجعين

الى امصارهم بعد ان رضي عثمان باجابة طلبهم في اقامة العدل
واتباع السنة

المرحلة الثانية : رجوع الثور الى المدينة بعد قليل من خروجهم
منها ، وذلك حين اكتشفوا كتاباً مختوماً بخاتم عثمان حيث يؤمر به
والي مصر بقتلهم عند رجوعهم اليه .

المرحلة الثالثة : حصار عثمان في بيته والمثابرة على ذلك الحصار
حتى قتل عثمان .

ولو درسنا تفاصيل هذه المراحل الثلاث لوجدنا مروان دائماً لا
يقتر في محاولاته لتعكير الجو بين عثمان والثوار وإغفار صدورهم عليه .

* * *

نجد عثمان في المرحلة الأولى ليناً كمعاداته متواضعاً يستغفر الله
ويبكي فيبكي معه الناس وتخض لحام بالدموع . وخطب ذات مرة
فقال : « اذا نزلت .. فليأتني خياركم ، فلا ترفع إلي ظلامة إلا
كشفتها ، ولا تعرض علي حاجة إلا قضيتها » (١) .

ولم يكد عثمان يرجع الى بيته بعد خطبته المبكية هذه حتى جاءه
مروان يلومه ويتهمة بالخور والجبن . وقال له : « ... والله لأقامة على
خطيئة تستغفر الله منها أجل من توبة تُخَوِّف عليها » (٢) .

ثم خرج مروان الى الثوار يصرخ في وجوههم قائلاً :

(١) انظر : طه حسين ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٨

(٢) انظر : عباس العقاد ، عبقرية الامام ، ص ٧٦

« ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب . شأته الوجوه ...
جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا ... ارجعوا الى منازلكم . فأننا
والله مانحن مغلوبون على ما في أيدينا » (١) .

وهذه مجابهة لا يتحمل أحد السكوت عنها . فمروان يعتبر خلافة
عثمان ملكاً قرشياً ويعتبر الثوار منافسين لقريش على الملك .

وصاح مروان في المسجد مرة أخرى قائلاً : « إن شئتم والله
حكمننا بيننا وبينكم السيف ... » فوبخه عثمان على قوله هذا توبيخاً
لاذعاً أمام الناس (٢) .

وكتب عثمان أخيراً ميثاقاً للثوار وعدهم فيه : « ان المنفي يعاد ،
والمحروم يُعطى ، ويُوفّر الفء ، ويُعدل في القسم ، ويُستعمل ذوو
الأمانة والقوة » (٣) .

وخرج الثوار من المدينة بعد كتابة هذا الميثاق راجعين الى
امصارهم . وفي الطريق اكتشفوا غلاماً من غلمان الدولة يحمل كتاباً
الى والي مصر يأمره بقتلهم ، والكتاب مختوم بخاتم عثمان . فرجعوا
الى المدينة صائحين محتجين . دافع عثمان عن نفسه قائلاً : « إني
ما كتبت ولا أمرت . وقد يُسكتب على لسان الرجل ، ويُضرب
على خطه وينقش على خاتمه » (٤) .

(١) انظر : نفس المصدر والصفحة .

(٢) انظر : عبد الحميد السحار ، المصدر السابق ، ص ٧٦

(٣) انظر : أبو بكر ابن العربي ، المصدر السابق ، ص ١٢٥

(٤) انظر : المصدر السابق ، ص ١١٠

فعثمان لم ينكر أن التوقيع كان توقيعه ، ولكنه قال بأنه مزور عليه . والمؤرخون مجمعون على أن عثمان لم يكتب ذلك الكتاب . وليس من المعقول أن يكتب عثمان الى واليه يأمره بقتل أحد من الناس ، فهذا كان من أبعد الأمور عما عرف عن عثمان من لطف ورأفة . فمن كتبه إذن ؟

يرى الأستاذ الخطيب ان مزور الكتاب كان مالك الأشتر واصحابه من السبائين . وهو يقول : « ولم يكن لأحد غير الأشتر واصحابه مصلحة في تجديد الفتنة » (١)

أما الأستاذ العقاد فيرجح أن يكون المزور مروان بن الحكم ، وهو يعتبر مروان عنصر السوء في هذه المأساة كلها .

يقول العقاد : « ... كان أيسر شيء على مروان لو كان بريئاً من هذه المكيدة ان يكشف حقيقتها بسؤال الغلام حامل الخطاب ، وفي كشف هذه الحقيقة إبراء له وتعزيز لسلطان الخليفة وفضيحة لأعدائه وإدحاض لحجة الفتنة ودعوة الاثارة والتحريض ، ولكنه أهمل السؤال وقنع من تبرئة نفسه بقذف التهمة على متهميه » (٢) .

كان الثوار يتهمون مروان بتزوير الكتاب ، وكان مروان بدوره يتهمم بتزويره . فمن هو الحق من الفريقين ؟

يرى بعض الباحثين ان الكتاب كتبه مروان نفسه فليس

(١) انظر : المصدر السابق ، ص ١٠٩

(٢) انظر : عباس العقاد ، المصدر السابق ، ص ٦٧ — ٦٨

هناك من يجرأ على ختم الكتاب بخاتم عثمان سوى مروان ، إذ كان وزيره المؤتمن وحامل اختامه — كما رأينا .

يُخيل لي ان مروان ساء رجوع الثوار الى امصارهم بسلام من غير أن يتورطوا بمأزق يفضحهم امام الناس ، فزور ذلك الكتاب وارسله على وجه السرعة .

ومن الغريب حقاً أن نجد حامل الكتاب لا يتخفى اثناء سفره ، فكان يمشي الثوار في الطريق ويعرض نفسه لأعينهم كأنه كان يعتمد أن يكتشفوا أمره .

نرى هنا غلاماً من غلمان الدولة يركب بعيراً يعود للدولة ويحمل رسالة سرية مختومة بخاتم الخليفة فيها أمر بالقاء القبض على الثوار وبقتلهم . ونجد هذا الغلام الخبيث يسير في طريق الثوار ويخترق صفوفهم أحياناً . يتعرض لهم ثم يفارقهم مراراً . قالوا له : « مالك؟ » قال : « أنا رسول أمير المؤمنين الى عامله بمصر » . ففتشوه فوجدوا عنده الكتاب الخطير ^(١) .

إنه لأمر في غاية الغرابة . ولا يستطيع الباحث إزاء ذلك إلا أن يعجب عجباً لا حد له . إن الأمر لا يخلو من مؤامرة . فهل هي مؤامرة من السبائين أم هي من فريش ؟

ندع هذا السؤال بين يدي القارئ ليحجب عليه .
 قيل قديماً : « الملك عقيم » . ويقال اليوم : « السياسة لا قلب لها » .

(١) انظر : أبو بكر ابن العربي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٦

وهذا هو ما نلاحظه في كل مكان تلج السياسة فيه . فالسياسيون لا يبالون أن يقتلوا الأنبياء اذا وجدوهم يقفون عقبة في طريقهم الى الكرسي .

لم تقع في تاريخ الاسلام مأساة أشد ضرراً بالاسلام من مقتل الشهيد عثمان . والويل لأولئك الذين دبروا مؤامرتها وحبكوا خيوطها . حاصر الثوار عثمان ، وأرادوا منه أن يخلع نفسه أو يقتلوه . فلماذا لم يخلع عثمان نفسه ؟

هذا سؤال آخر يحير العقل ويحتاج الى جواب .
كان عثمان هراماً يقارب التسعين من عمره وقد شبع من دنياه الى حد التخمّة ، فلماذا لم يخلع نفسه ويتركها شورى ؟
يروى البلاذري : ان ابن عمر دخل على عثمان اثناء الحصار فجرت بينهما المحاورّة التالية :

عثمان : أنظر ما يقول هؤلاء .. يقولون : اخلع نفسك أو نقتلك .
ابن عمر : أمخلد أنت في الدنيا ؟

عثمان : لا

ابن عمر : هل يزيدون على أن يقتلوك ؟

عثمان : لا

ابن عمر : هل يملكون لك جنة أو ناراً ؟

عثمان : لا

ابن عمر : فلا تخلع قميص الله عنك ، فتكون سنّة ،

كلما كره قوم خليفتهم خلعه أو قتلوه^(١) .

إني لأعتقد بأن ابن عمر لم يقل هذا القول . إنه من كلام مروان في أرجح الظن . فالخلافة ليست قيص الله . إنها ودعة الأمة إن شاءت أعطت وإن شاءت أخذت . هذا هو مفهوم الشورى الذي جاء به الاسلام .

أبطل بنو أمية أمر الشورى وأحلوا مكانه نظام الوراثة ، باعتبار أن ابن الخليفة يرث الخلافة من أبيه كما يرث قصانه وأمواله . ولعل هذا هو ما كان يخطر ببال مروان في تلك الآونة . وربما همس مروان في أذن عثمان بهذا الخاطر وحجبه إلى قلبه . وبذا صار عثمان يأبى خلع نفسه حيث عدّ الخلافة قيصاً كسباه الله به ولا يخلعه عنه سوى الله .

دنا شيخ صحابي من دار عثمان في آخر ساعات الحصار فصاح يدعو عثمان ويعظه وينصح له بأن يخلع نفسه حقناً للدماء . فرمى هذا الشيخ بسهم من دار عثمان وألقي عليه حجر فمات لساعته . عند ذلك تأزم الموقف تأزماً شديداً ...^(٢)

أفمن الذي رمى السهم والحجر على الشيخ ، ولماذا ؟
لا مرأى أن حصار عثمان كان معركة من المعارك الحاسمة في التاريخ . فالتواريثيون خلع عثمان وتولية عليّ مكانه . وقریش

(١) انظر : البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج ٥ ص ٧٦

(٢) انظر : طه حسين ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٣

تريد أن يُقتل عثمان قبل أن يخلع نفسه لكي يستعينوا بمقتله في القضاء على الثورة وهي في مهدها . وشاء القدر أن يتم لهم ما ارادوا . فلو ان عثمان استطاع أن يخلع نفسه في اللحظة الأخيرة لكان من المحتمل جداً أن يتولى الخلافة علي بن أبي طالب . ولو تولاهما علي آنذاك لسار التاريخ الاسلامي سيرة غير السيرة التي عهدناها .

يقول ابن العربي : ان عثمان هو الذي فتح الباب للثوار فدخلوا عليه فقتلوه ^(١) . وهذا القول ، إن صح ، يدل على أن أحداً من اقرباء عثمان هو الذي فتح الباب للثوار وأغراهم بدخوله . فليس من المحتمل أن ينزل عثمان الى الباب بنفسه ويفتحها أمام الثوار ويلقي بنفسه الى التهلكة .

يظن الدكتور طه حسين : ان عثمان أراد في آخر لحظة أن يخلع نفسه وأن يرد الأمر الى اصحاب الشورى حقناً للدماء ^(٢) . وهذا الرأي معقول جداً سيما اذا عرفنا ما كان عليه عثمان من حب للسلم وحقن للدماء .

ومن الممكن القول بأن مروان أحسَّ بهذه النية من عثمان فحاول أن يقوم بحركة مستعجلة قبل فوات الأوان . خرج مروان في تلك اللحظة الحاسمة ومعه نفر من بني أمية وغيرهم وهم يتحدثون الثوار ويدعونهم الى المبارزة ويرتجزون كأنهم خارجون الى معركة

(١) انظر : ابن العربي ، المصدر السابق ، ص ١٣٤ — ١٣٥

(٢) انظر : طه حسين ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٤

حرية . وكان عثمان يأمرهم بالصبر ويكفهم عن القتال فلا يسمعون له ولا يستجيبون لدعائه ، حتى اضطر الى أن يقسم عليهم لكي يلقوا سيوفهم . فالتى جماعة من اصحابه سيوفهم وأبى بنو أمية أن يفعلوا . وبينما القوم يقتتلون .. خرج خارج من بيت عثمان وهو يهتف : « لقد قتلنا ابن عفان ! » (١) .

يقال إن سعد بن أبي وقاص دخل على عثمان قبيل تلك اللحظة المشؤومة فسمع منه ثم خرج مسترجعاً يطلب علياً حتى لقيه في المسجد فقال له : « هلم يا أبا الحسن ! لقد جئتك بخبر ما جاء به أحدٌ أحدًا . إن خليفةك قد أعطى الرضا فاقبل وانصره واسبق الى الفضل في نصره » . وبينما هما يتناجيان جاء الناعي بمقتل عثمان (٢) .

وقد غضب علي حين سمع بمقتل عثمان واقبل على ولديه الحسن والحسين ، إذ كانا واقفين بباب عثمان يحرسانه ، فلطمهما معاتبة وقال : « كيف قُتل أمير المؤمنين وأتما على الباب ؟ ! » . فقال طلحة وكان حاضراً : « لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن ، لو دفع مروان ما قتل ! » (٣) .

يتضح من تتابع هذه الجوادث ، ان في الأمر سرّاً دفيناً . فالغموض يكتنف مقتل عثمان من جميع جوانبه .

(١) انظر : طه حسين ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٣١٤

(٢) انظر : نفس المصدر والصفحة .

(٣) انظر : عباس العقاد ، المصدر السابق ، ص ٧٧

يعرض الدكتور طه حسين حول مقتل عثمان سؤالاً هاماً يحتاج الى جواب . وهذا السؤال لم يجب عنه القدماء إجابة مرضية . أو لعلمهم لم يهتموا به أو يلفتوا اليه .

وهذا السؤال هو : لماذا ابطأ عمال عثمان عن نصره حتى أتىح للثائرين أن يحاصروه فيطيلوا حصاره وأن يقتلوه بعد ذلك ؟

وأكثر من هذا : ان عثمان كان قد عود عماله أن يوافوه في الموسم من كل عام ، فما بالهم أقاموا في امصارهم هذا العام ولم يشهدوا الحج حتى اضطر عثمان وكان محصوراً أن يأمر ابن عباس ليحج بالناس ؟

وأشد من هذا كله غرابة : ان ابن عباس حمل فيما يقول المؤرخون كتاباً من عثمان الى عامة المسلمين الذين شهدوا موسم الحج يعرض عليهم قضيته ويدافع عن نفسه . فقرأ ابن عباس الكتاب في الموسم . واستمع الناس اليه ثم تفرقوا بعد ذلك كأن لم يكن شيء . وظل عامل عثمان على مكة ساكناً هادئاً مطمئناً لم يستنفر الناس . فما هو السر في هذا الأمر العجيب ؟ (١) .

يحاول الدكتور طه حسين أن يجيب على هذا السؤال بقوله : إن الناس قد ملّوا عثمان — ملّوا طول عمره وملّوا سياسته (٢) . وفي نظري : ان هذا التفسير لا يحل المشكلة . فاذا كان

(١) انظر : طه حسين ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٩ — ٢٢٠

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ج ١ ص ٢٢٠

الناس قد ملّوا عثمان فلم ينجدوه ، فما بال الولاة لم ينجدوه وهم كانوا من أكبر المنتفعين من عهده ؟

يقول الشهرستاني : ان ولاية عثمان رفضوا مساعدة عثمان في محنته وخلّوه حتى أتى قدره عليه ^(١) . وهذا قول لا يخلو من صواب . فالظاهر أن ولاية عثمان قد دبّروا أمراً ميّتاً — والله وحده يعلم ماذا دبّروا وما بيّتوا .

والمعروف ان معاوية أرسل جيشاً لنجدة عثمان ولكنه أمر الجيش أن يتوقف في وادي القرى دون المدينة . وقد اقام الجيش بوادي القرى فعلاً حتى سمع نبأ مقتل عثمان فرجع الى الشام ^(٢) — كأنه كان متوقعاً ذلك .

أجمع المؤرخون على أن عثمان أمضى الشرط الأول من خلافته وهو يسير على سنة سلفه ، ثم انحرف بعد ذلك حيث أمضى الشرط الثاني على نمط آخر .

ويؤثر عن الخوارج أنهم كانوا يؤمنون بصحة خلافة عثمان في سنيه الأولى ويرون أن عثمان غير وبدل ولم يسر سيرة سلفه في سنيه الأخيرة ^(٣) .

(١) انظر : الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ص ١١

(٢) انظر : محسن الأمين ، نقض الوشيعة ، ص ١٣١

(٣) انظر : أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ٢٥٨

ونحن لا نريد أن نبحث في رأي الخوارج هذا أو في مبلغ قربه
أو بعده من الصواب . إنما الذي يعيننا في هذا الصدد هو ما نجد
في هذا الرأي من مطابقة ظاهرة لقول المؤرخين الآنف الذكر .
يبدو أن المسلمين في ذلك العهد لاحظوا ، كما لاحظ الخوارج ،
فرقاً في سلوك عثمان بين الشطر الأول من خلافته والشطر الأخير .
فما هو السر في ذلك ؟

إن معنى قول الخوارج في عثمان أنه كان خيراً في سنيه
الأولى وشريراً في سنيه الأخيرة . وهذا أمر يصعب علينا التسليم به .
فليس من الهيمن على انسان أن يغير سلوكه فجأة سيما اذا كان من
عراز عثمان — ذلك الرجل الذي أمضى عمره الطويل يجاهد بين
يدي الرسول وينفق أمواله في سبيله .

إن التغير الفجائي الذي لاحظته المسلمون في سلوك عثمان يُخفي
تحت سرّاً . فما الذي حدث في نفسية عثمان بحيث جعله ينقلب
انقلاباً كبيراً في سنواته الأخيرة ؟

إني لأظن بأن سلوك عثمان لم يتغير في سنيه الأخيرة . إنما
الذي تغير هو سلوك أقرانه وحاشيته المحيطين به . فليس من المستبعد
أن تكون قريش قد عزمت آنذاك على شيء ، إذ خشيت أن يفلت
منها الزمام فلا تستطيع اقتصاصه من جديد .

كان عثمان في تلك الآونة هروماً يقارب التسعين من عمره ، كما
قلنا آنفاً . فلو لم يقتله الثوار لمات على فراشه بعد مدة غير طويلة .

وقتل عثمان على يد الثوار خير لقريش من موته على فراشه .
إنها تستطيع أن تتخذ من مقتله وسيلة كبرى في سبيل الوصول الى
الهدف المنشود .

من الدهش أن نرى قيص عثمان الذي قتل فيه وامه أبوع زوجته
التي قطعت أثناء مقتله ترسل حالاً الى معاوية — كأنه أمر دبّر بليل .
بيدوا ان الخطوة أحكم تديرها ووضعت تفاصيلها بدقة . وسار
كل شيء على ما يرام ...

* * *

ومهما يكن الحال فقد استغل معاوية مقتل عثمان استغلالاً منقطع
النظير . ولم يشهد التاريخ « قيصاً » تؤسس به دولة كـقيص
عثمان — رحمه الله .

نشر معاوية قيص عثمان على منبر الشام فالتفت حوله الناس
يعولون ويصيحون واعثماناه .. قتل إمامنا مظلوماً !

يقول القرآن : « ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا
يسرف في القتل انه كان منصوراً » . استغل معاوية هذه الآية
القرآنية أعظم استغلال فذشرها بين اهل الشام وهو يقول : أنا ولي
عثمان والمطالب بدمه وسوف انتصر باذن الله .
ولقد انتصر معاوية باذن الله فعلاً .

زار معاوية عثمان إبان اشتداد الثورة عليه . ويقال إنه نصح
عثمان بأن يقتل علياً وطلحة والزبير زعماءهم سيقتلونه اذا لم يقتلهم .

فرفض عثمان هذه النصيحة ، وأصرّ على رفضه . عند ذلك قال له معاوية : « اجعل لي الطلب بدمك إن قتلت » . فأجاب عثمان على ذلك ^(١) .

إن هذه الرواية ، إن صحت ، تشير الى أن معاوية كان يدرك بدهائه مدى الفائدة التي يجنيها من مقتل عثمان على يد الثوار . ولعله هيا نفسه لها واستعد لها استعداداً كبيراً .

لولا « قيص » عثمان لما استطاع معاوية أن ينال الخلافة على أكثر احتمال . إن من الصعب جداً على رجل كان يحارب رسول الله ، هو وأبوه ، أن يصبح خليفة رسول الله في أمته بعد زمن قصير .

* * *

والغريب أن نرى معاوية يطالب علياً بدم عثمان ، فلما انتصر ترك دم عثمان ولم يطالب به احداً من قاتليه . ذكره البعض من اصحابه بدم عثمان ، بعد أن استتب له الأمر ، وسأله أن يأخذ بثاره فأبى . وطالبت ابنة عثمان بذلك ايضاً ، فقال لها يعزبها : « يا ابنة اخي .. ان الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أماناً ، وأظهرنا لهم حملاً تحت غضب ، وأظهروا لنا طاعة تحتها حق ، ومع كل انسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره . فان نكشنا بهم نكثوا بنا ولا ندري أعليتنا تكون أم لنا . ولأن تسكوني بنت عم أمير المؤمنين

خير من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين ... » (١)

إن هذا التصريح من معاوية عجيب . فهو يخشى أن يقتص من قتلة عثمان لثلا يشور الناس عليه ويفلت من يده زمام الخلافة . ومعنى هذا أنه كان يطالب بالخلافة — لا بدم عثمان .

لقد كان معاوية يطالب علياً بأن يسلمه قتلة عثمان ولا يقبل منه عنراً في ذلك . ولكنه عندما صارت إليه الخلافة وجد عنراً لنفسه في الأمر وقبل الناس منه هذا العذر .

* * *

ومن أعجب الأمور في هذا الصدد أن علياً لا يكثر بأمر القصاص من قتلة عثمان حين تولى الخلافة . وكان فوق ذلك يرعاهم ويحبهم ويعينهم في المناصب المختلفة .

يعتذر الأستاذ الخطيب عن علي في هذا ويقول إن علياً لم يكن قادراً على القصاص منهم لقوتهم وما كان يدعمهم من العصبية القبلية ، فهو لو قتلهم لفتح عليه باباً لا يستطيع سده بعد ذلك (٢) .

وهذا الاستداه لا يمكن قبوله لسببين :

أولاً : عرفنا علياً في عهد خلافته لا يراعي أحداً لقوته ولا يداري العصبية القبلية . وكان من أهم الأسباب التي اضعفت أمره تجاه معاوية أنه كان شديداً في العدل لا يجاري ولا يماري (٣) .

(١) انظر : عباس العقاد ، المصدر السابق ، ص ٨٣

(٢) انظر : ابن العربي ، المصدر السابق ، ص ١٤٦ و ١٦٤

(٣) انظر : أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج ١ ص ٧٣ — ٣٤

فالذي يضيّع الخلافة من أجل العدل لا يسكت عن القصاص اذا رآه واجباً .

ثانياً : إن علياً لم يسكت عن قتلة عثمان فحسب ، إنما راعاه وولاهم الأعمال الكبيرة واستعان بهم في كثير من الأمور . فمالك الأشتر ، زعيم السبأين في عرف الخطيب ، كان قائداً كبيراً من قواد علي في حرب البصرة وصفين ، وقد ولّاه علي بعد صفين ولاية مصر — كما هو معروف . ويؤثر عن علي أنه قال يمدح مالكا : « كان الأشتر لي كما كنتُ لرسول الله » (١) .

فكيف يجوز لعلي أن يستعين بالأشتر ويمدحه بينما هو يعلم بأنه كان من أكبر المخرضين على عثمان والساعين في قتله ؟ إن المشكلة أدق من هذا واعمق .

والغريب ان علياً وقف إثر مقتل الهرمزان موقفاً صارماً وطلب من عثمان أن يقتص له من قاتله عبيد الله بن عمر . وظل علي يريد الاقتصاص من عبيد الله الى الأخير ، ولو أمسك به لأقتص منه . نجد علياً يقف موقفاً صارماً تجاه من قتل رجلاً من الموالى ، بينما نراه غير مكترث تجاه من قتل الخليفة . إن في الأمر لسراً دفيناً ! الظاهر ان علياً كان في اعماق نفسه معتقداً بأن الحق مع الثوار ، ويرى أن المطالبين بدم عثمان أناس يريدون شيئاً آخر غير القصاص الشرعي .

(١) انظر : ابن أبي الحديد ، شرح النهج ، ج ١ ص ١٨٥

قال عليّ جواباً على كتاب أرسله اليه معاوية يطالبه بدفع قتلة عثمان اليه : « ... وأما ما سألت من دفع قتلة عثمان اليك ، فاني نظرت في هذا الأمر فلم أره يسعني دفعهم اليك ولا الى غيرك . ولعمري لئن لم تنزع عن غيِّك وشقاقك لتعرفنهم عن قليل يطلبونك ، لا يكلفونك طلبهم في بر ولا بحر ، ولا جبل ولا سهل ، إلا أنه طلب يسوءك وجدانه ، وزور لا يسرك لقيانه . والسلام على أهله » (١) .

وفي جواب آخر أرسله عليّ الى معاوية يتهمه فيه بشيء من الصراحة انه هو الذي قتل عثمان .

قال عليّ : « ... ثم ذكرت ما كان من أمري وأمر عثمان ، فلك أن تجاب عن هذه لرحمك منه . فأينا أعدى له واهدى الى مقالته : أمن بذل له نصرته فاستقعدته واستكفه ؟ أم من استنصره فتراخى عنه وبث المنون اليه حتى أتى قدره عليه ؟ كلا والله : لقد علم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلمّ الينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً ... » (٢) .

يتضح من هذين الكتابين أن علياً كان يعتبر معاوية هو الذي قتل عثمان بدسائسه . وعلي فوق ذلك يهدّد معاوية بأنه إن لم يرعو وينزع عن غيِّه فسيرسل اليه قتلة عثمان ليفعلوا به ما فعلوا بابن عمه عثمان .

(١) انظر : محمد عبده ، نهج البلاغة ، ج ٣ ص ١١

(٢) انظر : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٨ — ٣٩

إننا على أي حال لا نستطيع أن نتثبت من حقيقة هذين الكتابين ، هل هما صحيحان أم نسبا إلى علي كذبا .

إنهما مذكوران في نهج البلاغة . ونهج البلاغة لا يصح التعويل على جميع ما فيه . إذ أنه يُجمع بعد علي بمدة طويلة ، وربما دخل فيه كثير من الأقوال التي لم يتفوه بها علي أصلا .

ومهما يكن الحال فإننا لا نستبعد أن يصدر مثل هذين الكتابين من علي . ذلك أن ماجريات الأمور ومنطق الحوادث التي جرت في عهد علي تؤيد صحة هذين الكتابين المنسوبين إليه .

يروى الطبري : أن عليا قال على مسمع من قتلة عثمان :
« ... ثم حدث هذا الحدث الذي جرّه على الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا ، حسدوا من آفاه الله عليه على الفضيلة ، وأرادوا رد الأشياء على أديبارها » (١) .

يفسر الأستاذ الخطيب هذا القول بأن عليا كان يقصد به ذم الثوار أنفسهم (٢) . وهذا تفسير في منتهى الغرابة . فلو كان علي يريد ذم الثوار ويصفهم بأنهم أرادوا ردّ الأشياء على أديبارها ، فكيف جازله أن يستعين بهم في كفاحه ضد معاوية وأن يوليهم القيادات والمسؤوليات الكبرى ؟

أرجح الظن عندي أن عليا قصد بقوله هذا ذم قريش ، فهو

(١) انظر : الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٥ ص ١٩٤ .

(٢) انظر : ابن العربي ، المصدر السابق ، ص ١١١ .

يرى أنها حاسدة له على ما أفاء الله عليه من الفضل وأنها تريد إرجاع الأمور على ما كانت عليه في أيام الجاهلية الأولى . وهذا الظن الذي اذهب اليه تؤيده كثير من القرائن التاريخية .

كتب علي إلى أخيه عقيل يصف له قريشاً وموقفه منه ، فيقول :
« ... ودع عنك قريشاً وتركاضهم في الضلال وتجواهم في الشقاق .
فإن قريشاً قد أجمعت على حرب أخيك إجماعاً على حرب رسول الله ... قبل اليوم » (١) .

وصرح علي ذات مرة : « مالي ولقريش ؟ أما والله لقد قتلتهم كافرين ولأقتلهم مفتونين . . والله لأبقرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته . فقل لقريش فليضح ضجيعها » (٢) .
يقول المازني : انه لم يصح ان تكلم علي بشي من الشعر غير بيتين هما :

تلكم قريش تمناني لتقتلني
فلا وربك ما برؤوا ولا ظفروا

فإن هلكتُ فرهنُ ذمتي لهم
بذات ودقين لا يعفو لها أثر (٣)

١١ انظر : عباس العقاد ، المصدر السابق ، ص ٦١

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ١٤٠

(٣) انظر : ابن حزم ، الفصل في المال والنجس ، ج ٤ ص ١٣٧

ويروي الشريف الرضي أن علياً خطب مرة فقال : « اللهم إني استعديك على قريش ومن أعانهم فانهم قد قطعوا رحمي ، واكفأوا إناني ، واجمعوا على منازعتي حقاً كنت أولى به من غيري... »^(١) كل هذه القرائن تشير الى أن علياً كان يكره قريشاً وتكرهه قريش كراهة شديدة لا يخدم لها أوار . وهو كان يراهم يحاربونه لنفس السبب الذي حاربوا النبي قبله .

إن الأستاذ محب الدين الخطيب يعتقد بأن العداة بين علي ومعاوية كان عداةً طارئاً أثاره السبأيون . فالسبأيون وحدهم ، في نظر الخطيب ، يتحملون وز المسؤولية في ذلك العداة الطاحن . إنه يعدّ علياً ومعاوية على مبدأ واحد وعقيدة واحدة ، فكلاهما كان صالحاً خيراً يقصد وجه الله في جميع أعماله .

يقول الأستاذ : « أهل السنة المحمدية يدينون لله على أن علياً ومعاوية ومن معهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا جميعاً من أهل الحق ، وكانوا مخلصين في ذلك . والذي اختلفوا فيه إنما اختلفوا عن اجتهاد ، كما يختلف المجتهدون في كل ما يختلفون فيه . وهم لا خلاصهم في اجتهادهم مثابون عليه في حالتي الاصابة والخطأ ، وثواب المصيب أضعاف ثواب المخطئ ، وليس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر معصوم عن أن يخطئ... »^(٢)

(١) انظر : محمد عبده ، المصدر السابق ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨

(٢) انظر : ابن العربي ، المصدر السابق ، ص ١٦٨

وإننا لا نريد أن نناقش الأستاذ في رأيه هذا . فليس من المستبعد أن يكون مقصد علي ومعاوية واحد هو إطاعة أمر الله . هذا ولكن المشكلة آتية من ناحية أخرى — هي ماهية أمر الله وحقيقة كنهه . فكل إنسان في الزمن القديم يدّعي أنه يريد بعمله وجه الله . وكل إنسان في هذا الزمن يدّعي أنه يريد أن يموت في سبيل الوطن ! فالمشكلة هي ليست في إطاعة أمر الله . إنما هي بالأحرى في ماهية هذا الأمر وفي أسلوب تحقيقه .

كان علي ، ومن ورائه الأعراب والموالي ، يرون أمر الله في اتباع سنة العدل الاجتماعي والمساواة بين الناس . أما معاوية ، ومن ورائه قريش ، فكان يرى أمر الله في طاعة الأئمة . والأئمة في نظره فئة خاصة من الناس .

قال أحد الحكماء : ليست المشكلة هي في أن نكون بجانب الله . إنما هي بالأحرى في أن يكون الله بجانبنا . فكل واحد منا يدّعي أنه مع الله . ونريد أن نعرف هل يرضى الله أن يكون معه .

خطب علي بعد تسلمه زمام الخلافة ، فقال : « أيها الناس . إنما أنا رجل منكم ، لي مالكم ، وعليّ ما عليكم . وإني حاملكم على منهج نبيكم ، ومنفّذ فيكم ما أمرت به . ألا إن كل قطعة أقطعها عثمان ، وكل مال أعطاه من مال الله ، فهو مردود في بيت المال . فإن الحق لا يبطله شيء . ولو وجدت قد تزوّج النساء ،

وملك الاماء ، وفُرق في البلدان لردده . فان في العدل سعة ،
ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق ... » (١)

يقول المدائني : « فقد كان علي بن أبي طالب لا يفضل شريفاً
على مشروف ولا عربياً على عجمي ، ولا يصانع الرؤساء وأمراء
القبائل ، فكان هذا من آكد الأسباب في تقاعد العرب عنه » (٢) .
ويروى : « أن طائفة من اصحاب علي مشوا اليه ، فقالوا : يا أمير
المؤمنين اعط هذه الأموال ، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب
وقريش على الموالي والعجم ، واستمل من تخاف خلافة من الناس —
وإنما قالوا ذلك لما كلف معاوية يصنع في المال — فقال لهم :
أتأمروني أن اطلب النصر بالجور ؟ ! » (٣)

فالمشكلة إذن اعمق مما يتصور أستاذنا الخطيب ومن لف لفه
من وعاظ السلاطين . فهي ليست مشكلة من يكون مع الله . إنما
هي مشكلة من يكون الله معه .

يحكى أن رجلاً رأى علياً ومعاوية يتحاربان فقال :

الصلاة خلف عليٍّ أتم

والطبيخ عند معاوية أدمم

والقعود على الجبل أسلم

(١) انظر : سيد قطب ، المصدر السابق ، ص ١٩٦

(٢) انظر : أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج ١ ص ٢٢

(٣) انظر : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣ — ٢٤

والواقع أن القعود على التل ، في مثل هذا الموقف الحرج ،
أسلم . وقد دعي الى ذلك سعد بن أبي وقاص وعدد من الصحابة ،
فقالوا عن تلك الحرب انها فتنة وان الله يأمر باجتنابها . وقد نجح
سعد باجتنابها فعلاً ، حيث ترك الحرب تأكل الناس وهو قابض في
برجه العاجي يتأمل .

إن هذه السياسة الاعتزالية لا يقدر عليها إلا القليل من الناس .
فالناس في هذا فريقان : فريق مترف يريد أن يحافظ على
امتيازاته الطبقية ، وفريق آخر محروم تكاد تلتهب أحشاه ناراً .
ولا يستطيع أحد هذين الفريقين أن يهدأ أو يقعد على التل .
لا يستطيع القعود على التل إلا المطمثون المرفهون الذين
خلصت نفوسهم من الألم وسلمت مصالحهم من الخطر .
والحكومة الصالحة هي التي تجعل رعاياها مرفهين مطمئين ،
لا يتدمرون ولا يطمعون . وبذلك تجعلهم من اصحاب التل جميعاً .



كانت قريش في ايام الجاهلية تداري القبائل العربية وتحاول
التروءس عليها . وساعدها في ذلك أمران : سدانة الكعبة ورعاية
الأسواق الأدبية . فكانت قريش تحسن وفادة الذين يأتون الى
الحج منهم من جهة ، وتمنح الجوائز لشعرائهم في الأسواق الأدبية

من الجهة الأخرى . وبهذا صار الأعراب ينظرون الى قريش نظرة احترام وتقدير .

يقول البغدادي عن العرب في ذلك الحين : « يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض فلا يُعبأ به ولا ينشده أحد حتى يأتي مكة في موسم الحج فيعرضه على أندية قريش فان استحسوه روي وكان خيراً لقائله وعُلق على ركن من اركان الكعبة حتى ينظر اليه ، وإن لم يستحسوه طُرح ولم يُعبأ به »

جاء الاسلام فانزل قريشاً من عليائها وأفقدتها تلك المسكنة الدينية والأدبية التي كانت تباهي الأعراب بها .

وأخذ الشعر يتضاءل شأنه في عهد النبي وفي عهد خليفته أبي بكر وعمر . وكره النبي الشعر واعتبره من تراث الجاهلية البائد ولم يأذن به إلا في سبيل الدفاع عن الدين .

يقول البرفسور نيكلسون ، أستاذ الأدب العربي في جامعة كمبرج : ان الشعراء كانوا من أعدى اعداء النبي محمد في بدء دعوته . فقد كانوا يسخرون من دينه ... وقد أهمل شأن الشعر عند ظهور الاسلام ، ذلك لأن الاسلام أسس نظاماً دينياً وسياسياً نسف به جميع ما كان في المجتمع البدوي القديم من تراث (٢) .

كان الشعر في ايام الجاهلية ديوان العرب ووسيلة كبرى من

(١) انظر : أحمد الخوافي ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، ص ١٢٩

(٢) انظر :

وسائل فخارهم القبلي . ولم تهتم أمة من الأمم بشيء كما اهتمت أمة العرب بالشعر . فكان الشعر سلاحاً ثانياً يساعد السيف في تنازع البقاء الذي كان شديداً في حياة الصحراء آنذاك ^(١) . وربما فضل العرب الشاعر على الفارس ^(٢) . حيث كان الشعر أقوى على عون القبيلة البدوية من الفارس أحياناً .

أما في الاسلام فقد ذهبت دولة الشعر وحلت محلها دولة الخطابة ^(٣) . وذلك لتحول المجتمع من نظامه القبلي القديم الى نظامه الديني الجديد . وبذا أمست الحاجة الى الواعظ والمبشر أشد منها الى الشاعر الذي يثير الأضغان بين القبائل .

يبدو أن معاوية أدرك هذا . ولعله أراد أن يستجذب قلوب الأعراب اليه فأخذ يرعى الشعر ويحرض الناس عليه ، وينفخ الحياة فيه من جديد بعد أن كاد يميتته الاسلام .

قال معاوية : « اجعلوا الشعر اكبر همكم واكثر آدابكم ، فانه مآثر اسلافكم ومواقع ارشادكم » . واخذ يبالغ في إكرام الشعراء واقتدى به خلفاؤه وأمرأؤه ^(٤) .

رأينا فيما سبق كيف أن عمر بن الخطاب عزل خالداً من القيادة

١) انظر : Hitti , history of The Arabs , p. 88

(٢) انظر : جرجي زيدان ، التمدن الاسلامي ، ج ٣ ص ٢٧

(٣) انظر : المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٠٢

(٤) انظر : المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٠٢ و ١١٥

وحاكمه على ما كان يهب الشعراء من جوائز وفيرة تنافي
طبيعة الاسلام.

أما معاوية فلم يكثر هذه المنافاة وأخذ يصدق على الشعراء من
الجوائز ما ذكرهم بالأسواق الأدبية التي كانت ترعاها قريش قديماً .
ولعله استطاع بذلك أن يرجع الى الأذهان سودد قريش الماضي .

وجاء بعد معاوية ابنه يزيد فسار على خطه أبيه في تشجيع الشعر
وغالى فيها . يقول الدكتور طه حسين : « ... وأما يزيد فقد كان
صورة جده أبي سفيان ، كان رجل عصبية وقوة وفتك وسخط على
الاسلام وما سنه للناس من سنن . فأغرى كعب بن جعيل بهجاء
الأنصار ، فاستعفاه وقال : أتريد أن تردني كافراً بعد إسلام ؟
فأغرى الأخطل وكان نصرانياً فأجابه وهجا الأنصار هجاء مقدماً
مشهوراً » (١) .

كان يزيد أكثر من أبيه ميلاً الى القيم البدوية القديمة وأبعد
منه عن روح الاسلام . فهو قد نشأ في البادية وكانت أمه بدوية
مفرقة في البداوة حتى اشتهر عنها أنها كانت تفضل سكنى الخيمة
على سكنى القصر الباذخ .

وكان يزيد نفسه شاعراً من فحول الشعراء ، يحب الصيد والخر
والفرل على طريقة اهل البادية . وكل عهده انتكاساً مكشوفاً
في تاريخ الاسلام .

(١) انظر : طه حسين ، في الأدب الجاهلي ، ص ١٣٥

وكان يزيد يكره بني هاشم ويكره الأنصار كرهاً شديداً .
والظاهر ان معاوية كان يشعر بهذا الكره ، إنما كان يداريه
ويحاول اخفائه ^(١) . أما يزيد فكان شاباً مزهواً لا يعرف المداراة
والمداجاة . وبهذا ظهر عليه الكره لبني هاشم والأنصار بجلاء .
وهذا أمر طبيعي لا داعي للتعجب منه . فقد قتل في معركة بدر
من كبراء أسرته أفراد لهم وزنهم . وظلت جدته هند تتعالم
وتلبس الحداد عليهم مدة طويلة . وقيل إنها افتخرت على الخنساء
في سوق عكاظ بعظم ثكلها وشدة حزنها على من فقدت في واقعة
بدر المشؤومة . وهي التي حرّضت وحشياً على اغتيال حمزة عم النبي ،
ثم أكلت كبده انتقاماً .

فيزيد لا يستطيع أن ينسى ثارات عائلته . إن ثارات العائلة
أهم من عقائد الدين في نظر أهل البداوة . ومن يدرس قيم القبائل
البدوية في هذا العصر ير مصداق هذا بكل وضوح .

إن يزيد لا يستطيع أن يزجح عن قلبه العقد الدفينة التي أورثتها
فيه حروب محمد إذ قُتل فيها أخواله وأعمامه . ولعل تلك القسوة ،
التي قُتل بها بنو هاشم في واقعة كربلاء وقُتل بها الأنصار في واقعة
الحرّة ، تشير الى ما كان في قلب يزيد من كره دفين تجاه
هؤلاء الواترين .

يقول الدكتور طه حسين : « قلت إن يزيد كان صورة صادقة

(١) انظر : المصدر السابق ، ص ١٣٦

لجده أبي سفيان ، يؤثر العصبية على كل شيء . وأنت لا تسكر أن يزيد هو صاحب وقعة الحرة التي انتهكت فيها حرمت الأنصار في المدينة والتي انتقمت فيها قريش من الذين انتصروا عليها في بدر والتي لم تقم للأنصار بعدها قائمة . ولأمر ما يقول الرواة حين يقصون وقعة الحرة انه قتل فيها ثمانون من الذين شهدوا بدرأ أي من الذين أذلوا قريشاً ^(١) .

* * *

إن قريشاً أخذوا يعملون ، حين استتب لهم الأمر ، على ارجاع ذلك السؤدد الذي كان لهم في أيام الجاهلية . فصاروا ينتقمون ممن ساعدوا محمداً على دعوته — انتقموا منهم عن طريق السيف وانتقموا منهم عن طريق الشعر . والسيف والشعر ، كما قلنا ، هما سلاحا البداية للذان لا ثالث لهما .

وجاء عبد الملك بن مروان بعد ذلك فغالى في تشجيع الشعر وذهب في ذلك الى ابعد الحدود . يقول الثعالبي : انه كان من اكثر الخلفاء رغبة في الشعر فكان الناس في أيامه حيثما اجتمعوا يتناشدون الأشعار ويتدارسون أخبار الشعراء ^(٢) .

وعاد العرب في عهد بني أمية ، كما يقول الدكتور طه حسين ، الى شر مما كانوا فيه في جاهليتهم من التافس والتفاخر القبلي ^(٣) .

(١) انظر : المصدر السابق ، ص ١٣٦

(٢) انظر : جرجي زيدان ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٠٢

(٣) انظر : طه حسين ، المصدر السابق ، ص ١٣٥

ورجع الشعر الى ما كان عليه في ايام عكاظ من سلطان
وفوذ اجتماعي . واصبح الناس آنذاك يقضون معظم اوقاتهم في
الجلد حول الشعر والشعراء وفي المفاصلة بينهم . وكثيراً ما كانوا
يتخاصمون وترفع أصواتهم^(١) ، وربما اهتم الخليفة أو الأمير بذلك
الخصام فبعث الى بعض الاخصائيين في الشعر يسأله عن رأيه^(٢) .

* * *

يولي البرفسور نيكلسون عناية كبيرة لبحث هذا الموضوع .
فهو حين بحث تاريخ الشعر العربي وصلته بالتطور السياسي والاجتماعي
الذي حدث في الاسلام تطرّق الى الأمويين وأخذ يدرس أثر
نزعتهم الجاهلية في رجوع الشعر الى مكانته البائدة .
يشرع البرفسور نيكلسون بالبحث قائلاً : « ... إن سلوك
الأمويين الغير الديني أثار سؤالاً حول ما اذا كان الأمويون الذين
دخلوا الاسلام في الساعة الحادية عشر لا يزالون وثنيين في اعماق
قلوبهم ؟ »^(٣) .

(١) ان ما فعله الأمويون من اشتغال الناس بالشعر بقي عند العرب حتى
عصرنا هذا ، وصار فيهم داءاً وبلاء . فالتقنون منهم لا يهتمون
بما يصب على رؤوسهم من المصائب بقدر اهتمامهم بما قال جرير وما قال
الفرزدق من رقيق الشعر . وصار من علامات المثقف عندهم أن يعرف
الشعراء التي قيلت في الأباقر والأطلال ويعرف ان قال أصلاً ق ول .
ولسوف نبحث هذا الداء الاجتماعي بأسباب في كتابنا القادم « العراق
وقم البداوة » .

(٢) انظر : جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ١ ص ٢٢٣

Nicholson , op cit p. 190

(٣) انظر :

يجيب نيكلسون على هذا السؤال بالإيجاب ، ويرى أن الشعراء الذين ظهروا في عهد بني أمية قلّدوا طريقة الشعراء القدماء تقليداً واضحاً كأنما لم يأت ثمة دين جديد ^(١) .

يقول نيكلسون : « فبدلاً من تمجيد الانتصارات الرائعة التي تمت على أيدي المسلمين المجاهدين ، أخذ الشعراء يكون على اطلاع مخيمات البادية ويتغنون بركوب البعير الذي لا يسبقه سابق على فيافي الرمال ، ويخاطبون الخليفة كأنه شيخ بدوي من شيوخ ذلك الزمان » ^(٢) .

يعجبني هذا الوصف من نيكلسون . فهو يذكرني بما عليه شعراء العرب في زماننا هذا من انهماك بالنظم على طريقة الجاهليين . إنهم يعيدون الآن مجد الأجداد — والعياذ بالله .



إني لا أشك في أن الأمويين استخدموا الشعر في سبيل إلهاء العرب وتخديرهم وفي سبيل إرجاع ذكريات المجد القديم إلى أذهانهم لكي ينسوا بذلك أثر الاسلام .

وأخذ الأمويون فوق ذلك يضربون على وتر آخر من أوتار قلوب العرب — هو وتر الفخار القبلي والعصبية البدوية .

أثار الأمويون النزاع القديم بين قحطان وعدنان ، واشعلوا فيه

ناراً لا تخمد . وساعدتهم في ذلك الشعر الذي يلهب القلوب .
 في كل جيل نجد النزاع بين القحطانيين والعدنانيين ، أو بين
 يمان ومضر كما كانوا يسمونهم أحياناً ، يأخذ شكلاً جديداً ،
 وينمو على مر الأيام ^(١) .

وبهذا حفظ الأمويون التوازن بين العرب حيث جعلوهم
 لا يتفقون على شيء إلا بما يشاؤونه لهم .

وعمل الأمويون كذلك على إثارة قلوب العرب ضد غيرهم من
 الأقوام . فصارت دولة بني أمية بذلك دولة عربية شعرية ^(٢) ،
 لا تفهم الاسلام إلا على أساس قومي بدوي .

أخذ العرب في أيام بني أمية يعتبرون الاسلام جاء للعرب لكي
 يرفع مكانتهم بين أمم الأرض . واصبح محمد في نظرهم بطلاً قومياً
 من طراز جنسكيز خان .

صار الأعراب الذين دخلوا الاسلام مؤخراً محتقرين في نظر العرب
 على عهد بني أمية . واخذ العرب يطلقون عليهم أسماء مستهجنة كأن
 يسمونهم « النبط » أو « الحمراء » أو « الموالي » . وانتشر بينهم
 المثل القائل : « لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة : حمار و كلب ومولى » ^(٣) .

(١) انظر : Hitti , op. cit. , p. 280 — 281

(٢) انظر : الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٣ ص ٢١٧

(٣) انظر : جرجي زيدان ، التمدن الاسلامي ، ج ٤ ص ٦١

وكان كل من يدعو العربي بقوله : « يانبطي » أو « يا ابن الحجام »
أو « يا ابن الخياط » يستحق العقوبة في نظر الفقهاء ^(١) .
قال معاوية لأصحابه ذات يوم : « إني رأيت هذه الحمراء
وأراها قد قطعت على السلف وكأني أنظر الى وثبة منهم على العرب
والسلطان فرأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لاقامة السوق وعمار
الطريق فما ترون ؟ » . فتنعه اصحابه من انجاز هذا المشروع العظيم ^(٢)
وبلغ من احتقار العرب للعوالي أنهم كانوا لا يستسيغون أن
يركب المولى دابة بمحضورهم . يقول الأصفهاني : « ... اذا اقبل العربي
من السوق ومعه شيء فرأى مولى دفعه اليه ليحمله عنه فلا يمتنع ،
ولا السلطان يغير عليه ! ولكن اذا لقيه راكباً وأراد أن ينزل
فعل ... » ^(٣)

لقد أصبحت الدولة الأموية دولة عربية خالصة . والتف العرب
حول بني أمية يؤيدونهم بسيفهم . وبهذا دخل الدين الاسلامي في
طور جديد — هو طور الغرور القومي والفتح والاستعمار .
جاء الاسلام ليقضي على الكسروية فأقام محلها كسروية
أخرى . ولم تختلف الكسرويتان إلا بطلاء خفيف من الطقوس

(١) انظر : مالك بن أنس ، المدونة ، ج ٤ ص ٣٩٢

(٢) انظر : جرجي زيدان ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٦٢ — ٩٣

(٣) انظر : أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج ١ ص ٢٦

الدينية — تلك كانت تستعبد الناس باسم هرمز ، وهذه تستعبد
الناس باسم الله الواحد القهار .

* * *

حاول عمر بن عبد العزيز ، الخليفة الزاهد ، أن يرجع الأمور
إلى ما كانت عليه في أيام جده عمر بن الخطاب وسار في ذلك سيرة
عظيمة . إلا أن المنية عاجلته — والله وحده يعلم كيف ولماذا عاجلته
المنية قبل أن يتم ما شرع به .

لو درسنا سياسة عمر بن عبد العزيز لوجدناها تناقض السياسة
الأموية في مختلف أصولها :

(١) فهو أولاً قد منع الشعراء من الوقوف ببابه وأعلن أنه
لا يقبل الشعر ولا يقابل الشعراء^(١) . واعتبر جوائز الشعراء سرقات
من بيت مال المسلمين .

(٢) وأدنى إليه الفقهاء والزهاد وأبعد عنه الجلاوزة — أولئك
الذين كانوا يعبدون الله وينهون عباد الله فقد عزل كل رجل
ولغ في دماء المسلمين ، وأمر بعزل كل ظالم وإن كان ذا قرابة
لأمير المؤمنين^(٢) .

كان الأمويون يفخرون بالحجاج ويعبدونه من أبطالهم الأفاضل .
جاء عمر فقال عن الحجاج : « لو أن الأمم تخابثت يوم القيامة

(١) انظر : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ١ ص ١١٥

(٢) انظر : سيد الأهل ، الخليفة الزاهد ، ص ١١٣

فأخرجت كل أمة خبيثها ثم أخرجنا الحجاج لعلبناهم « (١) » .

(٣) ورد عمر جيوشه من الثغور فعطّل الفتوح التي كادت تحترق أوروبا من الشرق والغرب . فخالف بذلك أسلافه من بني أمية في سياسة الفتوح ، لأنه كان يشهد تلك الفتوح لم تسكن في سبيل الدين . فهي قد ارتدت كلها تطلب الثروة والسبايا والعبيد وصارت مهبطة للامراء والولاة على البلدان .. (٢) »

كان عمر يعتبر العدل الداخلي أهم من التوسع الخارجي .

(٤) ومنع من سب علي بن أبي طالب في خطب المنابر وفي الصلاة . وكان أسلافه قد جعلوا هذا السب سنة مفروضة . ويقال ان اهالي حران ساءم هذا المنع فقالوا : « لا صلاة إلا بلعن أبي تراب » .

وفد اليه أحد موالي علي بن أبي طالب وهو خائف لا يستطيع أن يجهر بهويته . فقال له عمر رافعاً صوته : « وأنا مولى علي .. أتكتأمني ولأه علي ؟ حدثني سعيد بن المسيب عن سعد بن أبي وقاص ان النبي قال : من كنت مولاه فعلي مولاه » (٣) .

(٥) ونظر الى الكعبة ومسجد المدينة ومسجد دمشق فوجد

(١) انظر : ابن الجوزي ، سنة الصفوة ، ص ٨٩

(٢) انظر : سيد الأهل ، المصدر السابق ، ص ١٩٨ — ١٩٩

(٣) انظر : المصدر السابق ، ص ٢٠٨

فيها صفائح الذهب وسلاسل القناديل والرخام والفسيفساء^(١) ، فقال :
 « رأيت أموالاً انفقت في غير حقها ، فأنا مستدرك منها فواده في
 بيت المال : أعمد الى ذلك الفسيفساء والرخام فاقلعه وأطيشه ، وانزع
 تلك السلاسل وأجعل مكانها حبالاً ، وانزع تلك البطائن وابيع
 جميع ذلك . من مسجد المدينة ومسجد دمشق »^(٢) .

كان العدل واسعد الناس في نظر عمر بن عبدالعزيز أولى من
 تذهيب المساجد وزخرفتها .

وكتب اليه سدنة السكبة يطلبون منه كسوة جديدة كعادتهم
 مع الخلفاء قبله ، فأجابهم : « إني رأيت أن أجعل ذلك في أكباد
 جائعة فانه أولى بذلك من البيت »^(٣) .

(٦) كان الأمويون قبل عمر يكرهون أن يدخل الاسلام أحد
 من أهل الذمة لثلاث تنقص الجزية . وقد لجأوا أخيراً الى أخذ الجزية
 من الذين يدخلون الاسلام منهم . فلما جاء عمر بن عبدالعزيز منع
 من ذلك وقال : إن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جانياً^(٤) .

(٧) وساوى بين العرب والموالي في العطاء . وجيء اليه

(١) يقال ان الوليد أنفق في بناء المسجد الأموي في الشام خمسة ملايين
 وستائة ألف دينار من الذهب . ودام العمل في بنائه وزخرفته أكثر
 من عشرين عاماً ، واشتغل فيه اثنا عشر ألف صانع ، حتى صار أحد
 عجائب الدنيا .

(٢) انظر : الدميري ، حياة الحيوان ، ج ١ ص ٦٦

(٣) انظر : سيد الأهل ، المصدر السابق ، ص ١٦١

(٤) انظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ١٥٧

ذات يوم يسارق فشكا السارق اليه حاجته ، فعذره عمر وعفاه من العقاب وأمر له بنحو عشرة دراهم ^(١) .

وجاء اليه أهل حمص يشكونه روحاً ، أحد أبناء الوليد ، إذ كان الوليد قد أقطعه حوائثهم وكتب له بها صكاً . فأمر عمر بأن يضرب عنق روح .. فلما رأى روح السيف مصلتاً سلّم الحوائث لأصحابها وهو ذليل مقهور ^(٢) ، حيث لم ينفعه صك أمير المؤمنين . أنجز عمر بن عبد العزيز هذه الأعمال ، وأنجز كثيراً غيرها ، خلال سنتين تقريباً — ثم مات .

قيل إنه مات مسموماً ^(٣) . فمن سمه يا ترى ؟ من الممكن القول : ان السبائين هم الذين سمّوه . والله أعلم .

* * *

وصف شوقي نبي الاسلام فقال :

فرسمت ربك للعباد حكومة

لا سوقة فيها ولا أمراء

الله فوق الخلق فيها وحده

والناس تحت لوائها أكفاء

(١) انظر : سيد الأهل المصدر السابق ، ص ١٩٣ و ١٧٥

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ١١١ — ١١٢

(٣) انظر : ابن عبد ربه ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٤٠

والدين يسر والخلافة بيعة
والأمر شورى والحقوق قضاء

الاشتراكيون أنت إمامهم
لولا دعاوى القوم والغلواء

لقد كان محمد كما وصفه شوقي حقاً . فمحمد قد جاء بدين
المساواة والعدل والرحمة بالناس جميعاً . ومن المؤسف أن نرى هذا
الدين الاشتراكي يتحول على يد قريش الى دين للسيطرة والتعالي
والاستعباد .

إن دين المساواة ، الذي جاء به محمد بن عبد الله ، دُفن مع
علي بن أبي طالب في قبره .

الفضل السام

عمار بن ياسر

إذا درسنا الصراع الاجتماعي الذي نشب بين قريش والغوغاء ،
في عهد عثمان وبعد عهده ، وجدنا عماراً بن ياسر يلعب دوراً هاماً فيه .
ولعل الدور الذي قام به عمار في ذلك الصراع يفوق من بعض
النواحي دور أي رجل آخر . وقد يصح أن نقول أنه كان أشد من
أبي ذر في ثورته على عثمان وأكثر صراحة ومجاهدة فيها . وقد قام
من جراء ذلك عنتاً أكثر مما قاساه أبو ذر .

وتختلف شخصية عمار عن شخصية أبي ذر من عدة وجوه .
فأبو ذر كان بدوياً من قبيلة واغلة في حياة الصحراء — هي قبيلة
غفار . أما عمار فكان عبداً حضرياً ولد في مكة وعاش في قيد
الرق مدة طويلة .

وكان عمار أسمر اللون أو لعله كان أميل إلى السواد منه إلى
السمر . وقد جاءه هذا اللون وراثته من أمه الحبشية . ومما تجدر
الإشارة إليه أن العرب كانوا في ذلك الحين يحترقون من كان شديد
السمر أو أسود . فكان من علامات الشرف عندهم أن يكون
أبيض . وإذا مدحوا أحداً قالوا عنه أنه « أبيض يستسقي الغمام
بوجهه » . وإذا أشاروا إلى جماعة يمدحونها قالوا : « إلى النفر
البيض » .

وربما نشأ هذا عند العرب من كونهم يكرهون العبودية بشتي صورها . واللون الأسود كان في الغالب لون العبيد . ولا يزال أبناء العشائر في العراق اليوم يحتقرون من يكون في نسبه عرق من العبودية . ومن يسب احداً بمسبة العبودية يستحق العقوبة عندهم ويُطالب بما يدعى في عرفهم العشائري بالحشم ^(١) . والظاهر أن عمار بن ياسر كان يعاني من هذه المسبة ألماً عظيماً .

كان القرشيون لا ينفكون يطلقون على عمار لقب « العبد الأسود » . أطلقه عليه مروان حين كان يحرض عثمان على قتله ، إذ قل له : « ان هذا العبد الأسود قد جرأ عليك الناس . وانك إن قتله نكأت به من وراءه » . فضربوه حتى غشي عليه ^(٢) . واشتكى خالد بن الوليد عماراً الى النبي وأشار اليه بقوله : « هذا العبد » ^(٣) .

وتحدث عنه معاوية في معركة صفين فقال : « هلكت العرب ان أخذتهم خفة العبد الأسود » ^(٤) .

وكان عمار يتحدث قريشاً في ذلك ويقول مدافعاً عن نفسه : « ان الكريم من اكرم الله . كنتُ وضعياً فرفعني الله ، ومملوكاً

(١) انظر : ربيع المزهري آل فرعون ، القضاء العشائري ،

ص ١٠٥ — ١٠٧

(٢) انظر : عباس العقاد ، عبقرية الامام ، ص ٦٦

(٣) انظر : عبد الله السيبي ، عمار بن ياسر ، ص ١٠٦

(٤) انظر : المصدر السابق ، ص ١٧٥

فاعتقني الله ، وضعيفاً فقوأي الله ، وفقيراً فاغنائني الله . قال عمار
هذا القول عندما أشار عمرو بن العاص الى نسبه الوضيع وعيَّره
بأمه السوداء (١) .

ومنطق عمار هذا هو منطق أبناء الصعاليك الذين صعدوا مدارج
الرقى بأنفسهم . وهذا المنطق لا يفهمه أبناء النبلاء طبعاً . فأصحاب
الشرف الرفيع يعتبرون الشرف كل شيء في الوجود ، ولا يعدون
الكفايات الشخصية مغنية عن النسب والحسب .

رأينا هذا واضحاً في أبناء الذوات في عصرنا هذا ونراه في كل
زمان ومكان .

إن العصامي من أبناء الصعاليك يكون شعاره : « ها أنا ذا » ،
وشرفه في كفايته الشخصية . ولكن هذه دعوى فارغة في نظر النبلاء
أصحاب الحسب والنسب . وهم يعتبرونها « دعوى عاجز » .
كان عمار يشعر بحقد دفين ضد القرشيين الذين عذَّبوه ثم
تكبروا عليه واخذوا يعيِّرونه بأمه في كل حين . إنه يرى أمه
أول شهيد في الاسلام وهو يعدّها لذلك مصدر فخار له . هذا بينما
كان القرشيون يعتبرونها مصدر ذل وعار له لأنها كانت عبدة
سوداء . فهو يسمي نفسه « ابن الشبيدة » وهم يسمونه « ابن
السوداء » .

ومشكلة البشر آتية من كونهم يقيسون الأمور بمقاييس مختلفة .

كل منهم ينظر في الأمور من ناحيته الملائمة له ويستهنن ناحية غيره .
حدثت مشامة بين عمار وبين عبد الله ابن أبي سرح اثناء بيعة
عثمان . فقد تدخل ابن أبي سرح في صالح عثمان فثار عليه عمار
وشتمه قائلاً : « متى كنت تنصح المسلمين ؟ ! » فرد عليه أحد
انصار بني أمية قائلاً : « لقد عدوت طورك يا ابن سمية ، ما أنت
وتأثير قريش لنفسها ؟ ! » (١)

فهم يعيرون عمار بأمة . ومن ابشع الشتائم عند العرب أن
يلعن الرجل باسم أمه . إنهم يخاطبونه « يا ابن سمية » ويقولون عنه
أنه عدى طوره إذ تدخل في أمور اسباده القرشيين . أما هو فيرى
نفسه أفضل منهم وأشرف حيث شرفه الاسلام وفضله ، وهو
إذن أحق منهم بالنظر في أمر خلافة المسلمين .

إنه لا يفهمهم وهم لا يفهمونه . كل فريق ينظر في الأمور من جانبه
الخاص . وكل له مقاييسه الخاصة به . إنها جانبان متناقضان —
ولا يلتقيان !

وسيرة عمار سيرة فذة فيها كثير من العبر لمن يريد أن يعتبر .
وقد يصح أن نعتبره نموذجاً لرجل نشأ وضيعاً محتقراً ثم جاهد طويلاً
حتى صعد في سلم المعالي الى درجة فاق بها اولئك الذين كانوا
يحتقرونه .

(١) انظر : عبد الحميد السحار ، أهل البيت ، ص ٦٣

ومما تجدر الإشارة إليه ان عماراً لاقى عند إسلامه من الاضطهاد والتعذيب على يد قريش ما لم يلاق أحد غيره . وقد اشتهر عمار بما عذبه قريش به . وكانت قصة تعذيبه مثلاً صارخاً للاضطهاد الذي كانت قريش تتبع به انصار الدين الجديد . وقد امتاز عمار بأنه كان يعذب هو وافراد أسرته في آن واحد . وأدى تعذيبهم الى موت أمه وأبيه . ثم رُمي أخوه من فوق جدار فمات في سبيل الاسلام . وبقيت آثار التعذيب في بدن عمار حتى أيامه الأخيرة .

يحدثنا محمد بن كعب القرظي فيقول : إنه رأى عماراً ذات يوم عاري الظهر ، وكان متجرداً في سراويل ، فرأى في ظهره ندوباً وآثار جروح وأورام . فسأله عن ذلك ، فأجاب عمار : « هذا مما كانت تعذبني به قريش في رمضان مكة » (١) .

يبدو أن هذا الاضطهاد الفظيع قد اورث في عقله الباطن عقدة نفسية ضد قريش . وهذا أمر غير مستغرب . فليس في هذه الدنيا أحد يُعذب بمثل ما عذب به عمار ، ويُقتل اثناء التعذيب أبوه وأمّه وأخوه ، ثم ينسى ذلك — إلا أن يكون حماراً .

ومن مقتضيات العقدة النفسية أنها لا تفهم المنطق . فهي اندفاع لاشعوري يدفع صاحبه نحو الهدف من غير روية ولا تفكير . وارجح الظن ان عماراً كان يحمل تجاه قريش ، حتى بعد إسلامها ، كرهاً لاشعورياً عميقاً .

(١) انظر : عبد الله السيبي ، المصدر السابق ، ص ٤٠

ومن الممكن القول بأن عماراً صار بعد نشوء هذه العقدة فيه حاد المزاج عصيباً . ولعل حدثه هذه ازدادت حيناً رأى مضطهديه الأولين يرجعون الى السيادة في أيام عثمان . وهو ربما تذكر آنذاك تلك الأوقات العصيبة التي مات فيها أبوه وأمه وأخوه تحت التعذيب ، في رمضان مكة ، فهاجت اشجانه .

وكان عمار يتسرع في الشتم والثلب حين يرى نبيلاً قرشياً مثلاً أمامه . وكان نبلاء قريش يتحامونه لمكانته من النبي ، ومن أبي بكر وعمر بعد ذلك . فكان عمار يشتمهم لأي سبب تافه أو جليل وهم لا يردون عليه .

قيل إنه شتم خالد بن الوليد مرة فجاء خالد الى النبي يشكوه قائلاً : « يا رسول الله أتدع هذا العبد يشمني ؟ والله لولا أنت ما شتمني ! » (١) .

وشتم في يوم آخر عمرو بن العاص . فقال له عمرو بدهاء أمام الناس : « أتشتمني ولم أشتك » (٢) .

وشتم عباساً بن عتبة بن أبي ذب في موقف آخر ... (٣)
ووقف عمار اثناء الشورى التي انتهت ببيعة عثمان موقفاً عتيقاً .
فكان عمار يكره عثمان ويريد البيعة لعلي بن أبي طالب . وكأنه اعتبر عثمان رمزاً لقريش .

(١) انظر : المصدر السابق ، ص ١٠٦

(٢) انظر : عبد الحميد السجار ، المصدر السابق ، ص

(٣) انظر : ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ص ٦٤

ولما استتب الأمر لعمان تألم عمار ألماً شديداً ووقف في المسجد يتوعد ويهدد . وظل يحمل راية العداء لعمان بلا انقطاع حتى النفس الأخير (١) .

قلنا إن شخصية عمار تختلف عن شخصية أبي ذر من بعض الوجوه . فأبو ذر شخص بدوي من أبناء القبائل . أما عمار فكان عبداً حضرياً من أهل مكة ومن المستضعفين فيها . وشخصية البدوي تختلف من حيث التكوين عن شخصية المستضعف الحضري .

إن الشخصية البشرية تستند في تكوينها على ما في البيئة الاجتماعية من قيم ومقاييس لاشعورية . فهي ، إلى حد ما ، صورة من صور التركيب الحضاري السائد في تلك البيئة (٢) .

ولو درسنا شخصية أبا ذر لوجدنا القيم البدوية ظاهرة عليها . فهو قد اعتاد في حياته القبلية على المساواة بين أبناء القبيلة وعلى الاشتراك في غنائمها ومرافقها على أساس متعارف هنالك . ولعل هذا كان من أسباب ما رأينا في أبي ذر من دعوة للاشتراك وإيثار للعامل في تقسيم المال .

أما عمار بن ياسر فكان يدعو إلى شيء آخر . إنه كان ثائراً كأي ذر . وربما كان أشد ثورة من أبي ذر على المترفين من قريش .

(١) انظر : طه حسين ، الفتنة الكبرى ، ج ١ ص ١٦٧

(٢) انظر :

ولكنه لم يكن يدعو الى الاشتراكية في المال بقدر ما كان يدعو الى الايمان الصحيح .

إنه كان يعتقد ان القرشيين كفار يتظاهرون بالاسلام . وكان ينسب اليهم الكفر بصراحة وعنف .

صرح ذات مرة : « لقد كفر عثمان بكفرة ضلعا » (١) . وسأله رجل اثناء معركة صفين قائلاً : « يا أبا اليقظان .. ألم يقل رسول الله : قاتلوا الناس حتى يسلموا ، فاذا أسلموا عصموا دماءهم وأموالهم » . وكان السائل يقصد بذلك اصحاب معاوية . فأجابه عمار : « بلى .. ولكن ما أسلموا .. ولكن استسلموا وأسرؤا الكفر حتى وجدوا عليه أعواناً » (٢) .

فعمار يعتقد إذن أن القرشيين لم يسلموا حقاً إنما هم استسلموا للامر الواقع وتظاهروا بالاسلام انتهازاً للفرصة .

وجابه عمار عمرو بن العاص في صفين متهماً إياه بالكفر . ذلك ان عمرو بن العاص نطق بشهادة الاسلام أمام عمار فقال له عمار : « اسكت فقد تركتها في حياة محمد وبعد موته ... » (٣)

يروى ان عماراً خطب في صفين خطبة فيها كثير من الجرأة والمجاهبة ، حيث قال لأصحابه : « إنهضوا معي عباد الله الى قوم

(٩) انظر : ابن العربي ، المصدر السابق ، ص ٦٥

(٢١) انظر : عبد الله السبيعي ، المصدر السابق ، ص ١٤٨

(٣) انظر : عبد الحميد السحار ، المصدر السابق ، ص ١٦٩

يزعمون انهم يطلبون بدم الظالم لنفسه الحاكم على عباد الله بغير ما في كتاب الله ، إنما قتله الصالحون المنكرون للعدوان الآمرين بالاحسان . فقال هؤلاء — الذين لا يبالون اذا سلمت لهم دنياهم ولو درس هذا الدين — لم قتلتموه ؟ فقلنا : لاحدائه . فقالوا : إنه لم يحدث شيئاً . وذلك لأنه مكّنه من الدنيا فهم يأكلونها ويرعونها ولا يبالون لو انهدت عليهم الجبال . والله ما أظنهم يطلبون بدمه . إنهم يعلمون انه لظالم ، ولكن القوم ذاقوا الدنيا واستحبوها واستمروا ، وعلموا ان صاحب الحق لو وليهم لخال بينهم وبين ما يأكلون ويرعون فيه منها . ولم يكن للقوم سابقة في الاسلام يستحقون بها الطاعة والولاية فخدعوا أتباعهم بأن قالوا : قتل إمامنا مظلوماً ، ليكونوا بذلك جبابرة وملوكاً . وتلك مكيده قد بلغوا بها ما ترون . ولولاها ما بايعهم من الناس رجلان . اللهم إن تنصرتنا فطالما نصرت . وإن تجعل لهم الأمر فادخر لهم بما أحدثوا لعبادك العذاب الأليم » (١) .

إن هذه مقالة تنسب الى عمار . وهي قد تصح أو لا تصح . ونحن لا نستبعد أن يصدر من عمار مثل هذه المقالة . فالذي يحارب قوماً بسيفه لا يتحرج عن محاربتهم بلسانه على هذا المنوال . والذي يستبعد أن يقول عمار مثل هذا القول في أتباع معاوية ينسى ان عماراً كان يقاتلهم بسيفه ويستحل سفك دماهم .

(١) انظر : عبد الله السيبي ، المصدر السابق ، ص ١٥٠ — ١٥١

والمعروف عن عمار انه كان يعتبر عداء قريش لعلي من نوع عدائها
لرسول الله من قبل — من غير فرق .

ومما يؤسف له أن عماراً كان لا يفرّق بين عثمان وبين غيره
من أشراف قريش . والظاهر أن علياً كان لا يوافق في هذا .
فلما سمع علي عماراً يكفّر عثمان لأمه على ذلك ^(١) . وعلي يعرف بأن
عثمان كان رجلاً مؤمناً فاضلاً ، وإن الذي كان يدفعه في تلك
المازق قومه من قريش . وكان عثمان ، في نظر علي ، مسيراً
لا يخير .

أما عمار فكان لا يفرّق بين عثمان وغيره من قريش . وتلك
غلطة من عمار لا تغتفر .

والظاهر أن عماراً كان لا يملك اعصابه في هذا الأمر . إنه
كان يحمل ضدّهم عقدة نفسية طاحنة لا تعرف المواربة أو السكّظم .
وكان لا يستثني من قريش في هذا إلا أبا بكر وعمر وزمرة من
بني هاشم . وكان يعتقد ، كما اعتقد أبو ذر قبله ، بأن عثمان خرج
عن طريقة سلفيه العظيمين أبي بكر وعمر ^(٢) .

* * *

إن ثورة عمار على قريش فيها كثير من الشذوذ والغرابة .
فهو لا يبالي بإسلامهم الذي أعلنوه ولا بالطقوس الدينية التي يقومون

(١) انظر : ابن العربي ، المصدر السابق ، ص ٦٥

(٢) انظر : صادق عرجون ، عثمان بن عفان ، ص ١٤٩

بها . فهو يعتبر الدين حسن المعاملة . أما الشهادة والطقوس فهي في نظره مظاهر سطحية لا تقني عن الحق شيئاً .

كان أبو ذر يعتبر الدين في المساواة بين الفقراء والأغنياء في المال . أما عمار فكان يعتبره في المساواة بين العبيد والسادة في المكناة . والواقع ان عماراً وأباً ذر كانا من حزب واحد — هو حزب العدالة الاجتماعية . ولكنهما كانا يختلفان في الزاوية التي ينظر بها كل منهما الى الأمر . ذاك بدوي قد اعتاد في حياته القبلية على الاشتراكية ، وهذا حضري يكره السادة المتكبرين ويعتبرهم كفرة رغم تظاهرهم بالدين .

* * *

يروى أن رجلاً من اصحاب علي جاء الى علي اثناء معركة صفين وهو يشكو من حلم أزعجه . وقد وصف حاله قائلاً : « إني خرجت من أهلي مستبصراً في الحق الذي نحن عليه لا أشك في ضلالة هؤلاء القوم وانهم على الباطل . فلم أزل على ذلك مستبصراً حتى كانت ليلتي هذه ... فتقدم منادينا فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ونادى بالصلاة . فنادى مناديهم بمثل ذلك . ثم أقيمت الصلاة فصلينا صلاة واحدة ، ودعونا دعوة واحدة ، وتلونا كتاباً واحداً ، ورسولنا واحد . فأدركني الشك في ليلتي هذه ، فبت ليلة لا يعلمها إلا الله حتى أصبحت ... » (١)

(١) انظر : عبد الحميد السحار ، المصدر السابق ، ص ١٦٧

إن هذا الرجل في مأزق نفسي حرج فهو يرى الجانين على دين واحد وشهادة واحدة وصلاة واحدة... فسأل نفسه : لماذا يتحاربون إذن ؟

جاء الى علي بهذا السؤال المخرج . فقال له علي اذهب الى عمار بن ياسر فهو سيوضح لك

ذهب الرجل يبحث عن عمار بين الصفوف وينادي عليه ، حتى وجده فأخبره بحيرته التي كادت تقضي عليه . عند ذلك أجابه عمار جواباً شديداً قاطعاً لا موضع للشك فيه .

قال عمار : إن الرايات التي تواجهه الآن هي عين الرايات التي كانت تواجهه في موقعة بدر أو موقعة أحد أو غيرها . ثم هتف عمار قائلاً : « والله لو ضربونا بأسيا فهم حتى يبلغونا سقنات هجر لعرفت أننا على حق وهم على باطل . وأيم الله لا يكون سلفاً سالماً أبداً حتى ييؤ أحد الفريقين على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين ، وحتى يشهدوا على الفريق الآخر بأنهم على الحق ... » (١) .

يبدو من هذا أن عمار يريد أن يواصل قتاله حتى يجعل قريشاً تقر له بأنها كانت على باطل . ويخيل لي أن هذا أمر مستحيل . فصاحب المصاحبة لا يقر أبداً بأنه كان يطلب الباطل .

كافح عمار مع النبي طويلاً حتى اذعنت قريش لمبدئه الذي كافح من أجله . اذعنت قريش مرة وسوف لا تدعن مرة أخرى .

والعاقل لا يلدغ من جحر مرتين — سواء أ كان مؤمناً أو زنديقاً .
إنها ثروة وترف ونعيم . ولا يترك صاحب الترف ترفه بسهولة
إزاء من يريد نزعته عنه .

لقد كان عمار ، على أي حال ، سبأياً من الطراز الأول .
والمؤرخون اعترفوا بأن السبأيين اتصلوا بعمار والتفوا به ليستميلوه ^(١)
ولكن هؤلاء المؤرخين لم يقولوا عن عمار انه كان سبأياً ، كأنهم
لم يجرأوا أن يطلقوا عليه هذا النعت الذميم وهو ذلك الصحابي الجليل
الذي عذب في سبيل الله كثيراً وتحدث النبي بفضله مراراً .

الواقع انه كان سبأياً بكل ما في هذه الكلمة من معنى . وقد
ظل سبأياً حتى مات . وأنصور انه كان زعيم السبأيين الأكبر ،
أي انه كان ابن سبأ بالذات — كما سيأتي بيانه قريباً .

والغريب ان عمار كان من بين السبأيين الوحيد الذي اعترف
اعترافاً لا مواربة فيه : انه قتل عثمان فقد سأله رجل ذات يوم :
« يا أبا اليقظان علام قتلتم عثمان ؟ » قال : « على شتم أعراضنا
وضرب أبشارنا » ^(٢) .

وهذه صراحة من عمار لم يتفوه بها أحد غيره . فهو يعترف
بقتل عثمان ولا يبالى ، بينما أنكر ذلك جميع من اشتركوا بقتل

(١) انظر : ابن العربي ، المصدر السابق ، ص ٦٤

(٢) انظر : الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٥ ص ١٨٧

عثمان أو حرّضوا عليه . ومن الناس من حرّض على عثمان أولاً ثم خرج مطالباً بدمه أخيراً — كما هو معروف .

يبدو أن حدة عمار وسداجته جعلته يعترف بقتل عثمان دون اكتراث . وكان علي يلاحظ ذلك فيه فلا يكثر ايضاً . ولعل هذين الرجلين كانا مطمئنين من صحة الطريق الذي كانا سائرين فيه . فهما لا يباليان أن يقول الناس عنهما ما يشاؤون ماداماً مؤمنين بصحة عملهما .

وهذا هو شأن جميع المؤمنين المتهمكين فيما هم فيه من عقيدة جازمة . فهم يتخلون جميع الناس مثلهم ولا يدركون مدى الضرر الذي يلحق بهم من جراء اعترافهم وتصريحاتهم المكشوفة . إنهم أناس لم يخلقوا للنجاح في هذه الدنيا . فهم محبوبون على الحاس الذي يؤدي بهم الى التهلكة في يوم من الأيام .

اشتهر بين الناس في ذلك العهد ان النبي قال عن عمار انه سوف تقتله الفئة الباغية — كما رأينا سابقاً . وأحسب ان عمار كان يعتمد على هذا الحديث النبوي كثيراً . وربما كان اعتماده هذا هو الذي جعله يعترف بقتل عثمان من غير مبالاة . فهو يظن بأن أحداً سوف لا يجرأ على اتهمه أو على قتله لئلا يكون من الفئة الباغية حسب قول الرسول . ونسى عمار ان الانسان يملك نزعة التأول والتبرير . فالانسان يستطيع أن يقتل الأنبياء ثم يجد لنفسه عذراً معقولاً أو حجة شرعية تؤيده في ذلك .

وقد حدث هذا فعلاً عند ما قُتل عمار في صفين . فلقد انذهل
اهل الشام حين رأوا عماراً يقتل على يدهم . فقال لهم معاوية :
« أنحن قتلناه ؟ إنما قتله الذين جاؤا به » ^(١) . فاطمان اهل الشام
بذلك ونسوا مقتل عمار كأنه لم يقع .

وهناك من القرائن ما يشير الى أن عماراً رمى بنفسه الى المعركة
وهو قاصد أن يقتله اهل الشام ، لكي يكون ذلك حجة تعزز
موقف علي وتساعد على الغلب .

والظاهر ان عماراً لاحظ النفع العظيم الذي جناه معاوية من
مقتل عثمان ، فحاول هو بدوره أن يُقتل لكي ينتفع علي بمقتله مثل
ذلك . ونسى عمار أن علياً غير معاوية ، وان المحلص غير الداهية ،
في انتهازه للفرص وانتفاعه من الحوادث .

ومن غرائب الصدف أن نجد كلاً من عمار وعثمان شيخاً هرمًا
قد قارب التسعين من عمره حيث لا فائدة ترجى من بقائه على قيد
الحياة . وكان كلاً منهما مقدساً في نظر كثير من الناس .

قُتل عثمان فاستفاد حزب قريش من مقتله استفادة كبرى .
وقتل عمار فلم يستفد من مقتله حزب المساكين . وذهب عمار الى
ربه لا يرثيه أحد سوى علي بن أبي طالب وبضعة أفراد معه .

يروى ان عمرو بن العاص ارسل الى عمار إبان معركة صفين
يطلب مواجته . وبعد مفاوضات طويلة جاء عمار فقابل عمرو بن

(١) انظر : طه حسين ، الفتنة الكبرى ، ج ٢ ص ٨٤

العاص بين الصفيين . وشهد اجتماعها عدد من فرسان الطرفين .
وبعد أخذ ورد وملاحاة بين الزعيمين فلجأ عمرو عماراً بسؤال
مخرج إذ قال له : لماذا قتلتم عثمان ؟

يبدو ان عمرو أراد أن يستغل حدة عمار وسذاجته بهذا السؤال
المفاجيء . فأجابه عمار وهو محتد : « كنتُ مع من قتله ، وأنا اليوم
معهم ... إنه أراد أن يغيّر ديننا فقتلناه ! » . فالتفت عمرو بدهاء
الى من حوله من الذين جاؤا معه من اهل الشام وقال : « ألا
تسمعون ... قد اعترف بقتل إمامكم » (٢) .

إن الذي يعرف دهاء عمرو بن العاص وعظم حيلته لا يستبعد
أن تكون هذه الحركة التي قام بها وسيلة من وسائل الدعاية ضد
عمار . ولعل عمرو أدرك أن عمار سيقتل على يد اهل الشام ، فحاول
أن يتلافى الأمر قبل فوات الأوان .

فليس من المعقول أن يطلب عمرو مواجهة عمار في تلك الساعة
الخرجة ، حين كان القتال مستعراً ، من أجل سؤال تافه كهذا
السؤال . أرجح الظن أن عمرو أراد أن يستغل حدة عمار وسذاجته
ليسترق منه تصريحاً يضره ويجعله في نظر اهل الشام باغياً ، فتذهب
بذلك عنه تلك الهالة القدسية التي صنعها النبي له .

قتل عمار في معركة صفين أخيراً فلم يرفع أحد عقيرته محتجاً أو

مثلاً . وذهب عمار ، كما ذهب سائر القتلى في تلك المعركة ، غير
مأسوف عليهم .

وهنا قد يعترض سائل فيقول : أين ذهب ابن سبأ في هذه
المعركة الكبرى ؟

إن من أغرب الأمور أن نجد ابن سبأ حاضراً في كل حادثة
من حوادث الثورة على عثمان والحوادث التي جرت بعدها ، ثم
نراه غائباً في معركة صفين ^(١) يوم قتل عمار بن ياسر . فلماذا اختفى
هذا الداهية الدهماء في تلك المعركة الطاحنة ، وأين اختفى ؟

لا ريب أنه كان حياً أثناء معركة صفين . ذلك لأن المؤرخين
يرجعون الى ذكره بعد تلك المعركة وينسبون اليه أعمالاً أخرى غير
التي قام بها في أيام عثمان وفي واقعة البصرة . فلماذا لم يظهر له أثر
في صفين ؟ أم كان مريضاً ؟ أم كان على سفر ضروري ؟ أم
ذهبت به الجن الى جزائر واق واق ؟

إن المؤرخين لم يجيبوا عن هذا السؤال المحير قليلاً أو كثيراً .
الواقع أن ابن سبأ لم يختلف أثناء معركة صفين . فهو بالأحرى
لم يكن له وجود حقيقي حتى يختفي . إنه كان وهماً كما ذكرنا
في فصل سابق . والوهم يأتي ويذهب تبعاً لمقصد أصحابه
والمخترعين له .

(١) انظر : حله حسين ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٩٨

أرجح الظن عندي ان قريشاً كانت تقصد بابن سبأ ، حين اخترعته ، أن ترمض به الى عمار بن ياسر . فلما قتل عمار في صفين وذهب مقتله هدرأ لم تر قريش فائدة من تكرار قصة ابن سبأ في هذا الموقف ، فأهملتها . وصار المؤرخون بعدئذ يهملونها تبعاً لذلك . إن قريشاً كانت تعرف ماذا كان عمار يكنّ لها من عدااء دفين . والظاهر أنها سكنت عنه في أول الأمر لما كان له في نظر الناس آنذاك من مكانة دينية رفيعة . ولعلها خشيت أن تهمه علانية فتكسب الثورة به معنوية لا يستهان بها .

وقد كشفت قريش القناع عن وجهها في صفين ، بعد أن انجلى موقف عمار منها جلاءً لا لبس فيه ، فأعلنت اتهامها إياه بصراحة ، وصبت على رأسه الأشيب شتى المسبات .

* * *

يخيّل لي ان حكاية ابن سبأ من أولها الى آخرها كانت حكاية متقنة الحيك رائعة التصوير . إن القرشيين لم يكونوا دهاة في ميدان السياسة فحسب ، فقد كانوا ماهرين في فن القصص ايضاً . ويبدو أن قريشاً كانت في أيام عثمان تتحدث عن عمار في متدياتها الخاصة وتشتمه سراً ، حيث لم تكن ترى من مصلحتها اعلان شتيمة أمام الناس آنذاك .

وربما سمع أحد الرواة قريشاً تلهج بذكر ابن السوداء وتشتمه ، فظن أنها تعني شخصاً آخر غير عمار بن ياسر .

ومن يدري فلعل حكاية ابن سبأ نشأت في أول الأمر من هذا
الظن الخاطئ. ثم ترا كمت حولها الأساطير بعد ذلك شيئاً فشيئاً .
ومن غرائب التاريخ أن نرى كثيراً من الأمور التي تنسب
الى ابن سبأ موجودة في سيرة عمار بن ياسر على وجه من الوجوه .
وهذا أمر يدعو الى التأمل .

إن من يدرس أعمال عمار وأقواله يجد تشابهاً مدهشاً بينها وبين
ما نسب الى ابن سبأ من أعمال وأقوال . فهل هذا محض مصادفة ؟
أم أنه دليل على سر دفين ؟

أعرض على القارئ فيما يلي بعض هاتيك الأمور التي اشترك
فيها عمار وابن سبأ لسكي يرى رأيه فيها . وأحسب أن القارئ
سيعجب من هذا التشابه المدهش بين ما نسب الى عمار وما نسب
الى ابن سبأ من أمور :

(١) كان ابن سبأ يعرف بابن السوداء . وقد رأينا كيف
كان عمار يكنى بابن السوداء ايضاً .

وقد اعتاد العرب أن ينسبوا عدوهم الى أب وضع أو أم
وضيعة . فالعرب يهتمون كل الاهتمام بالنسب . فاذا كرهوا أحداً
جعلوه من نسل المحتقرين والسفلة .

ومما تجدر الإشارة اليه ان قريشاً كانت تطلق على محمد في بدء
الدعوة « ابن أبي كبشة » امتحاناً له . وقد اطلقت على عمر ايضاً
كنية محتقرة فسمته « ابن حنمة » . ونال عمار من هذا شيئاً

كثيراً ، فكانوا يطلقون عليه : ابن سمية وابن التكاء وابن السوداء

(٢) وكان عمار من أب يمني . ومعنى هذا انه كان من ابناء سبأ . فكل يمني يصح أن يقال عنه انه « ابن سبأ » . فأهل اليمن كلهم ينتسبون الى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وفي القرآن : قال الهدهد لسليمان انه جاءه من سبأ ، وقصد بذلك اليمن . (٣) وعمار فوق ذلك كان شديد الحب لعلي بن أبي طالب يدعوه له ويحرض الناس على بيعته في كل سبيل .

يحكي الألوسي : أن رجلاً جاء إلى عمار يسأله تفسير الآية القرآنية القائلة : « واذا وقع القول أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم » . فقال عمار عن هذه الدابة المتكلمة انها علي بن أبي طالب (١) .

وهذا القول الذي ينسب الى عمار نجد له مثيلاً ينسب الى ابن سبأ حيث كان ، فيما يقولون ، يؤمن برجعة علي الى الحياة بعد موته (٢) .

(٤) وقد ذهب عمار في أيام عثمان الى مصر وأخذ يحرض الناس ثمة على عثمان . فضج الوالي منه وهم بالبطش به (٣) .

وهذا الخبر يشابه ما نسب الى ابن سبأ من أنه استقر في مصر

(١) انظر : شهاب الدين الألوسي ، روح المعاني ، ج ٦ ص ٣١٢

(٢) انظر : سعد محمد حسن ، المهدية في الاسلام ، ص ٣٨ — ٣٩

(٣) انظر : حه حسين ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٢٨

واتخذ القسطنطين مركزاً لدعوته وشرع يرسل انصاره منها ^(١) .
 (٥) وينسب الى ابن سبأ قوله ان عثمان أخذ الخلافة بغير حق ، وان صاحبها الشرعي هو علي بن أبي طالب .
 والواقع ان هذا هو كلام عمار بن ياسر بالذات . فقد سُمع ذات يوم يصيح في المسجد إثر بيعة عثمان : « يا معشر قريش .. أما إذ صرفتم هذا الأمر عن بيت نبيكم ، هاهنا مرة وهاهنا مرة ، فما أنا بأمن من أن ينزعه الله فيضعه في غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتهم في غير أهله » ^(٢) .

(٦) ويعزى الى ابن سبأ أنه هو الذي عرقل مساعي الصلح بين علي وعائشة إبان معركة البصرة . فلولا لتم الصلح بينهما حسبما يقول الرواة . ومن يدرس تفاصيل واقعة البصرة يجد عماراً يقوم بدور فعال فيها . فهو الذي ذهب مع الحسن ومالك الأشتر الى الكوفة يحرض الناس على الانتماء الى جيش علي . وكان وقوف عمار بجانب علي أثناء المعركة سبباً من أسباب ندم الزبير وخروجه منها — كما ذكرنا ذلك من قبل .

(٧) وقالوا عن ابن سبأ انه هو الذي حرّك أبا ذر في دعوته الاشتراكية . ولو درسنا صلة عمار بأبي ذر لوجدناها وثيقة جداً فكلّهما من مدرسة واحدة — هي مدرسة علي بن أبي طالب .

Nicholson , op. cit. , p. 215

(١) انظر :

(٢) انظر : عبد الحميد السحار ، أهل البيت ، ص ٦٦

وكان هؤلاء الثلاثة يجتمعون ويتشاورون ويتعاونون معاً .

يروى الطبري : ان ابن سبأ جاء الى أبي ذر فقال له : « يا أبا ذر .. ألا تعجب الى معاوية يقول : المال مال الله ، ألا أن كل شيء لله . كأنه يريد أن يحتججه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين » .
فذهب أبو ذر الى معاوية وهو يحتج عليه ويهدده ^(١) .

يخيل لي أن هذا الكلام الذي قيل لأبي ذر هو كلام عمار بن ياسر لا كلام ابن سبأ . فأين ليهودي في ذلك العصر أن يأتي بمثل هذا الرأي الاشتراكي الذي ندر أن قال به أحد قبل الاسلام . إنه على أي حال كلام يشبه أن يكون من اقوال عمار أو اقوال أستاذه علي بن أبي طالب .

خطب عثمان يوماً فقال : « لناخذن حاجتنا من هذا النقي وإن رغمت أنوف اقوام » . فاعترض عليه عمار قائلاً : « أشهد الله ان أنفي أول راغم من ذلك » . واعترض عليه علي بن أبي طالب ايضاً فقال : « إذن تمنع ويحال بينك وبينه » ^(٢) .

إن أبا ذر لا يحتاج الى ابن سبأ ليعلمه بأن النقي هو مال المسلمين إذ لا يجوز أن يسمى مال الله . إن صاحبيه عماراً وعلياً اجدر بأن يعلم ذلك اذا كان لم يعلم به من قبل .

* * *

(١) انظر : الطبري ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ٦٦

(٢) انظر : طه حسين ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٦٧

نستخلص من هذا أن ابن سبأ لم يكن سوى عمار بن ياسر .
فقد كانت قريش تعتبر عماراً رأس الثورة على عثمان ، ولسكنها لم
تشأ في أول الأمر أن تصرّح باسمه فرمزت عنه بابن سبأ أو ابن
السوداء . وتناقل الرواة هذا الرمز غافلين وهم لا يعرفون ماذا
كان يجري وراء الستار .

إن هذا ظن اذهب اليه . وبعض الظن اثم كما يقول القرآن .
ولكنني مع ذلك مضطر الى القول به لما وجدت من قرائن متعددة
تشير اليه .

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن عثمان لم يكن يعرف عن
ابن سبأ شيئاً . فاذا كان ابن سبأ قد أثار الدنيا على عثمان حقاً
فلماذا لم يدبر به عثمان أو لم يخبره به أحد ولاته في الأمصار .

كان عثمان يهتم علياً وعماراً وعبد الله بن العباس بتحريض
الناس عليه . ولكنه لم يقل شيئاً عن المحرض الأكبر الذي يدعى
ابن سبأ .

ذهب عثمان ذات يوم الى العباس يشكو اليه علياً ، فقال له :
« يا خال .. ان علياً قد قطع رحمي ، وألب الناس ابنك . والله
لئن كنتم يا بني عبد المطلب افرتم هذا الأمر في أيدي بني تيم
وعدي ، فبنو عبد مناف أحق ألا تنازعوهم فيه وتحسدوهم عليه »^(١) .
ليس من المعقول أن يتحدث الناس عن ابن سبأ ، وعن

مؤامراته ومكائده التي شملت الآفاق ، وعثمان لا يدري به ولا يعرف باسمه .

يقول المسعودي عن عثمان انه شكك الى الناس ذات يوم علياً وقال : « إنه يعينني ويظهر من يعينني » . وكان يقصد بذلك أبا ذر وعمار بن ياسر ^(١) .

إن هذا يدل على أن عثمان لم يكن يعرف شيئاً عن المؤامرة التي كانت تحوكمها قريش ضده . فهو رجل سليم القلب يرى الناس تأثيرين عليه ، فيتعجب ويتساءل ، ويتمهم هذا وذلك في أمر الثورة عليه . إنه لا يدري بأن قريشاً تريد أن تستفيد منه حياً وميتاً .

رحم الله عثمان . فلقد ذهب ضحية بريئة على مذبح الأطماع والأغراض السياسية .

(١) انظر : المسعودي ، مروج الذهب (نقلا عن : عبد السميعي ، عمار بن ياسر ، ص ٩٧)

الفصل التاسع

علي بن أبي طالب

لم تختلف أمة في رجل من رجالها يمثل ما اختلفت أمة الاسلام في علي بن أبي طالب .

وهذه ظاهرة اجتماعية تلفت النظر . فما هو السبب فيها ؟
والغريب ان معظم الفرق الاسلامية تدعي الانتماء الى علي .
فالشيعة هم شيعة علي فيما يزعمون . واهل السنة يقولون إنهم هم شيعة علي دون بقية الفرق ^(١) . والمتصوفة تدعي بأن رائدها ومؤسس طريقها هو علي ^(٢) .

ويزعم اهل الفتوة بأن أول فتى في الاسلام كان علي بن أبي طالب ^(٣) ، ويستندون في ذلك على قول النبي : « لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار » .

ويدعي هواة الرياضة القديمة ، أو هواة « الزورخانه » كما يسمونهم في هذه الأيام ، ان علياً هو الذي أسس هذه الهواية ، وتراهم يهتفون باسمه عند البدء بتمارينهم المعروفة .
ويقول ابن أبي الحديد ان علياً كان أبا علم الكلام في الاسلام .

(١) انظر : ابن حجر ، الصواعق المحرقة ، ص ٩٢ — ٩٣

(٢) انظر : عباس العقاد ، عبقرية الامام ، ص ٤٣

(٣) انظر : Hitti , op. cit , p. 183

وهو ينسب كذلك فقه أبي حنيفة وفقه مالك الى تعليم علي^(١) .
 ويُعزى الى علي انه هو الذي وضع أسس النحو العربي^(٢) .
 واشتهر عن علي انه كان أول واعظ ببلغ في الاسلام .
 ولا تزال مجموعة الخطب المنسوبة اليه ، والتي تدعى « نهج البلاغة » ،
 متداولة في أيدي المسلمين ، إذ يتخذها الكثير منهم قرآناً ثانياً ،
 ويقولون عنها انها دون كلام الخالق وفوق كلام الخلق .
 وتشير ابحاث الدكتور بيرج الى ان الجيش العثماني القديم ، الملقب
 بالجيش الانكشاري ، كان يعتنق مذهب البكتاشية . والبكتاشية
 طريقة صوفية تعالي في حب علي ، ولعلها كانت تؤله على وجه
 من الوجوه^(٣) .

يقول البرفسور نيكلسون ان حكم علي وأقواله شائعة تتناقلها
 الأفواه في مختلف ارجاء الشرق الاسلامي^(٤) .
 ويقول البروفسور فيليب حتي : ان علياً يقوم في التراث العربي
 مقام سليمان الحكيم ... حيث تجمع حول اسمه عدد لا يحصى من
 الحكم والمواعظ والأمثال ، ووجد اسمه محفوراً على كثير من
 السيوف العربية في القرون الوسطى ، واصبح علي قدوة ومثلاً

(١) انظر : عباس العقاد ، المصدر السابق ، ص ٥٥

(٢) انظر : أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ١٤٩

(٣) انظر : Birge , The Bektashi Order , p. 139

(٤) انظر : Nicholson , op cit. , p. 191

أعلى لسكثير من جمعيات الفتيان والدرأوش ^(١).

ومن الغريب حقاً أن نجد علياً الرجل الوحيد الذي آمن كثير من المسلمين بألوهيته . يقول الدكتور أحمد أمين : « والناظر الى هذا يعجب للسبب الذي دعا الى الاعتقاد بألوهية علي ، مع أن احداً لم يقل بألوهية محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلي نفسه يصرح بالاسلام وتبعيته لمحمد ... » ^(٢)

إنها ظاهرة اجتماعية عجيبة ، تحتاج الى تعليل وتفسير . ويؤسفنا أن نرى الباحثين القدماء لا يهتمون بتعليل هذه الظاهرة . كأنهم يعتبرونها شيئاً بديهيّاً أو طبعيّاً . والواقع أنها من أكثر ألغاز التاريخ الاجتماعي غموضاً وأشدّها حاجة الى التوضيح . آثار ابن خلدون طرفاً من هذه المشكلة حين تطرق الى ذكر المتصوفة . فهو يقول عنهم : « إنهم لما استدلوا لبأس خرقه التصوف ، ليجعلوه أصلاً لطريقتهم وتخليهم ، رفعوه الى علي ... » ^(٣) وابن خلدون يعجب من هذا الاسناد ويستسكده . فهو يرى أن علياً لم يتميز عن بقية الصحابة بطريقة في لباس أو حال . ويعتقد ابن خلدون أن أبا بكر وعمر كانا أزهد من علي ، فلماذا اجتنص علي دونهما بذلك ؟ ^(٤)

Hitti , op cit , p. 183

(١) انظر :

(٢) انظر : أحمد أمين ، المصدر السابق ، ص ٢٧٠

(٣) انظر : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٠

(٤) انظر : نفس المصدر والصفحة

إن استغراب ابن خلدون هذا في محله . وكل باحث اجتماعي لا يجد مناصاً من مثل هذا الاستغراب حين يدرس تاريخ الفكر الاسلامي الدائر حول شخصية علي بن أبي طالب .

ويستغرب أحمد أمين أيضاً حين يرى العلوم الاسلامية كلها تنسب الى علي . فهو يقول : « كأن العقول كلها اجذبت وأصيبت بالعمى إلا علي بن أبي طالب وذريته ... » ^(١)

يحاول بعض الباحثين أن يعلل هذه الظاهرة العجيبة بأنها من صنع عبد الله بن سبأ . وهذا التعليل أعجب من الظاهرة ذاتها . فابن سبأ مهما كان عبقرياً أو خارقاً للعادة فإنه لا يستطيع أن يخلق شيئاً من لا شيء .

لا بد أن يكون في شخصية علي شيء من الغرابة أو التفوق مما جعله محط انظار الناس ومركز اهتمامهم .

* * *

يقول الفقيه المعروف أحمد بن حنبل : « ما جاء لأحد من الفضائل ما جاء لعلي » ^(٢) . ويقول اسماعيل القاضي والنسائي وأبو علي النيسابوري : « لم يرد في حق أحد من الصحابة بالأسانيد الحسان أكثر مما جاء في علي » ^(٣) .

(١) انظر : أحمد أمين ، المصدر السابق ، ص ٢٧٦

(٢) انظر : ابن حجر ، المصدر السابق ، ص ٧٢

(٣) انظر : تنس المصدر والصحة .

إن هذا القول الذي أتى به أحمد وغيره من كبار المحدثين يعطينا مفتاحاً قد نستطيع أن نحل به هذه المشكلة العويصة . فنحن نرى هنا أن الأحاديث النبوية الواردة في مدح علي تفوق بكثيرها ما ورد في مدح غيره من الصحابة .

والظاهر أن هذه الأماديج النبوية في علي أصبحت في العهود التالية بمثابة النواة ، حيث تراكت حولها إضافات عديدة جيلاً بعد جيل . وهذا ما يمكن تسميته بعملية « التراكم الفكري » . فالناس إذا أحبوا شخصاً ، لسبب من الأسباب ، رجعوا إلى فضائله السابقة فغالوا فيها وأضافوا إليها مرة بعد مرة — إلى غير نهاية .

المعروف في علم القدرة الحديث أن الذرة الأولى إذ تنفلق تؤدي إلى انفلاق ذرات أخرى وراءها . وكل انفلاق جديد يؤدي بدوره إلى انفلاقات أخرى ... وهكذا تنشأ الطاقة الذرية الهائلة . ويعرف هذا التفاعل اليوم بالتفاعل المتسلسل (Chain reaction) . والظاهر أن الفكر البشري يعمل على هذا الأساس أيضاً . فكل فكرة جديدة تؤدي بدورها إلى نشوء أفكار أخرى مشابهة لها إذا وجدت في المجتمع عوامل مساعدة أو ظروف ملائمة .

* * *

إن علياً بدأ سيرته الاجتماعية وهو محاط بهالة من الأحاديث النبوية المشيدة بفضله . وشاء القدر أخيراً أن ينهض علي لمسكفة

قريش ولمقاومة نزعتها الطبقية في الاسلام . فأصبحت ذكراه من جراء ذلك ملجأ روحياً لكل من يشكو من الظلم أو الاستعباد . وهذا أدى بدوره الى انهماك الناس في حب علي وفي الاشادة بفضله . فلما جاء عهد جمع الحديث النبوي كان نصيب علي منه كبيراً .

والحديث النبوي بوجه عام قد امتلأ بالأخبار والأحاديث المسكوبة . ويبدو ان فضائل علي اخذت تزيد على سبيل التراكم جيلاً بعد جيل . فالتبي . هــ هذا التراكم أول الأمر لتكثرة ما مدح علياً وأشاد بفضله . وبهذا شرع الناس من بعده سبيلاً فكرياً لا ينتهي عند حد .

لعلنا لا نغالي اذا شبهنا اسطورة علي بن أبي طالب بالقبلة الذرية . فالذرة الأولى منها فلقها محمد بنفسه ، ثم تركها من بعده تؤدي الى انفلاقات متسلسلة ، سيما بعد أن قام علي بثورته الكبرى في سبيل المساواة والعدالة الاجتماعية .

وهنا يعن لنا سؤال هام هو : ما الذي جعل النبي يمدح علياً أكثر مما مدح غيره من الصحابة ؟

لا شك ان علياً كان من أعظم المناضلين المجاهدين في الحروب التي خاضها الاسلام في حياة النبي . فعلي كان البطل المجلى في حروب بدر وأحد والخندق وخيبر وحنين . ومن يدرس هذه الحروب دراسة امعان وتمحيص يجد علياً فيها بطلاً مغواراً لا يشق له غبار . وقد قتل علي جميع من بارزهم كائناً من كانوا . حتى اشتهر بين

الناس في ذلك الحين : ان علياً لا يبارز أحداً إلا قتله .
الظاهر ان محمداً أُعجب بهذه البسالة النادرة التي أبداهها علي في
خدمته وخدمة دعوته فانثال عليه يمدحه في كل مناسبة . وتناول
الناس هذا المديح المتكرر من محمد لخطوه وتداولوه — وربما أضافوا
اليه من عندياتهم قليلاً أو كثيراً .

* * *

وهناك عامل آخر جعل محمداً يحرص على مدح علي ويؤكد
عليه — ذلك هو العامل الشخصي .

كان محمد بشراً له عواطفه وميوله الشخصية . ولا يستطيع
الباحث المحايد أن يهمل هذا العامل الشخصي في دراسته لحياة محمد .
ولسنا نبعد عن الصواب اذا قلنا إن محمداً كان يشعر نحو علي
بعاطفة تشبه عاطفة الأبوة على وجه من الوجوه .

لقد حرم محمد من الولد الذكر . فساء ذلك طبعاً . والعربي
بوجه عام يهتم بالذكر من اولاده غاية الاهتمام . ولست أحسب
ان محمداً كان شاذاً في ذلك . ولعله آثر أن يتخذ علياً بمثابة ابنه ،
بعد أن فقد ابنه القاسم في بدء حياته الزوجية .

يُحكى ان أحد القرشيين عيّر محمداً ذات يوم بأنه « ابتر » ،
والأبتر في اللغة العربية من ليس له عقب من الذكور ، فنزلت عند
ذلك سورة من القرآن هي : « إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك
وانحر ، إن شانئك هو الأبتر » . ويميل بعض المفسرين الى ان

« الكوثر » في هذه السورة يعني كثرة النسل ^(١) .
وهذا يشير الى أن محمداً ساءه أن لا يكون له نسل من الذكور .
فوعده ربه بكثرة النسل في يوم من الأيام .
لقد تبنى النبي علياً منذ طفولته الباكورة ورباه في بيته . ولما كبر
علي زوجة النبي بابنته فاطمة . وربما كان النبي يرجو أن يأتي له
النسل عن طريق هذا الزواج .

يروى ابن حجر ان علياً دخل على النبي ذات يوم وعنده العباس
عمه . فقام النبي يعانق علياً ثم قبله ما بين عينيه وأجلسه عن يمينه .
فسأل العباس محمداً : أتجبه ؟ قال محمد : « يا عم والله .. لله أشد
حباً له مني . إن الله عز وجل جعل ذرية كل نبي في صلبه وجعل
ذريتي في صلب هذا » ^(٢) .

وهذه الرواية ، إن صحت ، تدل على أن علاقة النبي بعلي
كانت أكثر من علاقة اعتيادية بين متبوع وتابع .

اشتكى بعض الصحابة الى النبي من علي ذات مرة ، فبدأ الألم
على وجه النبي ، وقال : « ما تريدون من علي ؟ ما تريدون من
علي ؟ ما تريدون من علي ؟ علي مني وأنا منه ، وهو ولي كل
مؤمن بعدي » ^(٣) .

(١) كوثر على وزن فاعل مبالغة في الكثرة .

(٢) انظر : ابن حجر ، المصدر السابق ، ص ٩٣

(٣) انظر : عباس المقاد ، المصدر السابق ، ص ١٦٤

الظاهر ان علياً كان قريباً الى قلب النبي والى عقله معاً . فهو
ربيته وزوج ابنته من ناحية ، وهو بطلٌ من ابطال الجهاد في سبيل
دعوته من الناحية الأخرى . ونذر بين الصحابة من نال عند النبي
مثل هذه الخطوة التي نالها علي .

* * *

يعتقد الأستاذ عباس العقاد ان النبي كان يحب علياً ويحبّه الى
الناس لكي يمهّد له سبيل الخلافة من بعده . والنبي ، في رأي
العقاد ، لم يرد أن يفرض رغبته هذه على الناس ، إنما أراد أن
يختاره الناس طواعية وحجاً^(١) .

والعقاد يحاول بهذا الرأي أن يتوسط بين عقيدة الشيعة وعقيدة
اهل السنة في قضية الخلافة . وهو في الواقع رأي لا يخلو من قوة .
إن الشيعة يؤمنون بأن النبي أوصى بالخلافة من بعده لعلي على
شكل واضح صريح لا مجال للمناقشة فيه . أما اهل السنة فيؤمنون
بأن النبي لم يوص لأحد بالخلافة بل تركها شورى يختار الناس لها
من يشاؤون .

جاء العقاد أخيراً يحاول ان يوفق بين هاتين العقيدتين
المتناقضتين ، فقال : إن محمداً أحب استخلاف علي من صميم قلبه ،
ولكنه لم يعلن ذلك صراحة . فهو قد مهّد ولمح لكي يجبّب
الى الناس انتخاب علي من بعده طواعية واختياراً .

(١) انظر : المصدر السابق ، ص ١٠٦

إن هذا الرأي ، على أي حال ، لا يرضي كلا الفريقين .
والمشكلة أن هذين الفريقين لم يختلفا على شيء أكثر من اختلافهما
في هذا الموضوع الذي أصبح شائكاً إلى حد بعيد .

يأتي الشيعة بألف دليل ودليل على أن النبي عيّن علياً للخلافة
من بعده . ويأتي أهل السنة إزاءهم بألف دليل ودليل أيضاً على أن
النبي لم يعيّن أحداً . والظاهر أنهم جميعاً يدورون في حلقة مفرغة .
والباحث المحايد يقف موقف الحيرة تجاه هذا الجدل الذي

لا ينتهي عند حد . فليس من اليسير على الباحث أن يتصور النبي
يستخلف علياً بصراحة ووضوح ثم يعصي المسلمون أمره ، وليس
من اليسير عليه كذلك أن يتصور النبي يترك أمته من بعده فوضى
من غير خطة واضحة يسرون عليها في انتخاب خليفتهم .

إنها في الواقع مشكلة عويصة . ولست أرى حلاً لهذه
المشكلة إلا بالاتجاه إلى رأي العقاد الذي يقف موقفاً وسطاً بين
ذئب الفريقين المتنازعين .

والباحث المحايد قد يجد في مأثورات كلا الفريقين ما يؤيد رأي
العقاد . ويخيل لي أن الفريقين يذهبان مذهب العقاد من حيث لا يشعران .
فالشيعة يعتمدون في أمر استخلاف علي على حديث « الغدير » .
أما أهل السنة فيعتمدون في أمر عدم الاستخلاف على حديث
« الخمس » . ولو تأملنا في الحديثين لوجدناهما يلائمان ما ذهب
العقاد إليه .

يُروى ان النبي قال بعد حجة الوداع في حشد كبير من الناس :
 « من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من
 عاداه ... » وهذا الحديث ، الذي يطلق عليه حديث الغدير ، يرويه
 الشيعة واهل السنة معاً ^(١) .

المظنون أن النبي أراد بهذا التصريح أن يمهد الأمر لعلي
 وأن يحببه الى الناس وأن يدعوهم الى انتخابه من بعده . فهذا
 التصريح هو بمثابة ترشيح لا تعيين . وهناك فرق كبير بين مفهوم
 الترشيح ومفهوم التعيين في نظر الناس .

أما حديث « الخمس » ، الذي يعتمد عليه اهل السنة في عدم
 الاستخلاف ، فهو حديث يرويه الفريقان ايضاً ويتفقان على تفاصيله .
 يروي البخاري في حديث « الخمس » انه لما حضرت رسول الله
 الوفاة ، وفي البيت رجال ، قال النبي : « هلم اكتب لكم كتاباً
 لا تضلوا بعده » . فقال عمر : « ان النبي قد غلب عليه الوجع
 وعندكم القرآن — حسبنا كتاب الله » . فاختلف اهل البيت
 واختصموا . منهم من يقول : « قربوا يكتب لكم النبي كتاباً
 لن تضلوا بعده » . ومنهم من يقول ما قال عمر . فلما اكثروا اللغو

(١) يقول الحافظ ابن حجر : ان حديث الغدير صحيح لا مبره فيه وقد
 أخرجه جماعة كالترمذي والنسائي وأحمد وطرقة كثيرة جداً ومن ثم
 رواه ستة عشر صحابياً وفي رواية لأحمد انه سمعه من النبي ثلاثون
 صحابياً وشهدوا به لعلي لما نوزع أيام خلافته . انظر : ابن حجر ،
 الصواعق المحرقة ، ص ٢٥ .

والاختلاف عند النبي قال النبي : « قوموا » . فكان ابن عباس يقول : « الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغظهم » (١) .

يستند ابن خلدون على هذا الحديث ويستدل به على أن النبي لم يعين أحداً للخلافة من بعده (٢) .

يعتقد بعض المؤرخين أن النبي كان يريد بذلك الكتاب أن يستخلف علياً لكي لا يختلف الناس من بعده في أمر الخلافة ، ولهذا قال النبي : « هلموا اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده » .

ومهما يكن الحال ، فالظاهر أن النبي كان يريد بكتابة الكتاب أن يضع لأئمة نظاماً للخلافة لكي لا تكون الخلافة مصدر نزاع وجدال بعده . وقد لام بعض الباحثين محمداً لتردده في ذلك ، حيث امتنع من كتابة الكتاب حالما شعر بوجود لفظ واختلاف بين أصحابه حوله .

ويتهم ويلز محمداً بالغفلة والجهل من جراء ذلك حيث يقول : « ... ترك محمد أئمة من غير نظام لتكوين حكومة ثابتة يظهر فيها أثر الرأي العام ، وكذلك لم يعين لها أسلوباً عملياً لتحقيق نظام الديمقراطية ... » (٣)

(١) انظر : صحيح البخاري ، ج ٤ ، ص ٥

(٢) انظر : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢١٣

Wells , Outline of History , p 622

(٣) انظر :

إن ويلز ظلم محمداً بهذه التهمة التي ألصقها به . فمحمد لم يكن يستطيع أن يفرض ارادته على أتباعه في غير ما يحبون .
يظن ويلز أن محمداً كان ملكاً مستقبداً كأبي ملك آخر من طغاة القرون القديمة . ولعله قاس محمداً بمقياس ما قرأ عن خلفاء الاسلام المتأخرين من استغلال للملك أو توريثه للأبناء والأحفاد . ومشكلة المؤرخين أحياناً أنهم يقيسون حوادث مرحلة من التاريخ بمقياس مراحل أخرى ، وينسون الفارق الكبير بين مراحل التطور الاجتماعي .

إن محمداً لم يكن مسيطرّاً على الناس إذ يأمر فيطاع أمره كما يُطاع الملوك . لقد كان في سلوكه كأنه زعيم بين أتباعه . فهو قد يرى رأياً فيجاده الأتباع فيه ويتنازعون حوله . وكثيراً ما يقترح محمد اقتراحاً فلا يوافق عليه أتباعه فيتركه ...

ومن يطالع سيرة محمد في المصادر الوثيقة يجد هذه الحقيقة واضحة لا مجال للنقاش فيها .

ومحمد كان حكيماً واقعياً لا يفرض على أصحابه أمراً لا يرضون به . وكان بذلك يتبع الحكمة القائلة : « إذا أردت أن لا تطاع فربما لا استطاع » . وبهذه الطريقة استطاع أن يجمع حوله الأنصار والأعوان . ولولا ذلك لكان من الفاشلين .

فهو لم يرث السلطة من أبيه ، ولم يكن يملك جنوداً أو جلادين يفرضون ارادته على الناس . لقد كان رسولاً يدعو لدين جديد .

وقد وصفه القرآن بقوله : « إنما أنت مذكّر . لست عليهم بمسيطر » .
فهو كان بين اصحابه زعيماً متسامحاً يشاورهم في الأمر ويصغي تحتلف
آرائهم . وكثيراً ما يعصونه في أمر من الأمور فيسكت عنهم
ويستغفر الله لهم .

بحسب المغفلون ان محمداً كان ملاكاً تحيط به هالة من النور
ويندفع الناس في حبه وطاعته كما يندفع الفراش نحو النور . وهذا
اعتقاد خاطئ نشأ من مرور الزمن . فالمسلمون الآن يقدسون محمداً
اعظم تقديس ويذوبون في ذكره ويهيمون في حبه . وهم يتخيلون
أن المسلمين الأولين كانوا يفعلون مثل هذا في حياة محمد .

لا نكران أن بعض الصحابة كانوا يقدسون محمداً في حياته
مثل هذا التقديس . ولكن هؤلاء كانوا قلائل . فمعظم المسلمين
كانوا من البدو الجفاة الذين آذوا محمداً في بدء دعوته وضحكوا عليه
ورموه بالأقذار .

إننا نظلم محمداً حين نتخيله قادراً على فرض ارادته على الناس
رغم مشيئتهم .

لقد كان محمد داعياً ولم يكن دكتاتوراً .

* * *

إن حديث « الخنيس » ، على أي حال ، له مغزى اجتماعي
كبير . ففيه نرى النبي يريد أن يكتب لأئمة وصية تدرأ عنهم
الاختلاف من بعده ، ثم يعدل عن ذلك . وربما كان عدوله هذا

ناشئ عن كونه رأى الاختلاف قد وقع فعلاً بين الصحابة قبل كتابة الوصية فلا فائدة ترجى إذن من كتابتها .

يقول ابن أبي الحديد ان عمر تحدث الى ابن عباس حول حادث « الخميس » فقال : « لقد أراد رسول الله في مرضه أن يصرح باسم علي فمنعتُ من ذلك حيلة على الاسلام » (١) .

إن هذا الخبر لا نستطيع أن نتأكد من صحته . فابن أبي الحديد الذي روى هذا الخبر كان من المعتزلة . ويبدو أن هذا الخبر بلائم مذهب المعتزلة في أمر الخلافة . فالمعتزلة يعتقدون ان علياً كان أولى من أبي بكر بالخلافة وأفضل منه . ولكنهم يرون مع ذلك جواز تقديم الفضول على الفاضل اذا اقتضت ذلك مصلحة المسلمين . ويستندون في هذا على تصريح أبي بكر في خطبته التي افتتح بها عهد خلافته إذ قال : « أما بعد أيها الناس فاني قد وليت عليكم ولست بخيركم ... » (٢)

والظاهر ان عمر منع النبي من كتابة الوصية حرصاً على مصلحة المسلمين . وقد اثبتت وقائع التاريخ ان عمر كان مصيباً في رأيه هذا . يروى الراغب الأصفهاني ان عمر قال لابن عباس ذات مرة : « أما والله يا بني عبد المطلب لقد كان علي فيكم أولى بهذا الأمر

(١) انظر : ابن أبي الحديد ، شرح النهج ، ج ٣ ص ٩٧

(٢) انظر نص الخطبة في تاريخ الغابري ، ج ٣ ص ٢٠٣

مني ومن أبي بكر ولكن خشينا أن لا تجتمع عليه العرب وقريش لما قد وترها» (١).

وهذه رواية أخرى قد تصح أو لا تصح . ولكنها مع ذلك لا تستبعد . فقد وجدنا عمر أثناء خلافته من أحرص الناس على مصلحة المسلمين ، وكثيراً ما كان يخالف أمراً صريحاً جاء به القرآن أو قال به النبي اجتهداً منه في سبيل الصالح العام (٢).

وهذه عبرة لنا نحن المسلمين في عهدنا الحاضرة . حيث يجب علينا أن ننظر في مصالحنا العامة نظراً موضوعياً ونكون بذلك مجتهدين لا تنقيد بما ورد في القرآن أو الحديث من أحكام قد تنافي مقتضيات ظروفنا الراهنة .

كان علي بن أبي طالب ، على أي حال ، يرى أنه أحق بالخلافة من غيره . ولكنه حين رأى الناس يبايعون أباً بكر ، بايع معهم .

فلما جاء خالد وأبو سفيان يحرّضانه على الثورة على أبي بكر طردهما ، ونظر في مصلحة الاسلام حيث اغفل بذلك مصلحته الخاصة . إنه اعتبر هذا التحريض ذا غاية شخصية فأغضى عنه ، وضرب بذلك مثلاً رائعاً على نزاهة القصد والتفاني في المبدأ .

(١) انظر : محاضرات الراغب الأصفهاني ، ص ٢١٣

(٢) انظر : أحمد أمين ، في الإسلام ، ص ٢٣٦ — ٢٣٩

يحكى ان فاطمة لامت علياً على سكوته هذا فقال لها — وكان صوت المؤذن يجلجل في السماء آنذاك — : لو شهرت سفي لما سمعت اسم أبيك في أذان بعد الآن .

* * *

اخلص علي لأبي بكر ولعمر من بعده ، كما رأينا . والظاهر ان علي لم يتألم لفوات الخلافة منه على عهد أبي بكر وعمر . ولعل فواتها منه بعد عمر هو الذي أثار اشجانه وحز في قلبه — وله الحق في ذلك . كان علي يشعر في عهد عثمان بألم مضاعف ، سيما حين رأى قريشاً تستغل ذلك العهد وتحاول ارجاع الأمور الى ادبارها .

وكان يؤيد علياً في هذا ثلاثة رجال — هم أبو ذر وعمار وسلمان الفارسي (١) .

وهؤلاء كانوا يؤلفون تشكيلة غريبة في بابها . فكل واحد منهم كان ذا شخصية فذة غريبة الأطوار وكلهم كانوا يكرهون قريشاً كرهاً شديداً .

والغريب ان كل واحد من هؤلاء الفرسان الثلاثة انجذب الى الدين قبل أن يرى محمداً أو يسمع بخبره . ثم نراهم في عهد عثمان يلتفون حول علي ويعلنونها حرباً شعواء على قريش .

ومن الأحاديث المنسوبة الى النبي : « ان الجنة تشاق الى اربعة : علي وعمار وسلمان وأبي ذر » (٢) . فهل قال النبي هذا القول

(١) انظر : عبد الرحمن بدوي ، شخصيات قائمة في الاسلام ، ص ٥٥ .

(٢) انظر : عبد الله السيدي ، عمار بن ياسر ، ص ٩٩ .

حقاً ، أم ان المحدثين اخترعوا هذا القول بعد ما رأوا هؤلاء الأربعة يتآمرون ويشثرون ويندرون قريشاً بالويل والثبور .

يخيل لي أن نجاذر وعمار وسلمان كانوا من الذين ساءهموا مساهمة فعالة في بث الأحاديث المشيدة بفضل علي بين الناس . وقد رأينا من قبل كيف كان أبو ذر يتزعم حركة الأعراب ضد عثمان ، بينما كان عمار وسلمان يتزعمان حركة الموالي والمستضعفين .

ومما تجدر الإشارة اليه ان البلدان التي سكنها هؤلاء الثلاثة أصبحت فيما بعد مركزاً من مراكز التشيع لعلي بن أبي طالب . فعمار سكن الكوفة يوم كان والياً عليها في عهد عمر . وصارت الكوفة بعد ذلك عاصمة التشيع في العالم الاسلامي كله . أما سلمان فقد تولى أمر المدائن . ثم صارت المدائن فيما بعد موطناً للتشيع كما أشار اليه البرفسور ماسينيون ^(١) . وربما انتقل التشيع الى الفرس من هنالك . أما أبو ذر فقد نفاه معاوية مرة الى جبل عامل ^(٢) . ولا يزال ذلك الجبل حتى يومنا هذا موطن « المتأولة » أي الذين يتولون عليها .

ظهرت في عهد علي مشكلة فكرية هي ما يصح أن تسمى بمشكلة « تنازع الأحاديث » . وهذه المشكلة نشأت من كثرة الأحاديث النبوية التي كان الناس يتناقلونها في مديح الصحابة .

(١) انظر : عبد الرحمن بدوي ، المصدر السابق ، ص ٢٣ — ٢٤

(٢) انظر : حسن الأمين ، أعيان الشيعة ، فصل أبي ذر .

كان النبي اذا مدح احداً من اصحابه بحديث صار حديثه ذلك بمثابة لقب أو وسام يحمله صاحبه ويفتخر به فلم تكن في عهد النبي أوسمة أو رتب عسكرية يكافأ بها اصحاب الخدمات العالية . ولهذا كان النبي يمدح الذين يريد مكافأتهم بكلمة قصيرة تتناولها الألسن ، وتصبح بمثابة الوسام الذي يحمله السكبراء في هذا العصر .

وقد يصح القول بأن النبي منح هذه « الأوسمة » الى عدد كبير من اصحابه . فكل من قام بعمل مجيد في سبيل الاسلام منحه النبي « وساماً » يكون موضع فخار له ولأولاده من بعده .

أخذ المسلمون بعد وفاة النبي يجمعون تلك الأحاديث النبوية ويقدسونها . وعلى توالي الأيام ارتفعت قيمة تلك الأحاديث وصارت في نظر المسلمين احكاماً مطلقة لا يجوز الجدل حولها أو الشك فيها . من الواضح ان النبي لم يكن يقصد بتلك الأحاديث في معظم الأحيان سوى التشجيع والمكافأة . هذا ولكن المسلمين اغفلوا النظر في الظروف التي دعت الى صدور تلك الأحاديث واعتبروها تنبؤات عن المستقبل اعلنها النبي لكي يرشد أمته بها بعد موته .

وقد نشأت من ذلك مشكلة اجتماعية كبرى . فقد حدث ان تنازع الصحابة فيما بينهم بعد النبي واختلفوا . فأخذ كل واحد منهم يعتمد على « أوسمته » النبوية ، ويدّعي استناداً عليها بأنه وحده المصيب من بين بقية الصحابة .

وحار المسلمون من جراء ذلك . فهم رأوا اصحاب « الأوسمة » النبوية يتنازعون ويتحاربون ، فاندهلوا وتساءلوا : كيف يتنازع اصحاب محمد وهم كالنجوم لا فرق بينهم في مبلغ ما هم عليه من الهدى والرشاد ؟

وفي الواقعة الشنعاء التي حدثت في البصرة بين اصحاب عائشة واصحاب علي ، ظهرت تلك المشكلة بأجلى مظاهرها . فقد كان علي وعمار والحسن والحسين في جانب ، وكانت عائشة ومعها طلحة والزبير في الجانب الآخر .

ولا يخفى على القارئ ما يؤدي اليه هذا الوضع الدقيق من صراع نفسي في نفوس المسلمين . ففي كل جانب كان هناك افراد يحملون « الأوسمة » الزيفة المطرزة بأماذج النبي الكريم .

فعائشة أم المؤمنين مدحها النبي كثيراً إذ كان يحبها حباً جماً ويؤثرها على سائر ازواجه . ومعها طلحة الذي كان النبي يسميه « طلحة الخير » . ومعها كذلك الزبير حوارى رسول الله والذي بشر النبي قاتله بالنار .

ونجد في الجانب المضاد علياً وهو يحمل على صدره العريض اكبر عدد من الأوسمة . ومعهم عمار الذي « تقتله الفئة الباغية » . ومعهم كذلك الحسن والحسين اللذان قال عنهما جدما النبي انها سيدي شباب اهل الجنة وانها إمامان إن قاما أو قعدا .
إنها إذن مشكلة عويصة !

جاء رجل الى علي اثناء موقعة الجمل وهو يعاني من هذه المشكلة غناء لا يستهان به . قال الرجل : « أيمكن ان يجتمع الزبير وطلحة وعائشة على باطل ؟ » هو سؤال مخرج . ويبدو ان علياً كان على بصيرة ثابتة من أمره . فهو لا يبالى بأحاديث النبي بقدر ما يبالى بالهدف الاجتماعي الذي كان النبي يسعى نحوه .

قال علي جواباً على سؤال ذلك الرجل : « إنك للمبوس عليك .. ان الحق والباطل ليعرفان بأقدار الرجال . إعرف الحق تعرف اهله واعرف الباطل تعرف اهله » (١) .

فالمسألة في نظر علي هي مسألة نزاع بين الحق والباطل — لا مسألة نزاع بين الأحاديث .

يقول الدكتور طه حسين في تعليقه على هذا الجواب : « وما اعرف جواباً أروع من هذا الجواب الذي لا يعصم من الخطأ احداً مهما تكن منزلته ، ولا يحتكر الحق لأحد مهما تكن مكانته ، بعد أن سكنت الوحي وانقطع خبر السماء » (٢) .

والمشكلة في هذا ان العامة من الناس لا يفهمون هذا القول الذي يقوله علي بن أبي طالب أو يقوله الدكتور طه حسين . فالإنسان لا يستطيع التمييز بوضوح بين الحق والباطل حين يلتبس عليه الأمر . كل فريق يدعي انه مع الحق ويأتي بالأدلة العقلية والنقلية لتأييد رأيه .

(١) انظر : طه حسين ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٣ .

(٢) انظر : نفس المصدر والصفحة .

يقول علي : ان الحق واضح والباطل واضح . وهو يكاد يراها رأي العين . لكن الناس في الغالب يتحيزون في رؤية الحق والباطل من حيث لا يشعرون . فكل انسان على عقله إطار يحده من تفكيره . والانسان لا يستطيع ان يرى شيئاً إلا اذا كان ذلك الشيء واقعاً في مجال ذلك الإطار ^(١)

ففي واقعة الجمل نظر فريق من الناس فرأوا عائشة أم المؤمنين قادمة من مدينة الرسول تقطع الفيافي والقفار ، وهي تطالب بدم الخليفة الذي قتل مظلوماً . كل ذلك حق لا يُمارى فيه . فهم حين ركزوا إطارهم الفكري عليه لم يستطيعوا رؤية أي شيء غيره . وقال قائلهم آنذاك مرتجزاً :

يا أمنا عائش لا تراعي
كل بنيك بطل المصاع ^(٢)

أما الفريق الآخر فقد نظروا الى الحق من الجهة المعاكسة . رأوا علياً قد صار خليفة فجاءت عائشة تطالبه بالافتصاص من قتلة عثمان وتثير الحرب عليه ، قبل أن يستتب الأمر له . وقال قائلهم مرتجزاً :

يا أمنا أعق أم نعلم
والأم تغذو ولدها وترحم

(١) انظر : علي الوردي ، خوارق اللاشعور ، ج ١ ف ١

(٢) المصاع هو التطلع في الحرب والقتال بالسيف .

أما ترين كم شجاع يُكلم
وتختلي منه يدٌ ومعصم^(١)

اولئك ينظرون الى الحق من جانب وهؤلاء ينظرون من جانب آخر . وكل جانب لا يستطيع أن يفهم منطق الجانب الآخر .
سئل علي ذات مرة عن قتلى اصحاب عائشة ، فقال : « إن من قاتل صادق النية في نصر الحق مبتغياً وجه الله ورضاه فمصيره مصير الشهداء »^(٢) .

إن علياً بهذا يصنّف الناس الى صنفين : صنف يقاتل مخلصاً وهو مطمئن من الحق الذي يقاتل من أجله ، فهذا مصيره مصير الشهداء . وصنف آخر يقاتل من أجل مصلحة أو غرض شخصي ثم يتظاهر بطلب الحق ، فهذا آثم ومصيره مصير المجرمين .
يبدو لي أن علياً كان يميّز بين اصحاب عائشة واصحاب معاوية . فكان يعدّ اصحاب عائشة مجتهدين : طلبوا الحق فاخطأوا سبيله . أما اصحاب معاوية فهم في نظره اصحاب دنيا وطلاب ملك ، وهم إنما يطالبون بدم عثمان ليتخذوه حجة لهم ووسيلة لغايتهم الخفية التي يسعون من أجلها .

بعث علي الى معاوية كتاباً يقول فيه عن قتلة عثمان : « وأما ما سألت من دفعي اليك قتلته فاني لا أرى ذلك ، لعلي بأنك إنما

(١) انظر : طه حسين ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٢ — ٥٣

(٢) انظر : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٣

تطلب ذلك ذريعة الى ما تأمل ومراقبة الى ما ترجو وما الطلب
بدمه تريد « (١) .

يلق الأستاذ النصولي على هذا الكتاب قائلاً انه « كلمات
مبهمة غير محدّدة مما لا تبعث اليقين الى النفوس لأنه لم يدفع بها عن
نفسه التهمة التي صوّبها اليه معاوية وكانت السبب الأكبر في تزعزع
أركان دعوته والتخلي عنه « (٢) .

وإني لأظن بأن علياً لم يكن غامضاً في كتابه هذا . فهو كان
صريحاً واضحاً في هذا الكتاب وفي معظم أقواله وأعماله . والذي
يرى علياً غامضاً إنما ينظر اليه بمنظار اعدائه .

ولقد صحّت نبوءة علي عن نفسية معاوية كما صحّت من قبل
عن نفسية عائشة . فعائشة ندمت ندماً عظيماً على ما قامت به إزاء
علي ، وظلت تبكي حسرةً حتى ابتل خمارها (٣) . أما معاوية فقد
حارب علياً من أجل دم عثمان ، حتى اذا انتصر وتم له الأمر نسي
عثمان واغفل المطالبة بدمه — كما رأينا .

يقول المؤرخون إن عائشة كانت تقول عن يوم الجمل :
« وددت لو متّ قبل هذا اليوم بعشرين عاماً » . وكانت تقول
بعد رجوعها من البصرة : « والله ان قعودي عن يوم الجمل لأحب

(١) انظر : أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ١٧٤ .

(٢) انظر : أنيس زكريا النصولي ، معاوية بن أبي سفيان ، ص ٢١ .

(٣) انظر : طه حسين ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٩ .

إليّ ، لو أتيح لي ، من أن يكون لي عشرة بنين من
رسول الله ...»^(١)

يروى المبرد أن معاوية قال لعائشة ذات يوم : « لوددت أنك
كنت قتلت يوم الجمل ! » فقالت له : « ولم .. لا أبالك ؟ » فقال :
« كنت تموتين وتدخلين الجنة ، ونجعلك أكبر التشيع على علي »^(٢) .
ويروى الجاحظ أن معاوية صرّح ذات يوم بأن من جملة
الأسباب التي ساعدته على علي كان يوم الجمل ، حيث قال عن علي :
« ... وخلا بأصحاب الجمل فقلت إن ظفر بهم اعتددت بهم عليه
وهنا في دينه ، وإن ظفروا به كانوا أهون عليّ شوكة منه ... »^(٣)
يتضح من هذا أن معاوية لم يكن مجتهداً كعائشة في حربه عليها .
فهو قد كان قاصداً أمراً ، واستخدم في سبيل هذا الأمر كل
ما وصلت إليه يده . ولو أنه استطاع أن يدمس السم لعائشة ، لكي
يشوّه بذلك سمعة علي ، لما تردّد^(٤) .

وعندما استتب الأمر لمعاوية أخذ يتتبع شيعة علي وراء كل
حجر ومدر ، وسنّ سب علي في فنوت الصلاة وفي خطب المساجد .

(١) انظر : نفس المصدر والصفحة .

(٢) انظر : المبرد ، تهذيب الكمال ، ج ١ ص ٢٩٧

(٣) انظر : الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ص ٩٤

(٤) المعروف عن معاوية أنه قال : « ان لله جنوداً من عسل » .

يقول ابن أبي الحديد : ان معاوية كتب الى عماله : « إن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضائل أبي تراب وأهل بيته » . فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلغنون علياً ويبرأون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته ^(١) . وجاء رجال الى معاوية يلومونه على ذلك وقالوا له : « إنك قد بلغت ما أمّلت .. فلو كففت عن لعن هذا الرجل ؟ » فقال معاوية : « لا والله .. حتى يربو عليها الصغير ويهرم عليها الكبير ولا يذكر له ذاكرٌ فضلاً » ^(٢) .

يخيل لي ان معاوية لم يتبع في هذا سياسة الدهاء التي اشتهر بها . لقد نسى معاوية ان الانسان حريص على ما منع .

ولعل الناس أخذوا يحرضون على ذكر فضائل علي سرّاً ، ويغالون فيها ، حين رأوا حكمهم يمنعونهم من الافصاح عنها علناً . اذا أراد حاكم أن ينشر فضيلة انسان فليس عليه إلا أن يمنع من نشرها . وبذا سوف يجد الناس يتهافتون على حفظها ويتفانون في سبيل اظهارها .

إنني لأعجب من معاوية كيف غفل عن هذا الأمر وسار فيه سيرة منافية لما يقتضيه الدهاء وبعد النظر .

يقول الشعبي لولده : « ... انظر الى علي وأولاده .. فان بني أمية لم يزلوا يجهدون في كتم فضائلهم وإخفاء أمرهم ، وكأنما يأخذون

(١) انظر : ابن أبي الحديد ، شرح التمهيد ، ج ٣ ص ١٥

(٢) انظر : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٥٦

بضعبهم الى السماء . وما زالوا يبذلون مساعيهم في نشر فضل أسلافهم ، وكأنما ينشرون حقيقته .

ويقول عبد الله بن عروة بن الزبير لابنه : « ... ألا ترى علي بن أبي طالب وما يقول فيه خطباء بني أمية من ذمه وعيبه وغيبته ؟ والله لكأنما يأخذون بناصيته الى السماء . ألا تراهم كيف يندبون موتاهم ويرثيهم شعراؤهم ؟ والله لكأنما يندبون جيف الحير » (١) . إن هذا التطرف الذي سار عليه الأمويون في ذم علي قابله الناس بتطرف مثله في مدحه . والفعل يؤدي الى رد الفعل في معظم الأحيان .

يحسب بعض المؤرخين أن ابن سبأ هو الذي بث الغلو في علي بين المسلمين . والواقع أن الأمويين أنفسهم قد بثوا هذا الغلو فيه ...

ومما زاد في الطين بلة ، أن معظم الفقهاء ونقله الحديث في العهد الأموي كانوا من الموالي (٢) .

والأمويون كانوا يحترقون الموالي في نفس الوقت الذي كانوا يذممون فيه علياً . فأصبح علي بهذا شعاراً للموالي يلهجون بذكره ويتحدون حكاهم بنشر فضائله .

وبهذا كانت فضائل علي تزداد على مرور الأيام . وكلما ازداد

(١) انظر : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٤٤

(٢) انظر : أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ١٥٢ — ١٥٥

الأمويون له ذمّا ازداد اسمه بين الناس ارتفاعاً ... حتى أصبح في
عداد الآلهة !

* * *

ذكرنا آنفاً إحدى المشاكل الفكرية التي ظهرت في عهد علي .
ونذكر الآن مشكلة أخرى — هي مشكلة « تفريق جماعة
المسلمين » . وهذه المشكلة هامة جداً . وهي في الواقع من أهم مشاكل
المجتمع البشري بوجه عام . ويطلق عليها علماء الاجتماع اليوم مصطلح
« المشكلة ذات الحدين » .

ففي كل مجتمع متحرك نجد زمرة من الناس تدعو الى مبدأ
جديد فتُثقل المجتمع به وتمزق شملهُ . وهذه الزمرة المرفقة تُعد في
أول الأمر ضالة عاصية وتُكَلِّل لها التهم من كل جانب .
إنها تفرّق الجماعة وتشق عصا الطاعة حقاً . ولكنها في نفس
الوقت تبعث في المجتمع روح التجدد والتطور . ولولاها لجمد المجتمع
ولبقي في خمود متراكم قد يؤدي به الى الفناء يوماً ما .

* * *

لم يشهد التاريخ الاسلامي رجلاً فرّق الجماعة كعلي بن أبي
طالب . وعلي لم يكتف بتفريق جماعة المسلمين بنفسه ، بل أورث
نزعته الهدامة هذه لأولاده من بعده .

ومن يدرس تاريخ العلويين يجدهم ثواراً من طراز عجيب . ولم
يمر في تاريخ الاسلام جيل دون أن يسمع الناس بخبر ثورة جامعة قام

بها رجل من العلويين أو من ينتسب اليهم .
ولا يخفى ان أول حرب داخلية نشبت بين المسلمين كانت في
عهد علي . وقد اتهم علي بتهمة سفك دماء المسلمين مراراً . حتى
ان ابن عمه ونصيره ، ابن عباس ، اتهمه مرة بهذه التهمة الشنيعة .
قيل ان ابن عباس أخذ شيئاً من بيت المال يوم كان عاملاً لعلي
على البصرة ، ثم هرب به . فكتب اليه علي يلومه ويهدده ويخوفه
من الله . فأجابه ابن عباس : انه يؤثر أن يلقى الله ، وفي ذمته
شيء من اموال المسلمين ، على أن يلقى الله وفي ذمته تلك الدماء
التي سفكت يوم الجمل والتي سفكت في صفين والتي سفكت في
النهر وان . فلما قرأ علي هذا الجواب اللاذع من ابن عمه قال متألماً :
« وابن عباس لم يشاركنا في سفك هذه الدماء » (١) .
وقيل أيضاً ان رجلاً كان يتوضأ ذات يوم فيصب على يديه
ماءً كثيراً ، فراه علي وأخذ يلومه على هذا الاسراف في صب
الماء . فرد عليه الرجل قائلاً : الاسراف في صب الماء خير من
الاسراف في سفك دماء المسلمين .
والظاهر ان علياً كان لا يكثر لهذه التهمة ولا يبالى بها . فهو
قد كان مؤمناً بأنه في جميع حروبه إنما كان يحارب في سبيل الله .
فهو يحارب اليوم معاوية كما حارب أباه أبا سفيان بالأمس — لا فرق
بين الحربين في نظره .

(١) انظر : طه حسين ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣٧ — ١٣٨

لقد فرق محمد جماعة قريش وسفك دماءها . ثم جاء علي بعد ذلك يفرق جماعة المسلمين ويسفك دماءهم . فهل من فرق بين هذا السفك وذاك ؟

يقول علي بعدم الفرق . ويقول خصومه بوجود الفرق الكبير بين السفكين . ذلك ان محمداً جاهد في سبيل أن يُسلم الناس . فلما أسلموا جميعاً جاء علي يريد منهم شيئاً آخر .

* * *

كان أنصار علي في صفين يخاطبون أصعاب معاوية وهم يرتجزون قائلين :

نحن ضربناكم على تنزيله
واليوم نضربكم على تأويله ^(١)

ومعنى هذا ان علياً كان يحارب قريشاً في زمان النبي على تنزيل القرآن ، وهو اليوم يحاربهم على تأويل القرآن وتفسيره . كان علي يعتبر القرآن « حمال أوجه » ، كما أسلفنا . فكل حزب يستطيع أن يجد في القرآن ما يؤيد رأيه . ولذا فان القرآن في نظر علي لا يكفي لهداية الناس . إنه يحتاج الى تفسير ملائم لكي يؤدي رسالته الاجتماعية التي أنزل من أجلها . كان معاوية يقرأ القرآن ويقيم الصلاة ويصوم رمضان ويحج البيت . فهو بهذا لا يختلف عن علي اختلافاً أساسياً .

(١) انظر : المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٦

ويبدو ان علياً كان لا يهتم بطقوس الدين بقدر اهتمامه بالعدل الاجتماعي . ومما يؤثر عنه انه قال : « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر والعناء . حبذا نوم الأكياس وافطارهم » (١) .

إب المشكلة التي جابهها علي في حياته نجاحها نحن اليوم على أشبع صورها . فنحن واقفون بين تفسيرين متعاكسين للدين : فمن الناس من يدعون الى دين الطقوس والشعائر ولا يبالون بما سوى ذلك شيئاً . وثمة آخرون يدعون الى العدل والمساواة والى تقليص الفروق الاقتصادية بين الناس ، ويعتدون ذلك قوام الدين وأساسه الذي يبنى عليه . ونحن حائرون فيما بين هؤلاء واولئك .

* * *

يقول علي : « إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء ما يكفي الفقراء . فما جاع فقير إلا بما مُتّع به غني ، والله تعالى سائلهم عن ذلك » (٢) .

يستبان من هذا ان علياً كان يفسر القرآن على النقط الذي

(١) انظر : محمد عبده ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٨٥

(٢) انظر : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٣١

وبروي القاسم بن سلام هذا الحديث على شكل آخر في كتابه «الأموال» فيقول نقلاً عن علي : « ان الله فرض في أموال الأغنياء ما يكفي الفقراء ، فان جاعوا أو عروا فيمنع الأغنياء ، وحق على الله أن يحاسبهم ويعذبهم » .

فسره به أبو ذر من قبل . أما قريش فكانت تفسره على نمط آخر . وشتان ما بين التفسيرين !

* * *

لقد استحوذت قريش على الحكم بعد علي فجعلت من الاسلام دولة فاتحة تخفق راياتها على تخوم الصين من جهة ، وفي سهول فرنسا من الجهة الأخرى . وقد كثر بذلك الترف وزاد عدد العبيد والجواري وشيدت المساجد الفخمة والقصور الباذخة .

أصبح الأذان إذ ذاك سائداً بدل الناقوس أو البوق . وأُسست المساجد بدل الكنائس أو بيوت النيران . وأخذ الناس يقرأون القرآن عوضاً عن الانجيل أو الزندافست . وصار اسم الله يدوي في كل مكان على منائر المشرق والمغرب .

حدث هذا بفضل الفتوح الأموية . وقد كان عملاً عظيماً حقاً . فماذا تريدون ؟

الظاهر ان علياً كان يريد شيئاً آخر . فلمسألة في نظره هي مسألة مبدأ ، لا مسألة مظاهر وطقوس .

لقد دخل في الاسلام عدد هائل من سكان الأرض . ولكن اسلامهم هذا لم يغير شيئاً من نظمهم الاجتماعهم التي كانت سائدة في أيام كسرى وقيصر .

وقد فطن الى ذلك عمر بن عبد العزيز فأوقف الفتوح في عهده ، إذ وجه اهتمامه نحو إقامة صروح العدالة ، واعتبر ذلك أهم من

إقامة صروح الامبراطورية التي لم يكن فيها سوى الاستعلاء والنهب والاستعباد (١).

إنهما رأيان متناقضان: رأي ينظر نحو تحسين الداخل، وآخر ينظر نحو تحسين الخارج. ولست أدري على وجه اليقين أي هذين الرأيين أولى بالاتباع وخيراً للناس في الأمد الطويل. إنهما وجهتان متعاكستان على أي حال. ولا يجوز للباحث أن يخلط بينهما أو يقيس إحداها بمقياس الأخرى.

تشير بعض الاحصاءات الحديثة الى أن دخل الفرد في البلاد التي لا مستعمرات لها هو في المعدل أعلى منه في البلاد ذات المستعمرات الواسعة. وهذا أمر له مغزى اجتماعي لا يستهان به. فهو يدل على أن كلفة الاحتفاظ بالمستعمرات تزيد على الفائدة منها. فالمستعمرات تحتاج الى أساطيل وجيوش ونفقات طائلة في سبيل المحافظة عليها والدفاع عنها.

ولا يستفيد من الاستعمار إلا أناس قليلون — هم القواد والجلالوزة وأرباب المصانع والتجار. أما سواد الناس فهم يخسرون. إذ أن عليهم الغرم ولغيرهم الغنم.

ولعل هذا ينطبق على السياسة التي سارت عليها قريش في توسيع

الامبراطورية الاسلامية . ذلك لأن الفرد العادي لم يستند من امتداد الفتوح بمقدار ما استفاد منه القواد والأمراء واصحاب الجواري والعبيد .

يقال إن موسى بن النصير غنم من غزواته في افريقيا ثلاثمائة ألف أسير ، فبعث خمس هؤلاء الأسرى الى الخليفة ^(١) ، عملاً بحكم القرآن إذ يقول : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة والمرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ... »

وذكروا ان موسى هذا عاد من الأندلس ومعه من السبايا ثلاثون ألف عنراء ^(٢) . فذهبن طبعاً الى قصور أمير المؤمنين ومن لف لفه من ابطال الاسلام الذين رفعوا اسم الله عالياً في ساحات الجهاد المقدس .

وقد أسر المجاهدون في إحدى معارك الأندلس عدداً كبيراً من الأسرى بحيث أنهم أخذوا يتخلصون منهم بأبخس الاثمان . فبيع الأسير بدرهم واحد .. وبيع البعير بخمسة دراهم ^(٣) .

إن هذا ، والحق يقال ، مجد عظيم قد يحاول كثير من أبناء العروبة في هذا العصر أن يستعيدوه . وراهم اليوم يتغنون به وينشدون الأناشيد اللذيذة في سبيله .

١) انظر : جرجي زيدان ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٣

(٢) انظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ص ٢٧٢

(٣) انظر : جرجي زيدان ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٣

وقد نسي هؤلاء أن الجواري والعبيد والأباعر التي حصل عليها
أجدادهم أثناء الجهاد ذهب معظمها الى المترفين واصحاب الحل والعقد .
وبقي الفقير ، كما كان ، يفتش التراب ويطبخ الماء .
ومن يدري فلعل اصحابنا الذين يريدون اعادة مجد الأجداد
سوف يكونون أسرى اذا عاد ذلك المجد فعلاً .

إنهم يتخيلون المجد سوف يكون لهم . وربما كان عليهم —
وصاروا فيه مستعبدين .

إن الذي يريد أن يعلو على الغير قد يأتيه يوم يعلو عليه الغير .
والزمان قلب . فيوم لك ويوم عليك .

يتبجح بعض هؤلاء المغفلين بذكرى الفتوح التي قام بها
أجدادهم . وهم لو انصفوا لنكسوا رؤوسهم خزيًا .

تباع في الأسواق هذه الأيام رواية سماها صاحبها « وامعتصاه » .
وهو يذكر فيها قصة تلك المرأة المسلمة التي أهينت في بلاد الروم
أيام المعتصم فصاحت تستنجد به . فذهب اليها المعتصم لينجدها بجيش
الاسلام الذي لا راد له ، فأخذ بثأرها ورجع الى مقره بحجوراه
السبايا والعبيد مكبلين بسلاسل الحديد .

ومن أعجب المفارقات في هذا الشأن ان الجنود الذين ذهبوا مع
المعتصم لينجدوا تلك المرأة ، كانوا يتحرشون بالنساء والغلمان في
بغداد وينتهكون حرمتهم . وكانوا يؤذون الناس في الأسواق فينال
الضعفاء والصبيان من ذلك أذى كثير وربما رأوا الواحد بعد الواحد

قتيلاً في قارة الطريق . ويقال إن المعتصم كان يسير مرة بموكبه في شوارع بغداد فاستوقفه شيخ وقال : « لا جزاك الله عن الجوار خيراً . جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك فأسكنتهم بيننا فابتعت بهم صبياننا وأرملت نساءنا وقتلت رجالنا » ^(١) .

فالمعتصم يسلط جنوده على نساء بغداد وضعفائها فلا يبالي . هذا ولكن امرأة واحدة تستغيث به في أقصى الأرض فيسرع إلى اغاثتها ويحشد في سبيلها أولئك الجنود الغاشمين أنفسهم . والله وحده يعلم ماذا فعل أولئك الجنود بأهالي البلاد التي مروا بها أو فتحوها . لقد آن للعرب اليوم أن يفتحوا عيونهم ويقرأوا تاريخهم في ضوء جديد .

لقد ذهب زمان السلاطين ، وأن أوان اليقظة الفكرية التي تستلهم من التاريخ عبرة الانسانية الخالدة .

قلنا في فصل سابق ان العرب التفوا حول علي في ثورتهم على قريش . فكان قائدهم وشعار حركتهم الاجتماعية . إذ قد استبدت قريش بالأمم في أيام عثمان ، فثار العرب يطالبونها بالمساواة والعدل . وقد أحست قريش أخيراً بالخطر الناجم من نقمة العرب عليها فغيرت سياستها نحوهم وأخذت تستميلهم بشتى الوسائل .

وبدأ العرب ينفرون من علي شيئاً فشيئاً . فهم قد أحبوا علياً
أول الأمر لأنه ثار بهم ضد قريش المتعالية عليهم . ولسكنهم حين
وجدوه يساويهم بالموالي نفروا منه .

والمشكلة أن علياً كان يدعو الى مبدأ المساواة بين الناس
جميعاً لا فرق بين شريف ومشروف أو بين عربي ومولى ^(١) .
فلما قاد ثورة العرب وأخذ يطبق هذا المبدأ فيهم كرهوه .

وهذه هي طبيعة الانسان في كل زمان ومكان . فهو يطلب
العدل حين يكون محروماً منه ، فإذا حصل عليه بخل به على غيره .
لقد سنَّ علي للعرب مبدأ الثورة على الظالمين ، هذا ولكنه
لم يرد لهم أن يكونوا أنفسهم الظالمين .

جاءت الى علي ذات يوم امرأتان فقيرتان تسألانه شيئاً من
المال . فاعطاهما . ولكن إحداها سألته أن يفضلها على صاحبتها
لأنها امرأة من العرب وصاحبتها من الموالي . فأخذ علي شيئاً من
التراب فنظر فيه ثم قال : « ما أعلم أن الله فضل أحداً من الناس
على أحد إلا بالطاعة والتقوى » ^(٢) .

يقول المدائني إن طائفة من أصحاب علي مشوا اليه فقالوا :
« يا أمير المؤمنين إعط هذه الأموال ، وفضل هؤلاء الأشراف
من العرب وقريش على الموالي والعجم ، واستمل من تخاف خلافة

(١) انظر : أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج ١ ص ٢٣

(٢) انظر : طه حسين ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٦٠

من الناس . وإنما قالوا له ذلك لما كان معاوية يصنع بالمال . فقال لهم : « أتأمروني أن أطلب النصر بالجور » ^(١) .

ويقول المدائني أيضاً : إن من أهم أسباب تخاذل العرب عن علي بن أبي طالب كان إتباعه لمبدأ المساواة بين الناس حيث كان لا يفضل شريفاً على مشروف ولا عربياً على عجمي ، ولا يصانع الرؤساء وأمراء القبائل ^(٢) .

ولهذا وجدنا علياً في أواخر أيامه متأتماً الى أبعد حدود الألم ، إذ كان يريد من الناس شيئاً ويريد الناس منه شيئاً آخر . فقد التف الناس حوله في بدء الثورة ثم انفضوا عنه واخذوا يشغبون عليه أخيراً . يحدثنا نوف البكالي فيقول : إن علياً وقف في أصحابه بالكوفة في أواخر أيامه ، فخطب خطبة طويلة جاء فيها : « ألا انه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلاً ، وأقبل منها ما كان مدبراً ، وأزعم الترحال عباد الله الأختيار ... ما ضرَّ أخواننا الذين سفكت دماؤهم بصفين أن لا يكونوا اليوم أحياء يسفغون الغصص ويشربون الرنق ... أين اخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق ؟ أين عمار ؟ وأين ابن التيسان ؟ وأين ذو الشهادتين ؟ وأين نظراؤهم من اخوانهم الذين تعاقدوا على النية وأُبرِدَ برؤوسهم الى الفجرة » . ثم ضرب علياً يده على خيته فبكى واطال البكاء ... ^(٣)

(١) انظر : ابن أبي الحديد ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٨٢

(٢) انظر : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٨٠

(٣) انظر : محمد عبده ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣٠ — ١٣١

ولم تمض أيام قليلة على هذا الموقف الحزين حتى قُتل علي
في المسجد غيلة .

يقال إن علياً هتف عند ما أحس بلذع السيف في رأسه وقال :
« فزت ورب السكبة ! » وهذه الكلمة تشير الى مدى الألم النفسي
الذي كان علي يشعر به في أواخر أيامه .

إن الكلمة الأخيرة التي ينطق بها الانسان في ساعة موته تدل
على ما يمكن في عقله الباطن من هم وانشغال بال .

ملّ علي الناس وملّوه ، وملّوا قلبه قيحاً — كما كان يقول .
فجاءت ضربة ابن ملجم على رأسه بمثابة الانقاذ .

مات علي فاشلاً . ولكن ذكره بقيت على مدى الأجيال
تحفز الناس على الثورة وتدعوهم الى طلب العدل .

أخفق علي في ميدان السياسة ، ونجح في ميدان آخر هو ميدان
الثورة الاجتماعية التي لا يخمد لها أوار .

فلولا علي لكان الاسلام من طراز تلك الأديان التي تدعو
الى الفتوح والسيطرة والاستعمار ، ولانتفت عنه صفة الرحمة التي
بُعث من أجلها محمد بن عبد الله .

* * *

إن من المؤسف حقاً أن نرى العرب اليوم يمجّدون ذكرى
بني أمية وينسون علي بن أبي طالب . إنهم يمجّدون بني أمية باعتبار
أنهم شيّدوا لهم امبراطورية كبرى وسودّوهم على كثير من الأثم .

والغريب انهم يفعلون ذلك في نفس الوقت الذي نجدهم فيه يكافحون
المستعمر الغاشم ويحاولون طرده من بلادهم .

إنهم يعارضون الاستعمار اذا كان موجهاً ضدهم ، ويؤيدونه اذا
كان منهم على غيرهم .

يقول المرحوم حسن البنا : « أخرجوا المستعمر من قلوبكم
يخرج من ارضكم » . وهذه لعمرى حكمة بالغة ، ما أحرانا اليوم
أن نعتبر بها . فنحن نؤيد الاستعمار في قلوبنا ونحاربه بسيوفنا .
وهذا أمر يؤدي بنا الى التخطئ في المظالم ويفت في عضدنا .

* * *

ومن أعجب المفارقات اننا نستبشع غزو تيمورلنك لبلادنا ونعده
من ألين خلق الله . هذا ولكننا نمجد ذكرى تلك الغزوات التي
غزا بنو أمية بها العالم واستعبدوا الشعوب وانتكوا الحرمات .
إن قبر تيمورلنك في سمرقند تعلوه قبة خضراء شاهقة ، وتحيط
به الآيات من كتاب الله الكريم . وهو مقدس في نظر العامة
هناك ، يحجون اليه ويندرون النذور اليه ويتبركون به .
والمغفلون هناك لا يدرون ماذا صنع وليهم هذا في بلادنا
من تقتيل فطيع ونهب ذريع .

لقد كان أهالي سمرقند في عهد تيمورلنك سعداء بما أنهال عليهم
آنذاك من الغنائم والأسرى . فهم وجدوا مدينتهم تصبح في ذلك
العهد عاصمة الدنيا ، وامتلاّت اسواقها بالجوارى والعبيد وشتى

البضائع . فتصوروا تيمورلنك من جراء ذلك زعيماً عظيماً
وملكاً رحيماً .

إني أخشى أن يكون العرب مثل أولئك التتر من اهالي سمرقند :
إذ هم ينظرون الى مصالحهم ورفاههم وينسون ما أُصّب على رؤوس
غيرهم من بلاء .

* * *

قد يقول قائل بأن فتح بني أمية كان يختلف عن فتح
تيمورلنك : فذلك كان فتحاً عادلاً في سبيل الله وهذا فتح ظالم
في سبيل الشيطان .

ولست أرى قولاً أسخف من هذا القول .
إننا نصف الفتح الأموي بالعدل لأننا قد استغفنا منه . واهالي
سمرقند يجوز أن يقولوا عن فتح تيمورلنك ما نقول نحن عن فتح بني
أمية . كلٌّ ينظر في الأمور بمنظار مصلحته وينسى مصلحة الآخرين .
ولو نظرنا في الأمر نظرة الانسانية العامة لوجدنا الفتوح كلها
ظالمة في نظر من تقع عليه .

* * *

إني لأتذكر تلك الأيام التي عزم « الاخوان » فيها على
غزو العراق . فقد كنت آنذاك صبياً ألعب في الأزقة ،
وجاءنا في تلك الآونة خبر أفرغنا — هو اننا سنكون ضحايا
« الاخوان » !

وانتشر في الناس حينذاك خبر ما قاسى اهل الطائف على يد « الاخوان » من تقتيل فطيع . فتخيّل الناس انهم سيقعون في مثل ما وقع فيه اهل الطائف ، فاصفرت الوجوه وشاع الذعر في النفوس .

لقد كلّف « الاخوان » ابطالاً مجاهدين في نظر اصحابهم . ذلك لأنهم دوخوا القبائل وفتحوا البلاد . أما نحن فكنا ننظر اليهم كما ينظر الغنم الى الذئب المفترس .
وأحسب ان اهالي البلاد التي كانت مهددة بالفتح الأموي في ذلك الزمان شعروا بالذعر كما شعرنا به اثناء جهاد « الاخوان » .

* * *

يقول المؤرخون ان الجيش الأموي الفاتح عندما دخل المدينة بعد واقعة الحرة أباحها ثلاثة ايام « فاستعرض اهل المدينة بالسيف جزراً كما يجزر القصاب الغنم حتى ساخت الأقدام في الدم وقتل أبناء المهاجرين والأنصار » (١) .

يروى ان جندياً من جنود ذلك الجيش الفاتح دخل على امرأة نفساء من نساء الأنصار ومعها صبي لها فطلب منها مالاً . فقالت له :
« ... والله ما تركوا لنا شيئاً ! » فغضب الجندي وأخذ برجل الصبي والثدي في فمه فجذبه من حجرها فضرب به الحائط فانتثر دماغه على الأرض .. (٢)

(١) انظر : عباس العقاد ، أبو الشهداء ، ص ٢١٢

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ٢١٣

وليس في هذا غرابة . فالفتح هو الفتح في كل زمان ومكان .
جرى الفتح الأموي في المدينة فعرفنا خبره . ولكننا لا ندرى
كيف جرى في بلاد بعيدة ، وماذا قاسى الناس هنالك منه . فالجنود
الذين يفعلون هذا الفعل في مدينة الرسول لا يبالون أن يفعلوا مثله
في بلاد الأعاجم أو الكفرة .

ولا غرو بعد هذا أن نرى موسى بن النصير يجر وراءه من
السبايا ثلاثين ألف عنراء بعد فتح الأندلس .

ولست أظن بأن أولئك العذارى وقعن في الأسر طوعاً
واختياراً . إن المجاهدين الفاتحين لابد قد خطفوهن من البيوت بعد
أن قتلوا رجالها ونهبوا ما فيها . فليس من المعقول أن يذهب
المجاهدون الى بيوت المدن المفتوحة فيطرقون الباب ويقولون :
« اعطونا عنراء في سبيل الله » . إن سبي كل فتاة وراءه قصة طويلة
من النهب والسفك وانتهاك الحرمات .

فعل المجاهدون كل ذلك في سبيل الله طبعاً — فهم أرادوا أن
ينشروا الاسلام في العالم ويؤسسوا به دين العدل والرحمة والانسانية !



فرح العرب بانتصاراتهم الرائعة التي انجزوها في عهد بني أمية .
واخذوا يتعالمون على غيرهم من الأمم المغلوبة ويعتدون أبناءها
عييداً لهم .

وقد ارادت تلك الأمم أن تسترد مكائنها بدخول الاسلام فلم

ينبغي ذلك شيئاً . فالدولة لم تفهم من مثالة الجزية ولم تساومهم بالعرب في كثير من الأمور .

يقول البروفسور نيكلسون : إن الأمم المغلوبة صدقت بأن الاسلام هو دين العدل والمساواة فدخلت فيه . ثم وجدت انها قد اخطأت في ذلك خطأ فظيلاً . ذلك لأن الطبقة الارستقراطية في الدولة لم تعاملها على أساس المساواة مع العرب ... بل احتقرتها واضطهدتها وابتقت عليها ضريبة الجزية واطلقت عليها لقب «الموالي» أي العبيد المعتقين ^(١) .

لا ريب ان هذا وضع اجتماعي يندر بالخطر . ذلك لأن الموالي لم يكونوا من الأمم الفطرية الجاهلة . فهم أولو مدينة قديمة وتراث حضاري معقد . وقد أدى بهم سوء المعاملة الى الانهماك في دراسة العلوم الدينية وفي تطويرها .

وهذا أمر طبعي لا غرابة فيه . فالمضطهد يميل في سبيل التنفيس عن هممه الى اتباع ما يسمى في علم النفس الحديث بالتسامي (Sublimation) .

غُرِّ العرب بالفتح وانشغلوا به فغفلوا عما كان يمكن في باطن المجتمع من ضغط فكري شديد .

أخذ الموالي يشتغلون بجمع الحديث النبوي وتزيينه والمبالغة فيه . واتخذوه سلاحاً معنوياً في أيديهم يحاربون به حكاهم الطغاة ^(٢) .

Nicholson , op. cit. , p. 248

(١) انظر :

(٢) انظر : نفس المصدر والصنعة .

وقد حصل علي بن أبي طالب من الحديث الذي جمعه هؤلاء الموالى على حصة الأسد . فعلى أصبح في نظر الموالى بطلاً دينياً . إذ أخذوا يتهافون على جمع الأحاديث الناطقة بفضله في كل وجه . وكما أوغل الأمويون في سب علي وفي ثلبه أوغل أهل الحديث في حبه وفي جمع مدائمه الصحيحة والمكذوبة .

وهذا الوضع ليس بدعاً في الأوضاع الاجتماعية العامة . فقد وجدنا له مثيلاً في مختلف مراحل التاريخ . وأوضح مثل عليه ما حدث لدى النصارى الأولين من غلو في تقديس المسيح عند ما اضطهدهم الرومان وألقوا بهم إلى السباع .

يروى المحدثون أن النبي قال لعلي ذات مرة : « يا علي لولا أن تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى لقلت اليوم فيك مقالاً لا تمر ببلاد من المسلمين إلا أخذوا تراب رجليك وفضل طهورك يستشفون به ... » (١)

يبدولي أن هذا الحديث اصطنعه المحدثون مؤخراً — ذلك بعد ما لاحظوا التشابه بين ما حدث لأتباع المسيح وما حدث لأتباع علي من غلو في التقديس بسبب الاضطهاد الواقع عليهم .

والواقع أن ما لقي الشيعة من العذاب والتقتيل في عهد بني أمية لم يكن يختلف كثيراً عما لقي المسيحيون الأولون في عهد الرومان . فقد أخذ ولاية بني أمية يتبعونهم وراء كل حجر ومدر . وصاروا

(١) انظر : هاشم البحراني ، علي والسنة ، ص ٧ — ٨

يقطعون أرجلهم وأيديهم ، ويصلبونهم على جلعول النخل .
 واستخدم معاوية زياداً في مطاردة الشيعة . وكان زياد في بدء
 أمره من شيعة علي ، فكان يعرفهم شخصياً ويعرف مكانهم .
 وبهذا كانت وطأته عليهم شديدة .
 ومر على المسلمين حين كانوا يفضلون فيه أن يقال لهم زنادقة
 أو كفرة ولا يقال انهم من شيعة علي بن أبي طالب ^(١) .
 إن هذا الاضطهاد قد أدى الى انتشار فكرة التشيع والى
 الغلو فيها . ولا ينفع الفكرة شي . كالاضطهاد .

يقول المستشرق المعروف فلهاوزن : إن حركة التشيع العلوي
 نشأت في تربة عربية خالصة ، ولم تنتشر بين الفرس إلا بعد ظهور
 المختار . ويؤيد فلهاوزن في هذا الرأي المستشرق غولدزيمر
 والبرفسور آدم منز ^(٢) .

والظاهر أن هذا الرأي صحيح الى حد بعيد . فالعرب قد
 التفوا حول علي في بدء الأمر — كما رأينا . ثم انحازوا أخيراً الى
 الحزب الأموي . وبهذا أخذ حزب التشيع يتعد تدريجاً عن البيئة
 العربية ويتجه نحو الفرس والموالي .

(١) انظر : ابن أبي الحديد ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٥

(٢) انظر : آدم منز ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ،

إن أول ثورة اشترك فيها الموالي هي ثورة المختار بن عبيد الثقيفي .
وقد تدمر العرب منها واستبشعوا ما حدث فيها من مساواة بينهم
وبين الموالي .

وقد ظل الموالي دائبين في ثورتهم بعد المختار ، حتى
اقهت ثورتهم أخيراً الى القضاء على دولة العرب قضاءً كاد أن
يكون تاماً ...

* * *

سار علي بالعرب سيرة حميدة ، حيث سن لهم سنة المساواة .
ولو انهم اتبعوا هذه السنة لارتفع مجدهم بارتفاع مجد الاسلام .
ولكن قريشاً افسدت على العرب هذا الأمر ، وسارت بهم في
طريق شائك لا تحمد عقباه .

لقد خسر العرب كثيراً بالتفافهم حول قريش . وذلك أنهم
اندفعوا مع قريش في احتقار الموالي واضطهادهم . فوثب الموالي ينتقمون
منهم انتقاماً شنيعاً . وكل فعل ينتج رد فعل أشد منه وطأة وافزع أثراً .
وقد قيل قديماً : « الكفر يدوم والظلم لا يدوم ! » .

* * *

إن الحركة العباسية كانت عبارة عن حركة موالي للانتقام من
العرب والقضاء على دولتهم . وتشير كثير من القرائن التاريخية الى
أن الدولة العباسية أسست على بغض العرب . وقد حدث في عهد
هذه الدولة رد فعل عنيف ضد العروبة وانتشرت الشعوبية آنذاك

انتشاراً فظيعاً . ورجع العرب في عهد بني العباس الى الصحراء
يرعون الابل من جديد .

ارسل ابراهيم الامام زعيم الدعوة العباسية الى وكيله أبي مسلم
يقول له : « إن استطعت ألا تدع بخراسان أحداً يتكلم بالعربية إلا
قتلته فافعل ! وأما غلام بلغ خمسة أشبار تهمه فاقتله ، وعليك بمضر
فانهم العدو القريب الدار ، فأبد خضراءهم ولا تدع في الأرض
منهم دياراً » (١) .

وقد طبّق أبو مسلم في خراسان هذه السياسة المعادية للعرب
تطبيقاً حرفياً . فقتل في بضع سنين ستمائة ألف رجل غيلة بغير قتال (٢) .
وقال قحطبة احد اعوان أبي مسلم يخاطب في اهل خراسان قائلاً :
« يا اهل خراسان ! هذه البلاد كانت لأبائكم الأولين ، وكانوا
يُنصرون على عدوهم لعدولهم وحسن سيرتهم ، حتى بدّلوا وظلموا ،
فسخط الله عز وجل عليهم فانزع سلطانهم ، وسلّط عليهم أذل أمة
كانت في الأرض عندهم ، فغلبوهم على بلادهم ... واسترقوا اولادهم ،
فكانوا بذلك يحكون بالعدل ويوفون بالعهد وينصرون المظلوم .
ثم بدّلوا وغيّروا وجاروا في الحكم ، واخافوا اهل البر والتقوى
من عترة رسول الله ... فسلطكم عليهم لينتقم منهم بكم ، ليكونوا
أشد عقوبة ، لأنكم طلبتوهم بالثأر » (٣) .

(١) انظر : أحمد أمين ، منحنى الاسلام ، ج ١ ص ٣٣

(٢) انظر : ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٢٧

(٣) انظر : أحمد أمين ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٥

وجاء المنصور بعد هذا فأخذ ينفذ سياسة أخيه إبراهيم الامام
إزاء العرب تنفيذاً صارماً .

واشتهر المنصور بكرهه للعرب والنفرة من استخدامهم في الأعمال .
يروى الطبري : ان المنصور كان له خادع عربي ولم يكن يدري
بعروبه . فلما علم بذلك طرده وقال : « أما انك نعم الغلام ،
ولكن لا يدخل قصري عربي يخدم حرمي . أخرج عافاك الله
فاذهب حيث شئت » ^(١) .

يقول السيوطي : « ان المنصور أول من استعمل مواليه
(ويقصد الخراسانيين طبعاً) على الأعمال ، وقدمهم على العرب
وكثر ذلك بعده حتى زالت رياسة العرب وقيادتها » ^(٢) .

وقال المسعودي عن المنصور : « انه أول خليفة استعمل مواليه
وغلانه ، وصرفهم في مهماته ، وقدمهم على العرب . فاتخذت ذلك
الخلفاء من بعده سنة . فسقطت وبادت دولة العرب وزال بأسها
وذهبت مراتبها » ^(٣) .



بانتصار العباسيين انتصر الموالى وانتصر التشيع معاً . ومن
المؤسف حقاً أن نرى اسم علي يقترب بالعداء للعرب وبالفضاء على

(١) انظر الطبري ، المصدر السابق ، ج ٩ ص ٣١٦

(٢) انظر : السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ١٠٥

(٣) انظر : المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٥ ص ٤٠١

دولتهم . فقد كان هذا الرجل أول قائد لهم واكبر من دعا الى مساواتهم بقريش التي كانت متعالية عليهم .
أراد علي الخير للعرب في حياته . لكن اسمه صار بعد وفاته شعاراً للنكاية بهم والانتقام منهم .

* * *

ذكرنا سابقاً ان الثورة تفسد اذا نجحت . وعلى هذا فقد فسد التشيع عند ما انتصر على يد العباسيين .
ان سير التاريخ لا يرحم احداً . فهو دائم في صعوده ونزوله . وكل صاعد لابد له من نزول .

كان التشيع ثورة اجتماعية في سبيل العدل والمساواة فلما انتصر انشغل بالقشور واهمل اللباب التي كان يسعى في سبيلها من قبل .
فبعد ما كان الشيعة متفقين في ثورتهم على مظالم العهد الأموي ، انشطروا بعد نجاح الحركة للعباسية الى شطرين متضادين : أحدهما يدعو الى آل العباس ، والآخر يدعو الى آل علي . كأنك تلك الثورة الطاحنة كانت من أجل اشخاص لا مبادئ .
وانشغل المسلمون آنذاك في جدال مريع حول مشكلة القرابة : أيها أقرب الى النبي عمه أم ابنته .

نسى المسلمون أهداف الثورة التي كان يدعو اليها حزب التشيع واخذوا يهتمون بمسألة النسب .

أصبحت الخلافة في نظرهم وراثية ، فتنسأولوا : أيها أولى بوراة

النبي في خلافته — أولاد بنته أم أولاد عمه ؟
 وذهبت جهود علي بن أبي طالب ادراج الرياح — كما ذهبت
 جهود محمد من قبل .

* * *

جاء أحد الشعراء الى الرشيد فأنشد بين يديه قصيدة جاء فيها :
 أعم رسول الله أقرب زلفه
 لديه أم ابن العم في رتبة النسب
 وأيهما أولى به وبعمده ؟
 ومن ذاك له حق الوراثة قد وجب ؟

فأمر الرشيد له بعشرين ألف درهم ^(١) .
 وجاء اليه شاعر آخر ينشده قصيدة جاء فيها « هل للبنات
 وراثة الأعمام ! » فأعجب بها الرشيد ومنح الشاعر جائزة كبيرة .
 يستدل من هذا أن المسألة أصبحت عبارة عن نزاع بين « أهل
 البيت » على إرث أيهم . كل فريق يدعي انه أقرب الى المرحوم
 من غيره — وهو إذن أولى بوراثته .
 ومن ينظر في هذا الأمر نظرة سطحية يُخيّل له بأن محمداً كان
 يجاهد في سبيل إقامة ملك لأولاده وأهل بيته ، وبذا تنازع أهل
 البيت على هذا الملك الذي تركه لهم أبوه المرحوم .

* * *

(١) انظر : محمد برائق ، البرامكة في ظل الخلفاء ، ص ١٢٧

استطاع الفاطميين أخيراً أن يقطعوا لأنفسهم جزءاً كبيراً من إرث الخلافة ، فاستحوذوا على إفريقيا ومصر وهددوا بغداد . وقد ساء العباسيين ذلك فأخذوا يبذلون جهدهم لاثام الفاطميين بأنهم ليسوا من نسل علي وفاطمة . كأن الأمر أصبح أمر نسب — فقط لا غير .

يقول المقرئزي : ان القادر ، الخليفة العباسي ، جمع في بغداد مجلساً من القضاة والأشراف والفقهاء وجعلهم يكتبون محضر أيتضمن القدح في نسب الخلفاء الفاطميين ونفيهم من الانتساب لعلي بن أبي طالب . وكتبت نسخ من هذا المحضر فسُيرت في الآفاق ^(١) .

ولم يكن للخلفاء الفاطميين من هم إلا أن يشيدوا بفضل علي بن أبي طالب ويقيموا الاحتفالات لتمجيد اسمه ومدحه .

أمر المعز الفاطمي أن يكتب على سائر الأماكن بمدينة مصر : « خير الناس بعد رسول الله علي بن أبي طالب عليه السلام » ^(٢) .

وقد أدى هذا الفعل الى ظهور رد فعل مقابل له من جانب الشعب المصري .

فالمصريون كانوا ، من غير شك ، يحبون علي بن أبي طالب . ولكنهم حين وجدوا حكمهم يبالغون في تمجيد علي قاموا هم بتوهين أمره ، وبإعلاء شأن عدوه معاوية .

(١) انظر : المقرئزي ، مخطوط مصر ، ج ٢ ف ١٧٠

(٢) انظر : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٠٦

أخذ شأن معاوية يعلو في نظر المصريين حين كان حكامهم يريدونهم على إعلاء شأن علي . وهذا يشبه ما حدث في أيام الأمويين ، حيث أراد الحكم ثلب علي فأخذ الناس يتحدونهم بتمجيده .
أخذ المصريون في العهد الفاطمي ينشرون الفكرة القائلة بأن معاوية « خال المؤمنين » باعتبار أن أخته كانت من أزواج رسول الله . وكانوا يقومون بالتمظاهرات في شوارع القاهرة فيمتحنون المارة إذ يسألون أحدهم : « من خالك ؟ » فإن لم يقل معاوية ضربوه ^(١) . وكان المتظاهرون يهتفون : « معاوية خال علي بن أبي طالب » . فأرسلت الحكومة منادياً ينادي : « أيها الناس أفلتوا القول ودعوا الفضول ، فلا ينطقن أحد إلا حلت به العقوبة الموجعة » ^(٢) .

تأمل يا أخي القارئ في هذه السخافات التي انشغل بها المسلمون . فالمبادئ الاجتماعية الكبرى التي جاهد في سبيلها محمد وعلي أهملت ، وأخذ المسلمون يهتمون بالأشخاص ويتعاركون حولهم ...

* * *

ومما تجدر الإشارة إليه أن الفاطميين لم يكونوا أقل من غيرهم من سلاطين ذلك الزمان ترفاً أو ظلماً . ولعلمهم فاقوا غيرهم في ذلك ^(٣) .
فإذا كان المتوكل العباسي يملك أربعة آلاف جارية ، فإن

(١) انظر : آدم مئذ ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٠٨ .

(٢) انظر : المقرئ ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

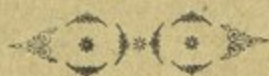
(٣) انظر : جرجي زيدان ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ١١٢ — ١١٦ .

الحاكم الفاطمي كان يملك عشرة آلاف جارية وخادم . وكان عند
 اخته « ست الملك » ثمانية آلاف جارية منها ألف وخمسمائة من
 الفتيات الابكار . ولما قبض صلاح الدين على قصور الفاطميين وجد
 في القصر الكبير اثني عشر ألف نسمة ليس فيهم غل سوى الخليفة
 واولاده . واطلق صلاح الدين البيع فيهم فاستمروا يبيعون عشر
 سنين ^(٢) — والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه .

يقال إن المعز الفاطمي أمر بعمل مقطع من الحرير الأزرق
 منسوج بالذهب غريب الصنعة ، وقد رُسِّمت فيه صورة مكة
 والمدينة وكتب في آخره : « مما أمر بصنعه المعز لدين الله شوقاً الى
 حرم الله واشهاراً لمعلم رسول الله في سنة ٣٥٣ هـ » ^(٢) .

فهذا الظالم العاتي ينهب اموال الناس فيصنع بها صورة لمكة
 والمدينة شوقاً الى الله ورسوله . وبهذا صار محمد بن عبد الله رمزاً
 للترف والطفيان .

أصبح دين محمد ألعوبة بيد السلاطين ونسى الناس ان محمداً
 كان من أعداء أعداء السلاطين .



(١) انظر : المقرئ ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٩٧

(٢) انظر : مرجي زيدان ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ١١٥

الفصل الخامس طبيعة الشهيد

يقارن بعض الباحثين بين علي ومعاوية ، فيفضلون معاوية على علي ، باعتبار أنها تنافسا على الخلافة فغلب أحدهما الآخر .
والغالب أفضل من المغلوب في عرف هؤلاء الباحثين .
لا مراء ان معاوية أفضل من علي — هذا اذا قسنا الفضيلة بمقياس الغلبة والفوز في ميدان السياسة .

ولكن التفاضل بين الأشخاص لا يقاس بمقياس واحد . فرب غالب في مقياس هو مغلوب في مقياس آخر . ومشكلة بعض الباحثين انهم يدرسون التاريخ في ضوء المنطق القديم الذي يؤمن بالحقيقة الثابتة والمقياس المطلق . وتراعى لذلك يتجادلون حول رجال التاريخ ويفاضلون بينهم من غير أن ينتهي جدلهم الى نتيجة حاسمة .
فلو انهم اتفقوا أول الأمر على المقياس الذي يقيسون به الرجال لوجدوا آخر الأمر ان كل رجل فاضل ، حسب مقياس معين ، هو مفضول حسب مقياس آخر .

وقد يصح أن نقول : بأن جدل الباحثين هو جدل في المقاييس والقيم أكثر مما هو جدل في الحقائق والفضائل .

إننا ننظم علياً حين نقيسه بمقياس معاوية . فمعاوية رجل من

دهاقين السياسة ودهاتها . ولنا أن نفضله على غيره حسب هذا المقياس . أما علي فكان له مقياس آخر يختلف عن مقياس معاوية اختلافاً أساسياً .

يقول علي : « ما ظفر من ظفر الاثم به ، والغالب بالشر مغلوب » (١) . فعلي بهذا قد جاءنا بمقياس جديد لا يجوز التفاضل عنه : إذ به يصبح الغالب مغلوباً والمغلوب غالباً .

لقد فشل علي في ميدان السياسة حقاً . وهو خاسر إذن في نظر اولئك الذين يحتفرون السياسة ولا يرون في التاريخ سواها . أما في نظر اولئك الذين يعتبرون التاريخ معركة مبادئ ، فعلي بطل جبار لا يشق له غبار .

يعدّ المؤرخون علياً كأنه خليفة من طراز معاوية وبهذا يقيسونه بمقياسه والواقع ان علياً لم يكن خليفة ، بل كان ثائراً — وظل ثائراً حتى مات . فهم يفرضون عليه مقياساً من عندهم ويحكمون عليه تبعاً له .

والواجب على الباحث أن يحكم على الأشخاص حسب قيمهم التي كانوا يؤمنون بها . ومن أفضع الأخطاء التي يقع فيها المؤرخون انهم يدرسون العهود الماضية في ضوء قيمهم الحاضرة .

لودرسنا خلافة علي دراسة موضوعية لوجدناها ثورة اجتماعية ليس فيها من طبيعة السلطان إلا قليل .

فلما في فصل سابق : ان معاوية كان في أيام عثمان هو الخليفة
الفعلي ، وكان الشام مقر سلطانه وموئل أتباعه وجنوده . وقد ظل
معاوية على هذه الحال حتى مات .

أما الفترة التي ببيع بها علي ، فكانت فترة ناشزة تشبه أية
فترة أخرى من فترات الانتفاضات الشعبية في التاريخ .

ومما تجدر الإشارة اليه ان قريشاً لم تباع علياً . إذ لم يبايعه إلا
الثوار الذين قتلوا عثمان . وهذه البيعة كانت بمثابة إجماع من الثوار
على تسليم قيادة الثورة الى علي بن أبي طالب .

ومن المؤسف أن نرى المؤرخين لا يلتفتون الى هذه النقطة
أو لعلمهم لا يعترفون بوجودها . فهم يضعون علياً في سلسلة الخلفاء
الذين حكموا الامبراطورية الاسلامية . ونسوا ان علياً لم تتح له
فرصة الحكم . فهو قد ظل خلال تلك الفترة التي بايعه الثوار فيها
في حرب شعواء لم يستتب له الأمر حتى مات . فمتى صار خليفة
يا ترى ؟

يلوم بعض المؤرخين علياً لكونه لم يدار ظروفه السياسية ولم
يتألف الناس أو يساوم الولاة والرؤساء . إنهم يلومونه بوصفه خليفة ،
ونسوا انه كان ثائراً . والثائر ينظر في الأمور بمنظار غير منظار
الحاكم أو السياسي .

إن مختلف الأعمال التي قام بها علي اثناء خلافته المزعومة تشير
الى أنه كان رجلاً لا يفهم السياسة ولا تفهمه . والذين يطلعون على

تلك الأعمال قد يتخيّلون علياً بليداً أو معتوهاً لشدة ما يرون فيها
من قصر نظر . ولو انصفوا لقاوا تلك الأعمال بمقياس الثورة .
وبذلك ينجلي في أعينهم كنهه علي وحقيقة مقاصده .

* * *

إن أول عمل قام به علي هو أنه عزل جميع العمال والولاة الذين
كانوا على عهد عثمان . فجاءه أصحابه ينصحونه بأن لا يفعل ذلك .
وألحوا عليه إلحاحاً شديداً . فأبى علي وأصر على إباته .

ومن ينظر في هذا الفعل الذي قام به علي لا يستطيع إلا أن
يصف علياً بقصر الباع في أمور السياسة . فكيف يجوز لحاكم جديد
أن يهدم دفعة واحدة ما بناه سلفه . إن التدرج في مثل هذه الحالة
ضروري . هذا ولكن علياً لا يعرف هذه الضرورة . فلمساومة الأولى
تجر وراءها مساومات . والرضية الواحدة تؤدي إلى سلسلة متتابعة
من الرضيات والمراوغات .

نصحه المغيرة بن شعبة ، وكان معدوداً من دهاة العرب ،
فقال له : « ... أقرر العمال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة
الجنود استبدلت أو تركت » . فأجابه علي : « لا أداهن في ديني
ولا اعطي الدينية في أمري » ^(١) .

وجاء إليه جماعة من أصحابه بعد هذا ينصحونه بأن يقسم المال
بين الناس حسب منازلهم الاجتماعية وانسابهم ليتألف قلوبهم فقال

(١) انظر : عباس العقاد ، عبقرية الامام ، ص ١١٢ — ١١٣

لهم : « أتأمروتي أن أطلب النصر بالجور ؟ ! » ^(١)
 وجاء اليه أخوه عقيل يشكو اليه الفقر والحاجة ويريد أن يعطيه
 شيئاً من بيت المال . فقال علي لرجل كان بجانبه : « خذ بيده
 وانطلق به الى حوانيت أهل السوق ... دق هذه الأقفال وخذ
 ما في هذه الحوانيت » . فقال له عقيل : « تريد أن تتخذني سارقاً ؟ »
 فأجابته علي : « وأنت تريد أن تتخذني سارقاً .. أنت آخذ أموال
 المسلمين فأعطيكها دونهم » ^(٢) .

فذهب عقيل الى معاوية في الشام وهو يقول : « إن أخي خير
 لي في ديني ومعاوية خير لي في دنياي ! » ^(٣) .

واستحوذ معاوية على الفرات في بدء معركة صفين فمنع الماء عن
 علي . ثم هجم اصحاب علي على الماء فأزالوا اصحاب معاوية عنه
 وأرادوا أن يمنعوه من شربه كما فعلوا هم من قبل . فقال علي :
 « ... خلوا بينهم وبين الماء . فان الله قد نصركم بغيرهم وظلمهم » ^(٤) .
 وجاء اليه أحد زعماء بني أمية بعد أن تمت له البيعة فقال له :
 « يا أبا الحسن .. انك قد تورتنا جميعاً ... ونحن نبايعك على أن
 تضع عنا ما أصبناه من المال أيام عثمان ... » ^(٥) . فأبى .

(١) انظر : ابن أبي الحديد ، شرح النهمج ، ج ١ ص ١٨٢

(٢) انظر : ابن حجر ، الصواعق المحرقة ، ص ٧٩

(٣) انظر : عباس العقاد ، المصدر السابق ، ص ٥٠

(٤) انظر : عبد الحميد السحر ، أهل البيت ، ص ١٥٣

(٥) انظر : ابن أبي الحديد ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٧٢

وقال في خطبته التي افتتح بها عهد خلافته : « ... ألا ان كل
قطيعة أقطعها عثمان ، وكل مال أعطاه من مال الله ، فهو مردود
في بيت المال . فان الحق لا يبطله شيء . ولو وجدته قد تزوج به
النساء ، وملك الاماء ، وفرق في البلدان ، لردته . ومن ضاق
عليه الحق فالجور عليه أضيق ... » (١)

* * *

إن هذه أعمال لا يقوم بها من يريد أن يحكم الناس ويستفيد
منهم . إنها بالأحرى أعمال من يريد أن يموت ، لتبقى بعده نماذج
تقتدي بها الأجيال التالية .

إن الذي يريد أن ينجح في هذه الحياة يجب عليه أن يداري
الرؤساء وأولي الجاه وارباب القلم وذلاقة اللسان .

فالمساكين من الناس لا ينفعون من ينفعهم . إذ هم لا يعبرون
عن امتنانهم كما يعبر عنها الشاعر الفصيح ولا يستطيعون أن يساعدوا
أحدًا كما يساعده أولو الجاه والنفوذ .

ولهذا وجدنا الداهية من رجال السياسة يفتقد الأموال على
الشعراء من ناحية وعلى الرؤساء من الناحية الأخرى . فيلهج هؤلاء
واولئك بأمداحه وينشرون فضائله بين الناس .

ولو درسنا الأدب العربي لوجدناه مملوءاً بأمداح السفلة
والسفاكين والطفاة . ذلك لأن هؤلاء الطغاة قد وزعوا جزءاً

(١) انظر : سيد قطب ، العدالة الاجتماعية في الاسلام ، ص ١٩٦

كثيراً مما ينهبون من أموال الناس على الذين ينفعون ويضرون .
أما الملساكين الذين لا يستطيعون أن ينفعوا أحداً أو يضروه فقد
خسروا دنياهم وآخرتهم معاً .

كان علي لا يبالي بالأشراف وبالشعراء . جل همه كل
منصباً على العامة من الناس . فكان يداريهم ويرعاهم ويلقي باله اليهم .
وقد كتب الى أحد ولاته كتاباً يقول فيه : « وإنما عماد الدين
وجماع المسلمين والمدة للاعداء : العامة من الأمة ، فليكن صفوك
لهم وميلك اليهم ... » ^(١)

والظاهر ان علياً لم ينجح بهذه السياسة التي سار عليها . فقد
خذله الرؤساء وجروا وراءهم العامة في خذلانهم هذا .
فالعامة لا تعرف ماذا يجري وراء الستار من مكائدات
ومؤامرات . إنما تسمع الفصحاء والرؤساء ينطقون ، فيصدقونهم
وينصرفون بأقوالهم .

ولهذا وجدنا علياً قد مَجَّ صوته من النداء فلم يصغ اليه أحد ..
وأخيراً صاح في الناس قائلاً : « ... إني أريدكم لله ، وأنتم
تريدونني لأنفسكم » ^(٢) .

خطب علي في أواخر أيامه مخاطب الناس قائلاً : « أوليس

(١) انظر : محمد عبده ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٩٦

(٢) انظر : عباس العقاد ، المصدر السابق ، ص ١٢٧

عجبا ان معاوية يدعو الجفاة الطغاة فيتبعونه على غير عطاء ولا معاونة ،
ويجبيونه في السنة المرتين والثلاث ، الى أي وجه شاء . وأنا ادعوك ،
وأنتم أولو النهى وبقية الناس ، على المعاونة ، وطائفة منكم على
العطاء ، فتقومون عليّ وتعصوني وتختلفون عليّ » ^(١) .

يتعجب علي من هذا ، والأحرى به أن لا يتعجب . فهذه
هي طبيعة الناس في معظم الأحيان .

لقد استرضى معاوية الرؤساء فجاء وراءهم العامة يتهافون من
حيث لا يشعرون . واسترضى علي العامة فلم يفهموه .. ولم يعرفوا
قدره — إلا بعد أن مات .

يقال إن معاوية أعطى ذات مرة جماعة من الزعماء كلاً مائة
الف ، إلا رجلاً واحداً حيث أعطاه سبعين ألفاً . فاحتج الرجل
على هذا التفریق وسأل عن السبب فيه ، فأجابه معاوية قائلاً :
« إني اشتريت من القوم دينهم .. ووكلتك الى دينك ... » فقال
الرجل : « وأنا فاشترمني ديني ! » عند هذا ساواه معاوية
بأفرانه ^(٢) واشترى منه دينه كله — والعياذ بالله .

* * *

إن من المفارقات المضحكة أن نرى الأخطل ، الشاعر النصراني
المعروف ، يمدح معاوية فيقول :

(١) انظر : أنيس التصولي ، معاوية بن أبي سفيان ، ص ٦١

(٢) انظر : الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٢ ص ٩٧

وطدت لنا دين النبي محمد
بجلمك إذ هرت سفاهاً كلابها^(١)

ولا ينتهي ضحكي من هذا البيت العجيب ، حيث أجد فيه
شاعراً مسيحياً يمدح معاوية لأنه وطد له دين النبي محمد .
ولست أشك في أن الأخطل استلم جزاء هذا الشعر مبلغاً
كبيراً من المال . فهو إذن لا يبالي أن ينتصر دين محمد أو دين
المسيح — ما دام المال موفوراً .

والناس حين يسمعون هذا الشعر قد يصفقون له أو ينتهجون
بما فيه من غدوبة وجزالة — وهم لا يكتثرون لما يراد بهم .

* * *

إن من مفارقات الاسلام أن قد ظهر فيه رجلان متافضان في
كل وجه : أحدهما أسس فيه ملكاً عظيماً والآخر أسس ثورة
طاحنة — هما معاوية وعلي .

وتاريخ الاسلام أمسى ميداناً للنزاع بين ملوك وثوار . اولئك
ينشون وهؤلاء يهدمون ! ولا ندري أين ينتهي بهم المطاف .

* * *

رفع راية الثورة بعد علي بن أبي طالب ابنه الحسين . وسار في
ذلك سيرة من يريد أن يموت — كما سار أبوه من قبل .
يُروى أن مسلماً بن عقيل رسول الحسين في الكوفة اختلى

ذات يوم بخصمه اللدود ، عبيد الله بن زياد ، في بيت من بيوت الكوفة . وكان بإمكانه آنذاك أن يغتاله فينقذ الحسين بذلك من تلك المأساة الفظيعة . ولكنه لم يفعل . وقد سأله رجل عن السبب فأجاب : « منعني من ذلك حديث عن رسول الله حيث قال : المؤمن قيد الفتك ولا يفتك مؤمن ... » فقال له الرجل عند ذلك وهو متبرم : « أما لو قتلته جلست في الثغر لا يستعدي به أحد ... ولكنك تقتله ظالماً فاجراً » ^(١) .

الظاهر ان هؤلاء الناس قد اجبلوا من طينة الشهادة . فهم يشورون ولا يتخذون في ثوراتهم سبيل النجاح . إنهم ألقوا بأنفسهم الى التهلكة وكتب عليهم النشل في كل سبيل سلكوه — إلا سبيل الشهادة .

* * *

خرج الحسين الى الكوفة فجاه اليه كثير من النصحاء يعظونه أن لا يفعل . فأبى وأصر على إياهم . جاءه ابن عباس وابن جعفر وابن الحنفية وابن عمر وغيرهم فنصحوه وأطالوا له النصح . فلم يند فيه نصيحهم شيئاً ^(٢) . يقال إن ابن عمر قال للحسين : « إتق الله .. ولا تفرق جماعة المسلمين » . فقال له الحسين : « يا ابن عمر . لو كان أبوك حياً لنصرني » .

(١) انظر : عباس العقاد ، أبو الشهداء ، ص ١٠٤

(٢) انظر : ابن العربي ، العواجم من القواصم ، ص ٢٣١

ومرّ به الفرزدق الشاعر في طريق الكوفة فقال له : « يا بن رسول الله .. ان أهل الكوفة قلوبهم معك وسيوفهم عليك » . فلم ينتن الحسين عن عزمه وأصرّ على الذهاب الى الموت ^(١) . والظاهر ان الحسين كان يريد أن ينتحر . فهو يعرف بأن بني أمية أقوى من أن يستطيع القضاء عليهم بهذا الخروج ، وهو لا بد هالك في سبيله الذي سار فيه . ولعله أراد أن يُقتل لكي يكون مقتله صرخة مدوية تقض مضاجع بني أمية .. وربما قضت عليهم في النهاية .

يعتقد ماربين ، المستشرق الألماني ، ان الحسين أراد بخروجه النصر الآجل الذي يأتي بعد الموت ، فالحسين قد أدرك صعوبة النصر العاجل في حياته فأثر أن يستشهد لكي ينال النصر بعد وفاته ^(٢) .

إن هذا ، على أي حال ، رأي لا ندرى مبلغ الصواب فيه . ومهما يكن الحال ، فقد كان مقتل الحسين من أقوى العوامل التي فوّضت دعائم الدولة الأموية في المشرق .

فالحسين كان حبيباً الى قلوب الناس يتوسمون في وجهه ملائح رسول الله ويعتبرونه ركناً من أركان الايمان القائم في القلوب .

(١) ان حفيد الحسين ، زيد بن علي ، ثار في الكوفة على هشام بن عبد الملك وأتى أن يستمع الى نصائح الناصحين . وقد قتل أخيراً كما قتل جده الحسين .

(٢) انظر : عباس العقاد ، المصدر السابق ، ص ١٤٠

فلما قُتل أخذ الناس يتناقلون خبر مقتله ويبالغون فيه ويتخذونه سلاحاً معنوياً ضد حكامهم المكروهين .

يقول القاضي الأندلسي ، أبو بكر بن العربي ، عن الحسين انه « قتل بشرع جده »^(١) . وهو ينتقد ثورة الحسين انتقاداً ضمنيّاً فيقول : لو ان الحسين وسعه يته أو ضيعته أو إبله ، ولو جاء الخلق يطلبونه ليقوم بالحق لم يلتفت اليهم ...^(٢)

ويؤيد ابن خلدون هذا الرأي بعض التأييد فيقول : إن الحسين غلط في أمر خروجه على حكم يزيد الذي كان مؤيداً بعصية قريش^(٣) . وابن خلدون يستند في هذا على نظريته الاجتماعية في العصية . فهو يعتقد أن الحق من غير قوة تسنده لا خير فيه . والواجب على صاحب الحق ، في نظر ابن خلدون ، أن ينظر في قوته وعصيته فإذا وجدها كافية نهض بها . أما إذا كانت غير كافية فالسكوت عليه واجب .

وإبن خلدون يعتبر جميع الثوار الذين لم ينجحوا في ثوراتهم موسوسين أو مجانين^(٤) . ذلك لأنهم ثاروا على الدولة من غير قوة اجتماعية تؤيدهم . فهم يحسبون أن مبادئهم الحقّة التي دعوا إليها

(١) انظر : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢١٧

(٢) انظر : ابن العربي ، المصدر السابق ، ص ٢٣٢

(٣) انظر : ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٢١٦ — ٢١٧

(٤) انظر : ساطع الحصري ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، ص ٢٩٩

كافية لنجاحهم » ولا يحسبون ما ينالهم فيه من التهلكة فيسرع اليهم القتل بما يحدثونه من الفتنة وتسوء عاقبة مكرهم » (١).

إن رأي ابن خلدون هذا معقول . وحجته فيه واضحة لا تحتاج الى دليل . ولكنه مع ذلك رأي فيه شيء من الواقعية المتطرفة التي لا يستسيغها أصحاب المثل العليا . فهؤلاء يثورون على أي حال ولو رأوا السيف مصلاً على رقابهم .

لا شك أن هؤلاء المثاليين نادرون في تاريخ العالم . ولكنهم مع ذلك موجودون . وهم على قلتهم قد ينجزون ما لا ينجزه الكثير من الناس .

إن السلاطين عادة يملكون قوة رادعة . وهم محاطون بالجلالوزة الغلاظ والجلادين . ومهما كان التأثير قوياً فهو لا يستطيع أن يضمن لنفسه النجاح تجاه أولئك الجلادين والجلالوزة .

ولو اتبع الناس كلهم رأي ابن خلدون لما استطاع أحد أن يثور أو يعترض على سلطان ، ولبي الطغاة يعبثون في الأرض من غير رادع .



يمثل رأي ابن خلدون في الآونة الأخيرة الشيخ محمد الحضري مؤلف « تاريخ الأمم الإسلامية » . فهذا الشيخ ينظر في الثورات التي حدثت في صدر الإسلام فيشجبها ، إذ هو يعتبرها خروجاً

(١) انظر : ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ١٦١

على الدولة بدعوة لا سند لها من القوة الواقعية .

وبشبه الأستاذ عباس العقاد الحضري وأمثاله بالتجار ، حيث هم يدرسون الثورات كما يدرس التاجر أرباحه وخسائره . فالتاجر يجمع الأرقام ويطرحها في دفتر الحساب لكي يعرف ما يربح من تجارته وما يخسر . والحضري يريد من الثائر أن يحسب مبلغ قوته وقوة خصمه على هذا المنوال التجاري .

يقول العقاد : إن منحنى الاستشهاد هو بالبداية غير منحنى الحساب والجمع والطرح في دفاتر التجار . فالدعاة المستشهدون يخسرون حياتهم وحياة ذويهم ولكنهم يرسلون دعوتهم من بعدهم ناجحة متفائلة فتظفر في نهاية المطاف بكل شيء حتى المظاهر العرضية والمنافع الأرضية .

وأصحاب المنافع الأرضية ، في رأي العقاد ، يكسبون في أول الشوط ثم ينهزمون أخيراً في وجه الدعوة المستشبهة حتى يخسروا حياتهم أو حياة ذويهم . وتوزن حظوظهم بكل ميزان فاذا هم بكل ميزان خاسرون . وسوف يجد المؤرخ في نهاية المطاف أن دفتر التجار لن يكتب الربح أخيراً إلا في صفحة الشهداء ^(١) .

ويقول العقاد : « انهزم الحسين في يوم كربلاء وأصيب هو وذووه من بعده . ولكنه ترك الدعوة التي قام بها ملك العباسيين والفاطميين ، وتعلل بها أناس من الأيوبيين والعثمانيين ، واستظل

(١) انظر : عباس العقاد ، المصدر السابق ، ص ٢٢٩

بها الملوك والأمراء بين العرب والفرس والهنود ، ومثل للناس في حلة
من النور تخضع لها الأبصار . وباء بالفخر الذي لا فخر مثله في تواريخ
نبي الانسان .. فليس في العالم أسرة انجيت من الشهداء من انجبتهم
أمره الحسين علة وقدره وذكرة . وحسبه أنه وحده في تاريخ
هذه الدنيا الشهيد بن الشهيد أبو الشهداء في مئات السنين ^(١) .



لو أن الناس جميعاً اتبعوا نظرية « التجار » التي جاء بها الحضري
وابن خلدون ، لوقف التاريخ .. ولما رأينا اليوم شيئاً اسمه ديموقراطية .
فالديموقراطية قامت على اكتاف الشهداء الذين ألقوا بأنفسهم الى
التهلكة على توالي الأجيال .

ينهض الثائر ثم يموت ... فيشير بموته ثواراً آخرين . وبهذا
تتلاحق قافلة الثائرين جيلاً بعد جيل . وهم في كل مرة يضيفون الى
شعلة النور لهيباً جديداً .



ليس غريباً أن يشجب الثورات رجل عاش في القرون الوسطى .
إنما الغريب ، كل الغرابة ، أن يشجبها رجل يعيش في القرن
العشرين !

الفصل الحادي عشر

قضية الشيعة والسنة

إن هذه القضية شائكة الى أقصى حد ، سيما في العراق —
هذا البلد الذي يصح أن يسمى « بلد الجلاوة » .

كان العراق موئل هذه القضية من أول أمرها ، ولا يزال يعاني
منها ما يعاني . ولم ينهك بلد من البلاد الاسلامية في شيء بمثل
ما انهمك العراق في هذه القضية .

وإني لم اكتب هذا الفصل للجيل القديم من أبناء العراق .
فهؤلاء سوف لا يفهمون منه شيئاً ، إذ أن كل فريق منهم واثق بأن
الحق بجانبه وحده وأن الباطل كله من نصيب غيره ، وهو قد ورث
هذا الاعتقاد الجازم من آبائه . فهو لا يفهم إلا ما نشأ عليه من تقاليد
وعقائد ومفوس . شأنه في ذلك شأن أي مجتمع جامد — دأبه أن
يقول : « إنا وجدنا آباءنا على ذلك وإنا على آثارهم مقتدون ! »

لم اكتب هذا الفصل إلا لأبناء الجيل الجديد — هذا الجيل
الذي سئم من هاتيك التقاليد البالية وأدرك بأنها مصدر بلائه
وأساس ضعفه .

ولقد وجدتُ كثيراً من أبناء هذا الجيل مدركين واعين :
يلاحظون هذا النزاع الطائفي ، وما فيه من سخف وتخايب ، فتقفز

ففسهم منه . فالمجتمع رازح تحت أعبائه الثقيلة بينما أهله قد انهمكوا
فيما لا طائل وراءه من جدل عقيم .

إن المنطق الاجتماعي يستسخر هذا الجدل ويضحك على ذقون
اصحابه . فهو يعتبره جدلاً قليلاً أكثر منه جدلاً مبدئياً .

كل المنطق القديم يعد الحق والباطل صنفين متضادين . فإذا
كان أمر من الأمور حقاً فلا بد أن يكون نقيضه باطلاً . وهذا هو
ما يدعى بالتصنيف الثنائي . وهو تصنيف لا يستسيغه المنطق الحديث .
إن الحق والباطل ، في نظر المنطق الحديث ، أمران اعتباريان ،
والنزاع فيها هو في أساسه نزاع على المقاييس أكثر منه نزاعاً
على الحقائق .

إن المنطق الحديث قد قلب الأفكار رأساً على عقب .
ويؤسفنا أن نرى مفكرينا المعاصرين لا يزالون يعيشون في خيالات
التفكير القديم .

* * *

تقص لنا الأساطير ان غراباً رأى زميلاً له من نوعه ، فهاله
ما وجد في وجه زميله المحترم من سواد كالح . إنه امتعض مما وجد
في وجه زميله من سواد ، وهو لو نظر وجهه في المرآة لآه لا يقل
سواداً وقبحاً عن وجه زميله .

والمشكلة آتية من كون الغراب لا يملك مرآة يرى وجهه فيها .
وهذه هي مشكلة البشر جميعاً . فكل فريق يرى مساوياً

غيره ولا يدري انه مبتل بمثل تلك المساوي على وجه من الوجوه .
قلتُ في أحد كتبي السابقة : « إني لا أريد بهذا البحث أن
أقع إلا من يريد أن يقتنع . أما الذي لا يريد أن يقتنع فليس لنا إزاءه
أية حيلة » (١) . وما قلته إذ ذاك يصح أن أقوله في هذه المناسبة أيضاً .
فإن الذي ينشأ في بيئة اجتماعية معينة ويربى على تقاليدها
ومقاييسها الفكرية يصعب عليه أن ينظر في الأمور نظراً مجرداً .
إن المقاييس الفكرية الخاصة بمجتمعه قد انغرزت في عقله الباطن
وأصبحت توجه تفكيره من حيث لا يدري . فتفكيره محاط
باطار لاشعوري . هو يظن بأنه حر في تفكيره وهو واهم في ذلك ،
إذ أنه لا يختلف في قيوده الفكرية عن غيره من الناس .
والمشكلة أنه يلاحظ قيود غيره ولا يستطيع أن يرى قيوده
الخاصة به . فهو يقول لغيره « يا أسود الوجه » وينسى سواد
وجهه — مع الأسف الشديد .

يزعجني بعض رجال الدين حين أراهم يكتبون ويخطبون معلنين
للناس أنهم يطلبون الحقيقة المجردة — غير دارين بأنهم يطلبون
الحقيقة كما يشتهونها .

والإنسان لا يفهم من الحقيقة إلا ذلك الوجه الذي يلائم عقده
النفسي وقيمه الاجتماعية ومصالحه الاقتصادية . أما الوجوه الأخرى

(١) انظر : علي الوردي ، خوارق اللاشعور ، ج ١ ص ٨

من الحقيقة فهو يُهمَلها باعتبار أنها مَكْذُوبَةٌ أو من بنات أفكار الزنادقة — لعنة الله عليهم .

لا يستطيع أن يدنو من الحقيقة الكاملة إلا ذلك المشكك الذي ينظر في كل رأي نظرة الحياد .

إن الشك هو طريق البحث العلمي . ولم يستطع العلماء المحدثون أن يبرزوا أسلافهم في البحث إلا بعد أن اتبعوا طريق الشك . أما أولئك المتحذلقون الذين آمنوا بتقاليد آبائهم ثم جاؤنا يتفقهون بطلب الحقيقة المجردة فهم لا يستحقون في نظر العلم الحديث غير البصاق .

إننا لا نلوم رجال الدين على إيمانهم الذي يتمسكون به . ولكننا نلومهم على التطفل في البحث العلمي وهم غير جديرين به . إن الإيمان والبحث على طرفي نقيض . ولا يستطيع المؤمن أن يكون باحثاً . ومن يريد أن يخلط بينهما فهو لا شك سيضيع الميتين .

إن رجال الدين من الشيعة وأهل السنة يتنازعون على أسامس قبلية كما يتنازع البدو في الصحراء . فكل فريق ينظر إلى مساوئ خصمه ، وكل حزب بما لديهم فرحون .

قد يستغرب القارىء إذا علم بأن كلتا الطائفتين كانتا في أول الأمر من حزب واحد ، وأن الذين فرقوا بينهما هم السلاطين ووعاظ السلاطين .

ففي عهد الدولة الأموية كان الشيعة وأهل السنة يؤلفون حزب الثورة . إذ كان الشيعة يشيرون على الدولة بسيوفهم ، بينما كان أهل السنة يشيرون عليهم بأحاديثهم النبوية — هؤلاء كانوا ينهون عن المنكر بالسنتهم ، وأولئك كانوا ينهون عنه بأيديهم .
ومما تجدر الإشارة إليه أن مصطلح « أهل السنة والجماعة » لم يظهر في التاريخ إلا في أيام المتوكل . وكانوا قبل ذلك يُدعون « أهل الحديث » . و « الحديث » و « السنة » لفظتان مترادفتان من بعض الوجوه .

ومن يدرس سيرة أهل الحديث أثناء الحكم الأموي يجدهم كانوا على عداوة مستحكمة ضد ذلك الحكم الطائفي ^(١) .
مرت أثناء الحكم الأموي فترة قصيرة أمدها سنتان تقرب فيها أهل الحديث من الدولة وأيدوها — هي تلك الفترة التي حكم فيها عمر بن عبد العزيز . وعمر هذا لم يكن في أعماق نفسه أموياً ، إنما كان راشدياً متأثراً بسيرة جده من أمه ، عمر بن الخطاب .
دخلت عليه عمته ترجوه أن يتبع سنة نبي أمية وينزع عن سنة جده عمر بن الخطاب ، فأبى . فلما خرجت من عنده قالت لقومها من بني أمية : « تزوجون ابنكم عبد العزيز من آل عمر بن الخطاب فاذا نزعوا إلى الشبه جزعتم ؟ إصبروا له وذوقوا مغبة أمركم » ^(٢) .

* * *

(١) انظر : Wellhausen , Arab Kingdom ... , p. 286

(٢) انظر : سيد الأهل ، الخليفة الراشد ، ص ١٠٣

إننا لا نبعد عن الصواب إذا قلنا بأن أهل الحديث لم يكونوا أقل من الشيعة عداً للامويين ومعارضة لهم . إنما كانوا يختلفون عن الشيعة بشيء واحد : هو أنهم لجأوا إلى سلاح الحديث يجمعونه ويصقلونه ليحاربوا به الظلم والترف والطغيان الذي كان سائداً في ذلك العهد .

إن الثورة ، بوجه عام ، تحتاج إلى نوعين من السلاح ، هما سلاح السيف وسلاح القلم . ولم تنجح ثورة في التاريخ من غير أقلام قوية ، أو ألسنة ، تدعو إليها وتشر مبادئها بين الناس . فالسيف وحده لا يكفي لتدعيم مبدأ من المبادئ الثورية . فإذا لم تقبل القيم الفكرية ويخلع الناس عن عقولهم طابع الخضوع والجمود ، عجز السيف عن القيام بثورة ناجحة .

بعث علي بن أبي طالب روح الثورة في المجتمع الاسلامي . فتولى أمر تلك الروح بعد موته طائفتان من الناس ، هما : طائفة الشيعة من جانب وطائفة أهل الحديث من الجانب الآخر . اولئك ثاروا بسيوفهم ، وهؤلاء ثاروا بأقلامهم .

واستطاعت الطائفتان أخيراً أن تقضي على الدولة الأموية قضاءً كاد أن يكون مبرماً .

إذا تكاتف السيف والقلم على أمر ، فلا بد أن يتم ذلك الأمر عاجلاً أو آجلاً .

دعمت الدولة الأموية حكمها بالسيف وحده ، وأهملت جانب
العلم . وكان ذلك سبباً كبيراً من اسباب سقوطها الذريع .
كان الأمويون أولي نزعة بدوية قوية . ولذا ساروا على طريقة
أهل البادية حيث اعتقدوا « ان الحق بالسيف والعاجز يريد شهوداً » .
وما دروا ان الشهود في الحياة الحضرية لهم أهمية كأهمية السيف .
أهل الأمويون أهل الحديث ، واهتموا بالشعراء كما يفعل
البدو تماماً . ونسوا أن شعراء الحضارة غير شعراء البادية . فشاعر
القبيلة البدوية جزء لا يتجزأ منها . أما شاعر الحضرة فهو يطلب
بشعره المكافأة وهو لا يتردد أن يشتم اليوم من كان يمدحه بالأمس .
إذ يدور في ذلك حيناً يدور المال . ولهذا وجدنا الأمويين حين
يسقطون تسقط معهم جميع مدائحهم ومحاسنهم .

سجل أهل الحديث مثالب الأمويين وفضائل اعدائهم فبقى
هذا التسجيل خالداً يقرأه الناس جيلاً بعد جيل ، ويؤمنون بما فيه .
أما الشعر الذي قيل في مدح الأمويين فقد قرأه الناس بعد ذلك
على أساس أن اكذبه اعذبه . وذهبت الملايين التي انفقتم في سبيله
ادراج الرياح .

وبذا صار التاريخ الاسلامي مملوءاً بمثالب الأمويين ، حيث لم
يذكر المؤرخون والمحدثون فيه من محاسنهم إلا قليلاً .

* * *

جاء العباسيون أخيراً فأخذوا يهتمون بأهل الحديث اهتماماً بالغاً .

وكانهم ادركوا ما جرّاهم على الأمويين من وبال ، فانتالوا
عليهم يقبلون ايديهم ويصغون لمواعظهم ويعقدون عليهم الأموال —
والجواري ايضاً .

قلنا في فصل سابق ان العباسيين لم يكونوا يختلفون عن اسلافهم
الأمويين من حيث الترف والظبيان أو من حيث السفك والنهب .
إنما اختلفوا عنهم بالمظهر فقط . اولئك كانوا ينفرون من اهل
الحديث ويضطهدونهم ، وهؤلاء يجلسونهم ويذرفون الدموع الغزيرة
عند حضورهم .

ومما يلفت النظر في هذا الصدد ان كبار الفقهاء واهل الحديث
لم ينخدعوا بهذا المظهر الخلاب . فقد كانوا أذكي من ان تنطلي
عليهم الحيلة .

لقد بقي هؤلاء ، على دأبهم الأول ، يدعون للثورة ويؤيدون
اصحابها . ووجدناهم ينشرون فضائل علي بين الناس ويدينون مبادئه
الاجتماعية التي ثار من اجلها هو واولاده من بعده .

ولو درسنا سيرة الأئمة الكبار الذين عاشوا في اواخر العهد
الأموي واوائل العهد العباسي لوجدناهم يتشيعون لعلي ولبنائه
الثورية تشيعاً عجباً رغم الظروف المشبّطة التي كانت تحيط بهم .

فأبو حنيفة الذي يلقب بـ « الامام الأعظم » كان علوي
الهُوى ثورياً من طراز فذ .

يقول الزخشري : « وكان أبو حنيفة يفتي سرّاً بوجوب

نصرة زيد بن علي ، وحمل الأموال إليه ، والخروج معه على اللص المتغلب المتسمي بالامام والخليفة « (١) » .

ويقول ابن حجر : « وكان أبو حنيفة رضي الله عنه يعظم أهل البيت كثيراً ويتقرب بالانفاق على المستترين منهم والظاهرين حتى قيل إنه بعث إلى متستر منهم بأثنى عشر ألف درهم وكان بعض أصحابه على ذلك ... » (٢) .

ولما ثار محمد بن عبد الله الحسني في المدينة ضد المنصور بايعه أبو حنيفة . وظل على تلك البيعة بعد مقتله إذ كان يعتقد بموالاته أهل البيت (٣) . وكتب أبو حنيفة إلى إبراهيم ، أخي محمد ، يشير إليه بقصد الكوفة سراً ويعلمه بأن في الكوفة من الشيعة من يستطيع أن يقتل المنصور . فظفر المنصور بكتاب أبي حنيفة فبعث عليه واشخصه عنده ثم سقاه شربة فأت منها (٤) .

ويؤيد الخطيب البغدادي هذا الخبر فيقول إن أبا حنيفة أفتى بالخروج مع إبراهيم بن عبد الله الحسني لحرب المنصور ، فسببت هذه الفتوى سم المنصور له (٥) .

كان أبو حنيفة يجهر بالكلام ضد حكومة المنصور جهاراً شديداً

(١) انظر : الزمخشري ، الكشاف ، ج ١ ص ٦٤

(٢) انظر : ابن حجر ، الصواعق المحرقة ، ص ١٠٨

(٣) انظر : الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ص ٧٩

(٤) انظر : أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبين ، ص ٢٤٧

(٥) انظر : الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ١٣ ص ٣٩٨

ويدعو الى تأييد ثورة العلويين ، فقال له صاحبه زفر بن الهذيل :
« والله ما أنت بمنته حتى توضع الجبال في اعناقنا » . وكان أبو حنيفة
يعتقد بأن محمداً الحسني أولى بالخلافة من المنصور (١) .

* * *

واذا جئنا الى الشافعي وجدناه أشد من سلفه أبي حنيفة تشيعاً
للعلويين وحباً لهم . وأتهم الشافعي بأنه رافضي لشدة تشيعه وقد قال
في ذلك شعراً :

قالوا ترفضت قلت كلا
ما الرفض ديني ولا اعتقادي

ولكن توليت غير شك
خير إمام وخير هادي

إن كان حب الولي رفضاً
فاتي أرفض العباد

ورويت للشافعي اشعار كثيرة بهذا المعنى لا مجال هنا
لذكرها (٢) .

أما مالك بن أنس ، إمام المدينة المعروف ، فكان من تلاميذ
الامام العلوي جعفر الصادق (٣) . وقد ساعد محمداً الحسني في

(١) انظر : أحمد أمين ، فتنى الاسلام ، ج ٢ ص ١٨٤

(٢) انظر : ابن حجر ، المصدر السابق ، ص ٧٩ و ٨٨ و ١٠٨

(٣) انظر : سعد محمد حسن ، المهدية في الاسلام ، ص ٨٨

ثورته على المنصور إذ أفتى بصحة بيعته فعاقبه المنصور على ذلك ضرباً بالسياط (١).

وحين تأتي الى الامام الرابع ، احمد بن حنبل ، نجده لا يقل عن أسلافه في التشيع لعل في الاشادة بفضله . ومن يقرأ مسند احمد بن حنبل يجد فيه من فضائل علي عدداً يفوق ما جاء في غيره من الصحابة . وهو القائل : « ما جاء لأحد من الصحابة من الفضائل ما جاء لعل » (٢).

كان العباسيون على أي حال لا يستحيون ما وجدوا في رجال الدين من ميل للعلويين وتأييد لثورتهم . إن العباسيين كانوا من الشيعة . لا مرء في ذلك . هذا ولسكن تشيعهم كان ينحو منحى خاصاً بهم . فهم يريدون التشيع لأهل البيت ، ويقصدون بأهل البيت : العباس وأولاده . فالعباس في نظرهم أولى من علي وفاطمة بورثة النبي — كما اشرنا الى ذلك من قبل .

كتب محمد بن عبدالله الحسيني الى المنصور يقول له : « ان الحق حقنا ، وانكم إنما طلبتموه منا ونهضتم فيه بشيعتنا ... وان أبانا علياً كان الوصي والامام فكيف ورثتموه دوننا ونحن احياء ، وقد

(١) انظر : جرجي زيدان ، المذهب الاسلامي ، ج ٤ ص ١١٩

(٢) انظر : ابن حجر ، المصدر السابق ، ص ٧٢

علمت ان ليس أحد من بني هاشم يمت بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل
قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا ... » ^(١) فأجابه المنصور بكتاب طويل
يرد عليه . ومما قال له : ان أمر جدك علي بن أبي طالب أفضى
الى أبيك الحسن ، فباع الحسن الأمر الى معاوية بخرق ودرهم ،
واسلم شيعته في يديه « فان كان لكم فيها شيء فقد بعتموه » ^(٢) .
ثم قال المنصور : « فقتلكم بنو أمية وحرقوكم بالنار وصلبوكم على
جنوع النخل . حتى خرجنا عليهم فأدركنا بشاركم إذ لم تدر كوه
ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم ... » ^(٣)

ويأتي المنصور بعد ذلك على ذكر جده العباس فيقول : « ولقد
علمت ان توفي رسول الله وليس من عمومته أحد إلا العباس فكان
وارثه دون بني عبد المطلب . وطلب الخلافة غير واحد من بني هاشم
فلم ينلها إلا ولده فاجتمع للعباس انه أبو رسول الله خاتم الأنبياء ،
وبنوه القادة الخلفاء ، فقد ذهب بفضل القديم والحديث ... » ^(٤)

وخطب المنصور اثناء ذلك في اهل خراسان خطبة شديدة خرج
بها عن اتزانها حيث اخذ يعدد مثالب العلويين واحداً واحداً :
فعلي بن أبي طالب ، على قوله ، افرقت عنه الأمة واختلفت عليه
الكلمة ورضى بالتحكيم في أمره . أما الحسن فقد عرض عليه معاوية
الأموال فقبلها ، وخدعه معاوية فانخدع ، واقبل بعد ذلك على النساء

(١) انظر : أحمد أمين ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٨٦

(٢) انظر : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٨٨

(٣) انظر : نفس الصفحة والمصدر .

يتزوج في كل يوم واحدة ويطلقها غداً . والحسين خدعه اهل الكوفة فخذلوه واسلموه حتى قتل . وزيد بن علي خدعه اهل الكوفة ايضاً وغرّوه فلما اخرجوه واظهروه اسلموه ... (١)

وبعد ذكر هذه المعائب أخذ المنصور يمدح الخرسانيين وذكر كيف ان الله ارسلهم الى بني العباس فأحيى بهم شرفهم ودفع بحقهم اهل الباطل واظهر بهم حقهم واصار اليهم ميثاق النبي . ثم قال يذم العلويين : « فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها ، وحكمه العادل لنا ، وثبوا علينا ظلماً وحسداً منهم لنا ، وبغياً لما فضلنا الله به عليهم ، واكرمنا به من خلافته وميراث نبيّه ... » (٢)

إن هذا الجدل الذي ثار بين المنصور ومحمد الحسني كان ايذاناً ببدأ الانشقاق بين أسرتي هاشم : آل علي وآل العباس . وقد اعقب نزاع الكلام نزاع بالسيف ، وتوترت العلاقات بينهما وتوترأ كان يزداد على مرور الأيام ويتراكم .

ومن المؤسف أن نرى هذا النزاع العائلي يتخذ لوناً دينياً ويدخل في صميم العقيدة المذهبية .

ولا يستطيع الباحث أن يدرس منشأ النزاع بين الشيعة والسنة دون أن يعرج على هذا التنافس العائلي ويبحث في ملابساته الفكرية والاجتماعية .

وقد اشتد هذا العداء في أيام الرشيد . إذ كان هذا الرجل شديد السكره للعلويين ولأشياعهم معروفاً به قبل أن يتولى الخلافة^(١) . جاء أحد الشعراء إلى البرامكة يرجوهم أن يقربوه إلى الرشيد ليحظى منه بما حظى به غيره من الشعراء ، فقالوا له : اتبع في شعرك مذهب الهجاء لآل أبي طالب وذمهم . ففعل .. ونال ما تمنى^(٢) . ولعل المأمون كان يحاول أن يصلح بين الأسرتين فلم يوفق . أسند ولاية عهده لأحد من العلويين هو علي بن موسى . فثار عليه العباسيون . فاضطر بتأثير هذه الثورة أن يتخلص من علي بن موسى بكل صورة . ويقال أنه أوعز بسمه فمات علي بن موسى ، ومات بموته مشروع الصلح بين الأسرتين إلى الأبد .

والظاهر أن المأمون كان ، رغم ميله للبيت العلوي ، يعتقد بأن العباس أولى من علي بوراثه النبي . فقد ناقش علي بن موسى في هذه المسألة ومما قال له : إذا كنتم تدعون هذا الأمر بقرابة فاطمة من رسول الله فإن الحق بعد فاطمة للحسن والحسين ، وليس لعلي في هذا الأمر حق وها حيان . وإذا كان الأمر على ذلك فإن علياً قد ابتزها حقها وها حيان واستولى على ما لا يجب له ...^(٣)

وبلغ العداء بين العباسيين والعلويين أشده على عهد المتوكل وكان المتوكل شديد البغض لعلي بن أبي طالب . يحكى أن نديماً له ،

(١) انظر : جرجي زيدان ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٥١

(٢) انظر : محمد براق ، البرامكة في ظل الخلفاء ، ص ١٢٦ — ١٢٧

(٣) انظر : أحمد أمين ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٨٤

اسمه عبادة الخنث ، كان يشد على بطنه مخده ويكشف عن رأسه
الأصلع ثم يرقص ويقول : « قد أقبل الأصلع البطين — خليفة
المسلمين » يقصد بذلك علياً . وكان المتوكل يشرب على هذا
المنظر ويضحك^(١) .

وأمر المتوكل بهدم قبر الحسين وهدم ما حوله من المنازل ،
ومنع الناس من زيارته . وأمر بسلّ لسان ابن السكيت ، اللغوي
المعروف ، حين سمعه يمدح الحسن والحسين^(٢) .

إننا قد لا نبعد عن الصواب إذا قلنا بأن الفقهاء وأهل الحديث
قد ساء لهم هذا العداء الناشب بين أسرتي أهل البيت . وهم كانوا في
أعماق قلوبهم يميلون نحو العلويين ، ولم تفد فيهم الجهود التي كلّف
ببذلها بنو العباس للتقرب منهم .

كلّ رجال الدين ، بوجه عام ، يفضلون العلويين على
العباسيين^(٣) . ولم يكن تفضيلهم هذا بدافع من التعصب القبلي
أو الطائفي . إنما كانوا يرون العباسيين لا يختلفون عن أسلافهم
الأمويين إلا بالمظاهر واقامة الشعائر . أما العلويون فكانوا ثواراً .
والتأثر اقرب الى روح الاسلام من الخاضع .

قال عبد الرحمن بن زياد : كنت اطلب العلم مع أبي جعفر

(١) انظر : محمد حسين الزين ، الشيعة في التاريخ ، ١٩٣ ،

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ١٦٣ — ١٦٤

(٣) انظر : أحمد أمين ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٨٤

النصور قبل الخلافة ، فلما تولى وفدت اليه فقال : « كيف سلطاني من سلطان بني أمية ؟ » فقلت : « ما رأيت في سلطانهم من الجور شيئاً إلا رأيته في سلطانك » (١) .

وجاء الى النصور عمرو بن عبيد فقال له : « انه ما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه » . فقال النصور : « فما اصنع .. قد قلت لك : خاتمي في يدك ، فتعال واصحابك فاكفني » . عند هذا اجابه عمرو : « ادعني بعد ذلك تسخُ أنفسنا بعونك . ببابك ألف مظلمة . اردد منها شيئاً نعلم انك صادق » (٢) .

وجاء فقيه آخر الى النصور يقول له : « ان الله استرعاك المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الحصى والآجر وابواباً من الحديد ، وحجبة معهم السلاح ، ثم سجنك نفسك فيها عنهم ، وبعثت عمالك في جباية الأموال وجمعها ، وقويتهم بالرجال والسلاح والسكران ، وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان ، نفر ستميتهم . ولم تأمر بإيصال المظلوم ، ولا الملهوف ، ولا الجائع العاري ، ولا الضعيف الفقير . ولا أحد إلا وله في هذا المال حق ... وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل . فان جاءك متظلم حيل بينه وبين دخول مدينتك . فان اراد رفع قصته اليك وجدك قد نهيت عن ذلك ، واوقفت للناس

(١) انظر : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٩

(٢) انظر : نفس المصدر والصفحة .

رجلاً ينظر في مظالمهم . فان جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك خبره .
سألوا اصحاب المظالم ألا يرفع مظلمته اليك . فان المتظلم منه له بهم
حرمة ، فأجابهم خوفاً منهم — فلا يزال المظلوم يختلف اليه ويلوذ به ،
ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ويعتل عليه . فاذا أجهد وأخرج
وظهرت صرخ بين يديك ، فضرب ضرباً مبرحاً ، ليكون نكالا
لغيره ، وأنت تنظر فلا تنكر . فما بقاء الاسلام بعد هذا ! » (١)

يستبان من هذا أن رجال الدين الأولين لم تنطل عليهم حيلة
الطقوس والمظاهر . فكانوا يريدون عدلاً لاجباً ، ولا يبالون فيما
سوى ذلك من قشور زائفة .



استطاع الرشيد ، في فلتة من فلتات القدر ، أن يجذب اليه
أبا يوسف صاحب أبي حنيفة . فعينه قاضياً لبغداد . وقاضي بغداد
في ذلك العهد كان بمثابة ما ندعوه اليوم بوزير العدلية
وتقع على عاتق أبي يوسف هذا مسؤولية انجراح الدين
بالسياسة . فقد كان الرجل من كبار العلماء وكان وافر الذكاء نزيه
القصد . ونحن لا نشك في أن قبوله الوظيفة كان عن حسن نية .
وهو في الواقع قد نفع القضاء بانتمائه اليه . هذا ولسكنه افتتح بتعاون
مع الرشيد عهداً جديداً في تاريخ الاسلام لم يسبق اليه سابق .
كانت وظيفة القضاء مكروهة في نظر الفقهاء ، إذ كانوا يعدونها

(١) انظر : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٠

تأييداً للظلم . وكانت العامة تحقرها أيضاً . فلما تولى أبو يوسف
وظيفة قاضي القضاة تغيرت نظرة العامة نحو هذه الوظيفة وصارت
لديهم مطمح الأنظار .

إن هذا حادث له أهميته الاجتماعية . إذ خسر به الدين وربحت
الدولة . وابتدأ عهد من التعاون بينهما لا يزال المسلمون يعانون من
جرائه ما يعانون .

إن كثيراً من المحدثين كانوا لا يقبلون رواية من تقرب إلى
السلطان . فهم يرون الموظف يُغضب الله إذا أَرْضَى السلطان ويرضي
الله إذا أغضبه . ولهذا السبب عابوا أبا يوسف من أجل توليه
القضاء (١) .

والمعروف عن أبي حنيفة ، أستاذ أبي يوسف ، أنه أريد على
القضاء مرتين فامتنع . إحداهما في عهد ابن هبيرة فأبى فضرب
من جراء ذلك بالسوط . وأراده المنصور بعد ذلك فأبى فحبسه
المنصور . وفي بعض الروايات أنه مات في الحبس (٢) .

وفي رواية أن أبا حنيفة قال للمنصور : « لو هددتني أن تعرفني
في الفرات أو أن ألي الحكم لأخترت أن أغرق . فلك حاشية
يحتاجون إلى من يكرمهم لك ، فلا أصلح لك » (٣) .

(١) انظر : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٨٤ - ١٨٥

(٢) انظر : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٨٣

(٣) انظر : الخطيب البغدادي ، المصدر السابق ، ج ١٣ ص ٣٢٨

حدث بعد أبي يوسف حادث آخر كان له شأنه في تقريب الدين من الدولة — هو الحادث الذي سماه المؤرخون « الحنة » . وحادث « الحنة » كان في الواقع من أهم الحوادث الاجتماعية التي طبعت الفكر الاسلامي بطابعه الحاضر .

ومن المؤسف أن نرى المؤرخين لا يهتمون بهذا الحادث إلا من حيث مساهمته بأمور السياسة . وهذا هو ديدنهم في كل حادث من حوادث التاريخ : ينظرون فيه من ناحيته السياسية ويهملون ناحيته الاجتماعية والفكرية . وبهذا أصبح تاريخ الاسلام عبارة عن تاريخ ملوك وقواد . وانفت عنه تلك الروح المبدئية التي جاء من أجلها الاسلام .

كانت « الحنة » بمثابة امتحان امتحن به المأمون ، والمعتصم والواثق من بعده ، الفقهاء في مسألة خلق القرآن . ومسألة خلق القرآن لا أهمية لها في ذاتها . إنما صارت ذات أهمية كبيرة في عهد هؤلاء الخلفاء الثلاثة ، حيث كانت محور السؤال والجواب وأمسيت بمثابة شعار يستدل به على عقيدة المعتن .

كان المأمون متفلسفاً شديد الولع بمذهب المعتزلة . والمعتزلة قوم يريدون أن يقيموا العقيدة الدينية على أساس العقل والتفكير المنطقي . وقد استخدموا المأمون في نشر مذهبهم هذا بين الناس ، وبذلوا في ذلك جهوداً طائلة . ومالوا الى اضطهاد من كان يخالفهم في الرأي . وقف الفقهاء والمحدثون إزاء هذه المحاولة موقفاً صارماً وتحملوا الاضطهاد بشجاعة تثير الإعجاب .

كان الفقهاء يرون في هذه المحاولة خطراً على العقيدة الدينية وكان شعارهم في ذلك : « من تمنطق فقد تزندق » .

إن التفكير المنطقي في نظرهم يؤدي الى الشك والشك بدوره يؤدي الى ضعف العقيدة الدينية . كان من رأيهم أن يتعد العامة عن مزالق الشك والتمنطق وأن ينشأ عقائدهم على أساس التسليم والتقليد — لكي يكون إيمانهم بها قوياً جازماً .

وهذا في الحقيقة رأي له قيمته . فالدين أساسه اليقين الذي لا شك فيه . والعامة من الناس لا يستطيعون أن يجمعوا في أنفسهم الإيمان والتمنطق معاً .

إن مذهب الاعتزال يلائم فئة صغيرة من الناس هي تلك الفئة التي يصح وصفها بـ « أرستقراطية الفكر » . أما سواد الناس فهم لا يستطيعون هضم هذا المذهب العالي .

* * *

صمد الفقهاء صموداً قوياً تجاه هجمات المعتزلة عليهم وظلوا يتحملون امتحانهم القاسي ويردون عليه . وقد أيد العامة الفقهاء في هذا ومجدوهم عليه .

اعتقد المعتزلة بأن ترك الدين ، من غير تمنطق وتعقل ، يؤدي في النهاية الى حشوه بالخرافات والأباطيل والمبالغات . ولهذا كانوا شديدي الوطأة على الفقهاء والمحدثين وأخذوا يجادلونهم جدلاً عنيفاً ويضطهدونهم بمساعدة الدولة ^(١) .

(١) انظر تفاصيل ذلك في كتاب ضحى الاسلام للدكتور أحمد أمين ،

وقف التاريخ الاسلامي إزاء هذا الجدل العنيف ينتظر شيئاً هاماً .
فالفعل لابد أن يؤدي الى رد فعل مثله أو أشد منه وطأة .

* * *

مات الواثق ، وكانوا يطلقون عليه « المأمون الأصغر » ، إذ
كان حر التنكير معتزلياً . فتولى الخلافة من بعده : المتوكل على الله .
وفي عهد المتوكل هذا بدأ رد الفعل ضد المعتزلة يتخذ شكلاً
عنيفاً جداً . ونستطيع أن نعتبر هذا العهد نقطة تحول كبرى في
تاريخ الفكر الاسلامي .

ففي هذا العهد ظهر للوجود ، لأول مرة في التاريخ ، مصطلح
« أهل السنة والجماعة » ، حيث عُدَّ مذهب الاعتزال مذهب
البدعة والفرقة .

صار « الحديث » يسمى « سنة » ، وصار معنى « السنة »
مضاداً لمعنى « البدعة » . وأمست « البدعة » دعوة خطيرة حيث
انتشر في الناس آنذاك الحديث القائل : « كل بدعة ضلالة وكل
ضلالة في النار » . وبهذا أصبح كل من يدعو الى التجديد في الدين
يسمى مبتدعاً . وسد منذ ذلك الحين باب الاجتهاد ، وظل مسدوداً
الى يومنا هذا .

يزعم بعض الباحثين ان المتوكل كان أكثر تحويلاً في الاسلام
من هولاكو . فهولاكو ، في رأيهم ، خرب تراث الاسلام
المادي ، أما المتوكل فقد خرب تراث الاسلام الفكري . وهذا

رأي لا يخلو من مبالغة ، لكنه مع ذلك لا يخلو من صواب .
أخذ المتوكل يضطهد المعتزلة اضطهاداً مريباً ، وصار يتبعهم فرداً
فرداً وبقصيمهم عن مناصبهم التي كانوا فيها على عهد أسلافه الثلاثة .
ومن جملة ما فعل في هذا السبيل أنه أمر عامله بمصر أن يخلق لحية
قاضي القضاة هنالك ، إذ كان معتزلياً شديداً ، وأن يضربه
ويطوف به على حمار في الأسواق ^(١) .

واستقدم المتوكل المحدثين والفقهاء واجزل عطاءهم وأمرهم بأن
يحدثوا الناس بالأحاديث الماثورة . يقول المسعودي : « لما أفضت
الخلافة للمتوكل أمر بترك النظر والمباحثة في الجدل والترك لما كان
الناس عليه في أيام المعتصم والوائق ، وأمر الناس بالتسليم والتقليد .
وأمر الشيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة » ^(٢) .
وجاء الشعراء مبتهجين بهذا النصر الذي انتصرت به السنة على
البدعة ، والجماعة على الفرقة . وأخذوا ينظمون القصائد الرنانة
في ذلك . قال ابن الجبارة في مدح المتوكل :

وبعد فإن السنة اليوم أصبحت
معززة حتى كأن لم تذلل

وولّى أخو الابداع في الدين هارباً
إلى النار يهوي مدبراً غير مقبل

(١) انظر : أحمد أمين ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٩٨

(٢) انظر : المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٢٨٨

شفي الله منهم بالخليفة جعفر
خليفته ذي السنة المتوكل^(١)

لا مراء ان المتوكل كان من أظلم الخلفاء ومن أكثرهم عريضة
ودناءة وسفكاً . وقد سماه بعض المستشرقين « نيرون الشرق » .
ولكن فعله ذاك في إحياء « السنة » وامانة « البدعة » جعل
الفقهاء يمجّدونه ويغتفرون له سوء فعالة ، ورأى كثير من المحدثين
روى في المنام تذكر بأن الله غفر له ذنوبه^(٢) .

* * *

كان خلفاء بني العباس ، قبل المتوكل ، يبذلون جهوداً طائلة
في سبيل جذب الفقهاء وأئمة الدين اليهم فلم يفلحوا — كما رأينا .
جاء المتوكل فاستطاع بضربة واحدة أن ينجز ما لم يقدر الدهاة قبله
على انجازه .

لقد افتتح المتوكل عهداً جديداً في تاريخ الاسلام حيث صار
الدين والدولة نظاماً واحداً . وأخذ الدين يؤيد الدولة بقوله ، بينما
أخذت الدولة تؤيده بسيفها . ورفع الناس أيديهم بالدعاء هاتفين :
« اللهم انصر الدين والدولة » .

نزل الدين بذلك — ولم ترتفع الدولة .

* * *

(١) انظر : أحمد أمين ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٩٨

(٢) انظر : المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٩٩

وحدث بعد « المحنة » حادث اجتماعي آخر كان له أهمية لا يستهان بها في تطوير الفكر الاسلامي وفي إيغاله في الاتجاه الذي سار عليه منذ عهد الرشيد والتوكل . وهذا الحادث لم يلتفت اليه المؤرخون ولم يدرسوا أثره الفكري والاجتماعي إلا في حدود ضيقة جداً .

فقد دخل خلفاء الأندلس في مذهب « أهل السنة والجماعة » وأخذوا يتنافسون في تشجيع الفقهاء والمؤلفين تنافساً شديداً . والظاهر ان الأمويين في الأندلس أحسوا بخطأ اسلافهم الشاميين في الابتعاد عن الفقهاء والمحدثين فراحوا يتلافون هذا الخطأ ويبذلون في سبيل ذلك جهوداً طائلة .

إنهم أخذوا يقرّبون اليهم المؤلفين والمحدثين ويشتررون كتبهم بأعلى الأثمان ، ويستدعون بعض من اشتهر منهم في المشرق الى الأندلس . وصار العلماء الذين يضيق بهم المشرق من الفاقة يرحلون الى الأندلس ليجنوا فيه الغنى والتوفير والمكثاة^(١) .

ومما تجدر الإشارة اليه ان الأندلسيين لم يسيروا في البحث الديني على طريقة الاجتهاد التي سار عليها أئمة المشرق من أمثال أبي حنيفة وجعفر بن محمد والشافعي . إنهم ساروا بالأحرى على طريقة التسليم والتقليد التي اتصف بها فقهاء المشرق منذ عهد التوكل ، واوغلوا فيها إغلالاً شديداً .

(١) انظر : أحمد أمين ، فقه الاسلام ، ج ٣ ص ٢١ — ٢٤

يروى البرفسور نيكلسون عن المقدسي : « ان الأندلسيين ...
لم يعترفوا إلا بالقرآن وبموطأ مالك ، فاذا وجدوا أحداً من أتباع
أبي حنيفة أو الشافعي طردوه من بلادهم . وإذا لقوا معتزلياً أو
شيعياً قتلوه » (١) .

وانخذ البحث الديني في الأندلس وجهة أخرى — هي تمجيد
الأسرة الأموية وذكر فضائل السلف الأول منها . وهذه نتيجة
طبيعية للظروف السياسية التي كانت سائدة هناك ، حيث كان
الخلفاء ينتسبون للبيت الأموي ويتمصنون له .
إن ذم الأمويين صار سنة عند الفقهاء الأولين في المشرق —
كما رأينا . أما لدى فقهاء الأندلس فقد انقلبت القيم ، إذ ارتفع
ذكر الأمويين عندهم وهبطت قيمة العلويين .
ولودرنا مؤلفات ابن حزم وأبي بكر بن العربي ، اللذين يعدان
أعظم فقهاء الأندلس في ذلك العهد ، لوجدناهما يميلان ميلاً ظاهراً
نحو الأمويين وينفران من علي وأولاده .

فابن حزم ، مثلاً ، يعد حديث « الغدير » الذي جاء في فضل
علي غير صحيح ومن مخترعات الرافضة (٢) ، بينما كان أئمة المشرق
يعتبرون هذا الحديث صحيحاً لا مرية فيه ، ويقول الامام أحمد

(١) انظر : Nicholson, A Literary History ... , p. 408 — 409

(٢) انظر : ابن حزم ، الفصل في الملل والنحل ، ج ٤ : ص ١٤٨

بن حنبل ان ثلاثين صحابياً شهدوا به لعلي أيام خلافته ^(١) .
 وكان من الأقوال الشائعة في الأندلس آنذاك : « ان قلم
 ابن حزم كسيف الحجاج ، كلاهما ماضٍ حاد » ^(٢) . والظاهر
 ان ابن حزم كان يدافع عن الأمويين بقلمه كما دافع الحجاج عنهم
 بسيفه . ولا عجب في ذلك فهو قد كان معروفاً بميله السياسي الى
 الأمويين ، ويقال ان جده كان مولى ليزيد بن أبي سفيان ^(٣) .

* * *

أما أبو بكر بن العربي ، إمام الأندلس الثاني ، فكان أكثر
 من ابن حزم حباً للأمويين وجنفاً عن العلويين . فبينما نجد
 أبا حنيفة يسمي الخليفة الأموي باللص المتغلب ، نجد ابن العربي
 يمدح خلفاء الشام وينزههم ، ويدافع عن يزيد بن معاوية
 دفاعاً حاراً .

يعتقد ابن العربي ان يزيد كان من الزهاد والأخيار الذين
 يُقتدى بقولهم ويُرعوى من وعظهم ، ويقول : « فأين هذا من
 ذكر المؤرخين له في الحمر وأنواع الفجور ، ألا يستحيون ؟ وإذا
 سلمهم الله المروءة والحياء ، ألا ترعوون أنتم وتزدجرون ؟ » .
 ويتهم ابن العربي الذين يذمون يزيد بالاحاد والمجون ^(٤) .

(١) انظر : ابن حجر ، المصدر السابق ، ص ٢٥

(٢) انظر : أحمد أمين ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٥٨

(٣) انظر : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٥٥

(٤) انظر : ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ص ٢٣٣

ويرى ابن العربي : ان بدعة المأمون في مسألة خلق القرآن
أبشع من برودات اصحاب التواريخ من أن فلاناً الخليفة شرب الخمر
أو غنى أو فسق أو زنى (١) .

* * *

يخيل لي ان هذا الاتجاه الجديد الذي اتصف به فقهاء الأندلس
في حب الأمويين ، أخذ يدخل شيئاً فشيئاً في أوساط المشرق
العلمية . فان التلاقي الفكري الذي جرى بين المشرق والمغرب
لابد أن ينتهي الى هذه النتيجة عاجلاً أم آجلاً .

ولعل هذا كان من الأسباب التي جعلت ذكر معاوية يعلو
تدريجاً في قلوب أهل السنة والجماعة في المشرق ، إذ أصبح في نظرهم
من اصحاب رسول الله وكاتب وحيه وخال المؤمنين .

يقول البرفسور متر ان اهالي اصفهان كانوا يغالون في حب
معاوية في القرن الرابع الهجري . ويحكى المقدسي ان رجلاً من اهالي
اصفهان وُصف له بالزهد والتعبد فقصده ليسأله فرآه يقول : « إن
معاوية نبي مرسل » . فلما انكر المقدسي عليه ذلك أصبح يشنع
عليه ، فثار عليه اهالي اصفهان وكادوا يبطشون به لو لم يلحق بالقافلة
على عجل ويترك البلدة (٢) .

ويحكى المقدسي أيضاً : انه رأى في جامع واسط رجلاً يروي

(١) انظر : المصدر السابق ، ص ٢٥١

(٢) انظر : آدم متر ، الحضارة الاسلامية ... ، ج ١ ص ١٠١

حديثاً عن النبي هو : « ان الله يدني معاوية يوم القيامة فيجلسه الى جنبه ويغلفه بيده ثم يحلوه على الناس كالعروس » . فسأله المقدسي : « بماذا ؟ » . أجاب الرجل : « بمحاربه علياً » . فقال المقدسي : « كذبت يا ضال » . فهتف الرجل : « خذوا هذا الرافضي » . فأقبل الناس عليه ... فعرفه بعض السكتية ودفعهم عنه ^(١) .

إن مما يلفت النظر في هذا الصدد ان معظم الفرس كانوا في ذلك الحين من أهل السنة والجماعة ^(٢) ، والظاهر ان أصفهان كانت مركزاً لهم في ذلك . أما أهل العراق فكان يغلب عليهم التشيع العلوي ومركزهم السكوفة ^(٣) .

ومن مفارقات التاريخ أن يجتمع في بغداد في ذلك العهد أناس من هؤلاء وأناس من أولئك . وتصبح بغداد بذلك أكبر مباءة للفتنة بين أهل السنة والشيعة .

وأخذت الفتنة تزداد وتتراكم على مرور الأيام . ولا يكاد يمر عام على بغداد من غير حادث من حوادث الشعب والملاحاة بين تينك الطائفتين ^(٤) .

والظاهر ان هذه الملاحاة بين أهل السنة والشيعة اتخذت

(١) انظر : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٠٦

(٢) انظر : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٠٠

(٣) انظر : المصدر السابق ، ج ١ ص ٩٨

(٤) انظر : تفاصيل هذا في تاريخ ابن الأثير .

طريق التطرف من كلا الجانبين . وهذا أمر طبيعي . فاذا تنازع فريقان على فكرة أخذ كل فريق يتطرف من ناحيته ويغالي في معاكسة الفريق الآخر .

ولعلنا لا نبعد عن الصواب اذا قلنا بأن النزاع بين الشيعة وأهل السنة اتخذ شكل التعصب لآل النبي من جهة ولأصحاب النبي من الجهة الأخرى . فأهل السنة تعصبوا للأصحاب . بينما تعصب الشيعة للآل . وأخذ كل فريق يغالي في تمجيد من تعصب لهم .

التزم أهل السنة بالحديث النبوي القائل : « ... إن اصحابي بمنزلة النجوم في السماء ، فأما أخذتم به اهتديتم ، واختلاف اصحابي رحمة » ^(١) . والتزم الشيعة من الجانب الآخر بالحديث القائل : « إنما مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح ، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق » ^(٢) .

أولئك جعلوا مقياس الفضيلة في العصبية النبوية ، وهؤلاء جعلوه في النسب العلوي . وبهذا أصبح أحد المقياسين أفقياً والآخر شاقولياً . وأما رجل قرب من خط المقياس كان في نظر أصحابه فاضلاً — مهما كان مبدأه أو جهاده . اختفى مقياس المبدأ وظهر مكانه مقياس التقديس الأفقي والشاقولي .

أخذ أهل السنة يطلقون على الشيعة لقب « الروافض » باعتبار

(١) انظر : ابن العربي ، المصدر السابق ، ص ٣٣

(٢) انظر : محمد حبيب الزين ، المصدر السابق ، ص ٢٢

أنهم رفضوا الصحابة . هذا بينما أطلق الشيعة على أهل السنة لقب « النواصب » باعتبار أنهم نصبوا العداء لأهل البيت وحالفوا أعداءهم الأمويين . وبهذا تمادى الغلو من كلا الجانبين ، وأصبح داءاً اجتماعياً وبئلاً .

لم يكن الشيعة « روافض » في أول أمرهم ، وكذلك لم يكن أهل السنة « نواصب » . إنما هو التطرف ، أو ما سميناه بالتراكم الفكري ، الذي أدى بها الى هذه النتيجة المخزنة .

وإذا أراد الشيعة وأهل السنة في هذا العصر أن يتحدوا فليرجعوا الى شعارهم القديم الذي اتخذته زيد بن علي وأبو حنيفة ، أي شعار الثورة على الظلم في شتى صورته ... لا فرق في ذلك بين الظالم الشيعي أو الظالم السني .

إن هدف الدين هو العدل الاجتماعي . وما الرجال فيه إلا وسائل لذلك الهدف العظيم .

جاء البويهيون الى بغداد في القرن الرابع . فأضافوا بمحبتهم الى الطنبور نعمة جديدة .

كان البويهيون من الشيعة . أما خلفاء بني العباس فكانوا من أهل السنة . وبهذا اجتمع في بغداد طائفتان من السلاطين : خلفاء سنيون وأمراء شيعة . فأصبح البلاء بهذا الحكم المزدوج عظيماً .

وكان أشرف بغداد في ذلك الحين على نوعين : علويين
وعباسيين . فأخذ كل شريف يتعصب للطائفة التي ينتمي إليها . ولذا
كثرت الفتن في بغداد وسالت الدماء وانتهكت الحرمات .

كان أهل السنة يؤمنون بالخلافة ولهذا أيدوا العباسيين واعتبروهم
ظل الله في أرضه . أما الشيعة فقد آمنوا بالامامة وجعلوها في آل
علي لا تخرج عنهم ، واعتبروا الخلافة العباسية مغضوبة وباطلة .
وصار أشرف العلويين والعباسيين يستغلون تعصب الجمهور البغدادي
لهم فيهيجونه في سبيل أغراضهم الشخصية ^(١) .

سُكِر ذات يوم من عام ٣٥٠ هـ عباسي وعلوي فتنازعا على
الشرب وقُتل العلوي . فثارت العامة وعظمت الفتنة ، وتحيّز الشرفاء
— كل فريق نحو الجانب الذي ينتمي إليه . فاضطر مدير الشرطة أن
يعاقب المهيجين من كلا الجانبين ، وأمر بأن يقرن العلوي بالعباسي
ويغرقا في دجلة نهراً ... فبدأت الفتنة ^(٢) .

يتضح من هذا ان القضية خرجت عن كونها نزاعاً حول مبادئ
عامة وصارت نزاعاً على الرئاسة .

ظهر في أواخر القرن الرابع رجل من الشرفاء يدعي المهدوية
فتطلعت إليه نفوس العامة وصار دعائه يأخذون له البيعة من الناس .
ومن المفارقات المضحكة ان دعائه كانوا يقولون لأهل السنة

(١) انظر : آدم ميز ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٧

(٢) انظر : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٦ — ٢٥٧

انه عباسي ، ويقولون للشيعة انه علوي . وجاء اليه أحد رؤساء الشيعة يريد نصره فلما تبين له انه عباسي لا علوي تغيرت نيته عليه وتركه ^(١) .

اتخذ النزاع الطائفي بين الشيعة والسنة شكلاً صارخاً أثناء التنافس بين العثمانيين والصفويين على العراق .

ومن مفارقات التاريخ أن يكون العراق منبع هذا النزاع في أول أمره ثم يكون في آخر الأمر موضع تشاد وتنافس بين دولة سنية وأخرى شيعية . وبهذا وقع المجتمع العراقي بين حجري الرضى .

قام الصفويون بدور كبير في تاريخ التشيع . وقد يصح أن نقول بأن الصفويين خدروا مذهب التشيع وروّضوه . فأزالوا عنه النزعة الثورية التي كانت لاصقة به في العهود السابقة ، وجعلوه مذهباً رسمياً لا يختلف عن غيره من المذاهب الدينية الأخرى .

وبهذا دخل التشيع في طاحونة السلاطين فاختفت منه تلك الروح الوثابة التي بعث فيها علي وأولاده على توالي الأجيال . كان علي بن أبي طالب أنشودة الثورة في تاريخ الاسلام كله ، فأمسى على يد الصفويين العوبة تمثل في المسارح .

كان الفرس قبل ظهور الصفويين من أهل السنة والجماعة في الغالب . فالحركة العباسية نشأت بين الفرس وتوسعت تحت رعايتهم . وكان معظم فقهاء السنة وأئمة الحديث من الفرس في ذلك العهد . ولوقرأنا تراجم المحدثين والفقهاء الأولين لوجدنا فيها أسماء النيسابوري والبخاري والترمذي والرازي والطبري والغزالي والخراساني والشهرستاني والكيلازي والاسترابادي والخوارزمي والجرجاني والآمدي والأصفهاني والتستري ... وغيرهم من المنتسبين للبلدان الإيرانية المختلفة .

ظل الفرس يحملون راية التسنن في الاسلام حتى ظهر الصفويون . وقد اتخذ الصفويون شتى الوسائل لا كراه الفرس على دخول مذهب التشيع . ولجأوا الى الاضطهاد والقتل والتعذيب في هذا السبيل . وكان شعارهم في ذلك : « يا علي ! » .

ويشبه هذا الاضطهاد المذهبي الذي قام به الصفويون في ايران ما قام به الايوبيون قبل ذلك في مصر من اضطهاد للتشيع إثر قضائهم على دولة الفاطميين هنالك .

صار التشيع منذ عهد الصفويين مذهباً قومياً في ايران ، واصطبح من جراء ذلك بصبغة الغرور القومي وأمسى عقيدة سلطانية خادمة — لا تختلف عن أية عقيدة أخرى من عقائد السلاطين .

وأخذ الصفويون يستخدمون في دعايتهم المذهبية هذه دعاة من طراز الدراويش ، وأرسلوهم في شتى الأنحاء يمدحون علياً بقصائد

رثانة ويتغنون باسمه ويرفعون بذكره الى عنان السماء .
انتشر هؤلاء الدراويش المدّاحون في كل ناحية وهم يعلّقون
على أيديهم السكشكول الخاص بهم ويسيرون في الطرقات بخطى
بطيئة هاتفين : يا علي !

وعلى هذا المنوال صار اسم علي سلاحاً بيد السلاطين يستخدمونه
في أغراضهم السياسية — كما استخدموا اسم محمد واسم الله من قبل .
كان سلاطين الصفويين لا يختلفون اختلافاً أساسياً عن سلاطين
العثمانيين — كلهم كانوا يعبدون الله وينهبون عباد الله . ولم يكن
الفرق بينهم إلا ظاهرياً . إذ كان جل همهم منصباً على تشييد المساجد
وعلى زخرفة جدرانها وتذهيب منائرهما ...

* * *

حدثت المفارقة الكبرى على ضفتي دجلة شمالي بغداد ، حيث
كان الامام الأعظم مدفوناً على الضفة اليسرى ، والامام الكاظم
مدفوناً على الضفة اليمنى . وهناك ، عبر هذا النهر ، نجد أهالي الأعظمية
وأهالي الكاظمية يتبادلون الشتيمة والبغضاء .
نسى هؤلاء المغفلون أن إمامهم كانا من حزب واحد — إذ
كانا من أعداء السلاطين .

عارض أبو حنيفة المنصور بنفس الشدة التي عارض بها موسى
الكاظم حفيده الرشيد . وقد مات كلاهما في سجن هذين
السلطانين الظالمين .

فرَّق السلاطين بينهما بعد الموت ، إذ لم يستطيعوا أن يفرِّقوا بينهما في الحياة — والله في خلقه شؤون .

زار ناصر الدين شاه ، ملك إيران الأسبق ، قبر الحسين في عام ١٨٧٠ . وأخذ يتبرك به ويتمسح ، ويبكي حوله ويتضرع . حدثني من أثق به أن سادناً من سدة المسجد الحسيني ألقى بين يدي الشاه آنذاك كلمة قال فيها يخاطب الحسين : « السلام عليك يا أبا عبد الله .. لقد كنت في يوم كربلاء تنادي : هل من ناصر . فلم يأت لنصرك أحد . أبشر اليوم فقد جاءك الناصر ! » وكان السادن يقصد بذلك ناصر الدين شاه طبعاً . فبكى الشاه بكاءً مراً حتى أغشى عليه .

إن بكاء الشاه هذا لا يختلف عن بكاء زميله هرون الرشيد . فكلاهما كان دينياً مترفاً سفاكاً — وكلاهما كان يبكي من خشية الله حتى يغشى عليه !

رحم الله من قال : « إن السياسة لا تدخل في شيء إلا أفسدته » . فهي قد دخلت مذهب التشيع فأفسدته كما أفسدت مختلف المذاهب والأديان .

وقد آن لبناء الجيل الجديد أن يتعضوا بعبير الماضي ، وأن يسلكوا من جديد مسلك قادتهم الأولين في ثورتهم على الظلم بشتى صوره .

قلنا آنفاً ان الصفويين خدروا . مذهب التشيع وروضه كما
يروض السبع الضاري . فأصبح التشيع بهذا الاعتبار كأنه « ثورة
خامدة » . ولعلنا لا نبعد عن الصواب اذا شبهنا التشيع في وضعه
الحاضر بالبركان الخامد — يخرج منه دخان ضئيل إشارة الى ما كان
عليه في العهود الغابرة من انفجار هدام .

ومما تجدر الإشارة اليه أن التشيع لا يزال يحمل في طياته بقايا
أثرية من طبيعته الثورية القديمة . وهذه البقايا صارت فيه كأنها
زوائد دودية إذ بطلت وظيفتها الأولى وصارت من جراء ذلك
ضارة غير نافعة . وكثيراً ما تكون مصدر خطر ، وقد تنذر
بالانفجار أحياناً .

ومن يدرس التشيع الحاضر دراسة موضوعية يجد فيه عادات
اجتماعية غامضة تستدعي الدهشة والتأمل .

وقد يعجب البعض من وجود هذه العادات الغامضة في التشيع
أو يستبشع ما فيها من خرافة أو غلو .

إننا على أي حال لا نستطيع أن نعلل هذه العادات الشيعية
إلا بكونها زوائد أثرية بقيت من العهود الغابرة حين كان التشيع
موئل الثورة في العالم الاسلامي .

وهذه الزوائد الأثرية نستطيع أن نلخصها فيما يلي :

(١) الزائدة الأولى هي عقيدة الامامة . فالشيعة اليوم

ينظرون الى أئمتهم القدامى من أبناء علي نظرة تقديسية شديدة .

فهم يعدّون اولئك الائمة معصومين من الخطأ ، ويصعدون بهم الى مستوى فوق مستوى البشر ، ويلجأون الى قبورهم يتشفعون بهم في كل ملة تقع عليهم .

إن هذا الغلو في تقديس ائمة العلويين كان في الأصل مبدأ ثورياً ، ثم انتفت عنه صفة الثورة أخيراً واصبح عقيدة لا روح فيها . إن مبدأ العصمة له مغزى اجتماعي . فهو عبارة عن انتقاد غير مباشر لما كان عليه سلاطين الاسلام من تسفل وتفسخ .

فالشيعة الاولون حين كانوا يؤمنون بعصمة الامام من الذنوب إنما كانوا يعارضون بذلك ذنوب السلطان وينتقدونها ويضعون إزاءها مثلاً أعلى خالياً منها . وهذا يشبه ما فعل افلاطون والفارابي وغيرهم من الفلاسفة حين وضعوا خططهم الطوبائية لاصلاح المجتمع . ففي نظر افلاطون والفارابي ان اصلاح المجتمع لا يتم إلا اذا تولى أمره فيلسوف مخلص نزيه القصد سامي الخلق .

ينتقد الأستاذ موسى جبار الله نظرية الشيعة في العصمة ويقول : « إني اعتقد في الأمة عقيدة الشيعة في الائمة »^(١) . وهو يعني بذلك ان الامة الاسلامية معصومة من الخطأ ، فكل أمر يُجمع عليه المسلمون هو صحيح لا مرية فيه . والظاهر ان الشيعة لا يفهمون هذا القول ولا يستسيغونه . فهم قد ثاروا على ما اجتمعت عليه الامة

(١) انظر : موسى جبار الله ، الشيعة في نقد عقائد الشيعة ، ص ٨

ومزقوا شملها . ولعلمهم يعتبرون الأمة على ضلال ، إذ هي قد أطاعت السلاطين الغاصيين .

يقول البرفسور ادواردس : إن الثوار دائماً يعتقدون بأن فساد المجتمع ناشئ عن فساد حكمه . ولهذا فهم يظنون بأن الإصلاح الاجتماعي لا يتم إلا بتولي أناس صالحين مكانهم ^(١) .

يبدو أن نظرية ادواردس هذه تنطبق على ما كان قديماً الشيعة يؤمنون به من عصمة الامام . إذ كانوا يرون فساد الأوضاع الاجتماعية ناتجاً من تحكم الملوك الفاسدين فيها .

يروى الشيعة عن أحد أئمتهم أن الله قال : « لأعذب كل رعية في الاسلام دانت بولاية إمام جائر ليس من الله ، وإن كانت الرعية في أعمالها برة تقية . ولأعفون عن كل رعية في الاسلام دانت بولاية إمام عادل من الله ، وإن كانت الرعية في أنفسها ظالمة مسيئة » ^(٢) . وهذا القول يشير إلى أن التشيع كان كأي حزب ثوري آخر يضع اللوم في فساد النظام الاجتماعي على غائق الحكومة ويرفعه عن عائق الرعية . وهذا رأي لا يخلو من تطرف ومبالغة . ولكنه على أي حال رأي ينبعث من نزعة الثورة ويلائم طبيعتها .

(٢) والزائدة الثانية الموجودة في التشيع هي عقيدة « المهدي » . وهذه العقيدة هي الأساس الذي قام عليه كثير

(١) انظر :

Edwards , The Natural History of Revolution , p. 44 — 45

(٢) انظر : الكلي ، أصول الكافي ، ص ١٩٠

من الثورات في العهود الغابرة^(١) . فالمهدي في معناه الاجتماعي هو
الثائر . وكثير من زعماء الثورات أطلق عليهم لقب المهدي رغم
أنهم لم يدعوا المهديّة طيلة حياتهم .

عندما ثار زيد بن علي على الأمويين فقتلوه وصلبوه قال شاعرهم:

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة

ولم نر مهدياً على الجذع يصلب^(٢)

إن زيداً لم يدع المهديّة في يوم من الأيام ، ولكنه رغم ذلك
لُقب من قبل الأمويين بالمهدي . وفي هذا دلالة على أن المهديّة
والثورة كانتا لفظتين مترادفتين في نظر الناس آنذاك .

حار الباحثون حول منشأ هذه اللفظة ومن قال بها لأول مرة
في تاريخ الاسلام . ولست أرى داعياً لهذه الحيرة . فلفظة
« المهدي » هي في الواقع تعريب للفظّة « المسيح » الموجودة في
التوراة . فالمسيح معناه الممسوح : أي أنه ذلك البطل المنقذ الذي
يمسحه الاله . والمسح في التوراة يعني الهداية والارسال والتأييد
الرباني^(٣) .

يقول اشعيا : « ... الرب مسحني لأبشر المساكين ، أرسلني

(١) سبّحت في هذه العقيدة بإسهاب في كتابنا القادم « منشأ الحركات
الاجتماعية في الاسلام » .

(٢) انظر : ابن حجر ، المصدر السابق ، ص ١٢١

(٣) انظر :

لأنه صلب منكسري القلب ، لأنادي للمسيبين بالعق والعاثورين
بالاطلاق ، لأنادي بسنة مقبولة للرب ويوم انتقام لآسنا ،
لأنعزي كل الناثين ... » (١)

وتصف التوراة هذا المسوح الذي يرسله الرب ليشتر المساكين
فتقول : « ... ويحل عليه روح الرب ، روح الحكمة والفهم ، روح
المشورة والقوة ، روح المعرفة وخافة الرب . ولذته تكون في مخافة
الرب فلا يقضي بحسب نظر عينيه ولا يحكم بحسب سمع أذنيه . بل
يقضي للمساكين ويحكم بالانصاف لبائسي الارض ... فيسكن الذئب
مع الخروف ، وبربض النمر مع الجدي ... » (٢) .

ومن يقرأ سفر اشعياء في التوراة يجد تشابهاً غريباً بينه وبين
ما تؤمن الشيعة به في شأن الامام والمهدي . والظاهر أن آمال الطبقات
المضطهدة وأحلامها واحدة في كل مكان وزمان . فلمظالم الذي
لا يستطيع أن ينتقم من ظالمه فعلاً يلجأ الى الانتقام منه بأفكاره
وأحلامه ، وعند ذلك يشيد لنفسه قصوراً باذخة من الآمال .

يعتقد الدكتور أحمد أمين : ان عقيدة المهدي أدت الى تضليل
الناس وخضوعهم لللاهوام من ناحية والى تسبب الثورات المتتالية
بين المسلمين من الناحية الأخرى (٣) .

(١) انظر : الاصحاح الحادي والستين من سفر اشعياء في التوراة .

(٢) انظر : الاصحاح الحادي عشر من سفر اشعياء في التوراة .

(٣) انظر : أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج ٣ ص ٢٤٤

وهذا رأي لا يخلو من صواب . فكل فكرة اجتماعية تنتج نوعين من التأثير : حسن وسيء . وهذا يؤيد ما ذهب اليه الفيلسوف هيجل من أن كل فكرة تحمل نقيضها معها .

وقد ذهب علماء الاجتماع الذين بحثوا تاريخ الثورات الى أن الطبقات المضطهدة كثيرأما تلجأ الى اعتناق بعض الخرافات لتحارب بها الحكام الظالمين . ويطلق العلماء على هذه الخرافات اسم الأساطير الاجتماعية (Social myths) ^(١) .

وعلى هذا فنحن نستطيع أن نقول بأن التشيع الحاضر فقد الأثر الاجتماعي من عقيدة المهدي وبقي لديه منها أثر فكري لا يخلو من الخرافة .

(٣) والزائدة الثالثة هي سنة « التقية » . والتقية ظاهرة اجتماعية تلازم حركة الثورة في بدء أمرها . وكلت الشيعة القدماء يلجأون الى التقية ليأمنوا بها من مطاردة الدولة لهم .

يقول الأستاذ موسى جار الله : ان التقية هي نفاق في الدين . وهو يصف تقية الشيعة بأن روحها النفاق وثمرتها كفر اليهود ^(٢) . والظاهر ان الأستاذ جار الله لم يذق طعم الاضطهاد السياسي في حياته ، فهو يقول عن التقية انها نفاق ، ونسى أن عمار بن ياسر كان بهذا الاعتبار أول منافق في الاسلام ...

(١) انظر : Dawson & Gettys , Sociology , p. 703

(٢) انظر : موسى جار الله ، المصدر السابق ، ص ٨٢ — ٨٥

يقول مجاهد : ان التقية كانت جائزة في بدء الدعوة الاسلامية حين كانت فريش تضطهد المسلمين الأولين ، أما بعد قوة الدولة الاسلامية فهي غير جائزة ^(١) .

يبدو من هذا القول ان صاحبه كان من مؤيدي الدولة الاسلامية . ونظرة المؤيد تختلف عادة عن نظرة المعارض والناظر — كل ينظر من خلال إطاره الفكري الملائم لميوله السياسية . ومهما يكن الحال ، فقد فقدت التقية صفتها الثورية في هذا العصر . فالشيعة الآن لا يعرفون عن مفهوم الثورة شيئاً كثيراً . ولعلهم لا يختلفون عن غيرهم في اتجاههم السياسي . إنما بقيت التقية عندهم أثراً من آثار تراثهم الغابر .

(٤) والزائدة الرابعة في التشيع الحاضر هو ما يُطلق عليه اليوم « عزاء الحسين » . وعزاء الحسين كان في بدء أمره شعاراً للنقمة على الدولة ودعاية ضدها . وقد تطور هذا العزاء بمرور الزمن حتى صار مجموعة من الطقوس لا معنى لها .

كان الشيعة قديماً يجتمعون في السرايب ليدكروا فيها مأساة الحسين وما جرى عليه من الظلم الشنيع . وبهذا كانوا يستعرضون ضمناً مظالم الدولة في شتى مراحلها . وهم يشابهون في هذا ما يفعله ثوار العصر الحديث حيث هم يجتمعون في الخفاء ، أو يذهبون تحت الأرض (Underground) كما يقال عنهم في هذه الأيام .

(١) انظر : محسن الأمين ، نقض الوشيعة ، ٢٢١

أما الشيعة المعاصرون فهم قد نسوا المبدأ الذي ثار في سبيله الحسين واهتموا باللطم والبكاء ، كأن ذلك هو الهدف الأكبر الذي قُتل من أجله إمامهم الثائر .

* * *

يزور الشيعة قبر الحسين بمئات الألوف كل عام . ثم يرجعون من الزيارة كما ذهبوا — لم يفعلوا شيئاً غير النواح واللطم . إنهم اليوم ثوار خامدون ... فقد خدّروا السلاطين ، وحولوا السيوف التي كانوا يقاتلون بها الحكم قديماً إلى سلاسل يضربون بها ظهورهم وحراب يجرحون بها رؤوسهم . ومن يلدري فقد يأتي عليهم يوم تتحول فيه هذه السلاسل والحراب إلى سيوف صارمة من جديد . إنهم لا يحتاجون في ذلك إلا إلى فرد مشاغب من طراز اللعين ابن سبأ .

إن موسم الزيارة في كربلاء يمكن تشبيهه بموسم الحج لكثرة الوافدين إليه . هذا ولكن الزيارة الشيعية تختلف من بعض الوجوه عن الحج ، إذ هي تحمل في باطنها بذرة من الثورة الخامدة . ومن يشهد هرج الزوار في كربلاء يدرك أن وراء ذلك خطراً دفيناً .

حاول المتوكل أن يقضي على هذا الخطر في مهده . فهدم قبر الحسين ثم حرث أرضه وغمره بالمياه (١) . ولكنه لم يوفق في القضاء عليه قضاءً نهائياً . فالزوار أخذوا ينثالون على كربلاء سرّاً ،

(١) انظر : آدم منذر ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١١٧

ويبدلون في ذلك النفس والنفس . وبقى قبر الحسين رغم ذلك
يناطح الأيام والليالي — دون أن يخمد له أوار .

* * *

شبهنا التشيع في وضعه الراهن بالبركان الخامد . فهو قد كان
في يوم من الأيام بركاناً ثائراً ، ثم خمد على مرور الأيام وأصبح
لا يختلف عن غيره من الجبال الراسية إلا بفوهته والدخان
المتصاعد منها .

والبركان الخامد لا يخلو من خطر رغم هدوئه الظاهر . إنه
يمتاز على الجبل الأصم بكونه يحتوي في باطنه على نار متأججة .
ولا يدري أحد متى تنفجر هذه النار مرة أخرى .

إن التشيع الحاضر مملوء بالخرافات . وهنا ممكن الخطر .
والخرافات الشيعية هي من ذلك النوع الذي يطلق عليه علماء
الاجتماع : « الأساطير الاجتماعية » . فهي خرافات كان لها دور
فعّال في إثارة الفتن والثورات في العهود الغابرة .

إن التفكير المنطقي أمين لا خطر منه . فهو بارد لا يشير
الأشجان ولا يحرك القلوب .

إن الخطر كل الخطر من الخرافة التي يؤمن بها المجتمع ويبدل
جهده في سبيل تحقيقها . والمنطق الحديث يدرس العقيدة الدينية على
أساس ما فيها من حوافز اجتماعية ، لا على أساس ما فيها من
تماسك منطقي أو تفكير سليم . فالعقائد الدينية ، بوجه عام ، ظواهر

نفسية اجتماعية أكثر مما هي عقلية منطقية .

إن عقيدة الامامة التي آمن بها الشيعة جعلتهم لا يفترون عن انتقاد الحكام وعلى معارضتهم والشغب عليهم في كل مرحلة من مراحل تاريخهم . فهم يرون الحكومة غاصبة ظالمة مهما كان نوعها . وهم لا يرضون إلا اذا تولى أمرها إمام معصوم من آل علي .

إنهم وضعوا لنظام الحكم نموذجاً عالياً جداً ، هو أقرب الى الخيال منه الى الواقع . ولهذا كانوا في ثورة متصلة — لا يهدأون ولا يفترون . فهم يقيسون كل حاكم بما عندهم من مقاييس الامامة المعصومة فيرونه ناقصاً غاصباً . وعلى هذا استمروا ثائرين ، في السر أو العلن ، على توالي الأجيال

وقد أدت هذه العقيدة الى استفحال العداء بين الشيعة والفتئات الحاكمة في معظم الأحيان . وأتهم الشيعة بأنهم زنادقة وملحدون لهذا السبب . وأصبح « الترفض » يؤدي ضمناً معنى الرفض للدين والدولة معاً . ومر على المسلمين زمان كانوا يفضلون فيه أن يقال لأحدهم زنديق أو كافر ، ولا يقال له انه شيعي أو رافضي . ولا تزال آثار هذا الوضع باقية حتى يومنا هذا .

ومما زاد في الطين بلة أن فقهاء الشيعة لا يقبلون عطايا الحكومة في شتى صورها . فهم يعتمدون في معاشهم على مصادر شعبية بحتة . وقد يعجب القارئ اذا علم أن فقهاء ايران في الوقت الحاضر يعتمدون في رزقهم على مساعدات الشعب ، ولا يأخذون من الحكومة

شيثاً رغم كونها حكومة شيعة خالصة . والفقيه الشيعي الذي يكثر الترداد على دوائر الحكومة يسمي في نظر الناس محتقراً . وقد يقول الناس عنه بسبب ذلك ، ويعدون من « علماء الحفيظ »^(١) ، أو لعلمهم بتهمونه بتهمة التجسس .

إن النفرة من الحكومة صارت عند الشيعة بمثابة العقدة النفسية . فمن الصعب على فقهاء الشيعة أن يتقربوا من الحكومة مع الاحتفاظ بكرامتهم بين الناس . ومن أفضح التهم التي توجهت الى أحد فقهاء الشيعة أن يقال عنه : انه يستلم معاشاً من الحكومة . وهذه الظاهرة لها محاسنها ومساوئها — كأيّة ظاهرة أخرى من ظواهر المجتمع البشري . فلقد تحرر الفقيه الشيعي بها من عبودية الحكومة . ولكنه أمسى في نفس الوقت عبداً طيعاً لأهواء العامة وخرافاتهما .

يفتخر فقهاء الشيعة بأن باب الاجتهاد لا يزال مفتوحاً عندهم . وهم في الواقع لم يستفيدوا من هذا الباب كثيراً . فهم يعتمدون في أرزاقهم على العامة . والعامة ، بوجه عام ، لا تحب التجديد فيما ورثته عن الآباء من تقاليد وعقائد .

إن المجتهد الشيعي يخول نظرياً أن يجدد في كثير من الأمور الشرعية . ولكنه لا يقوم بذلك عملياً خشية أن تتور العامة عليه فتقطع رزقه . وكثيراً ما يبطن المجتهد الشيعي شيئاً ويظهر خلافه من جراء ذلك .

(١) هذا الاصطلاح الشيعي شاع أثناء الثورة العراقية عام ١٩٢٠ وبمدها . و « الحفيظ » تعريب لكلمة الدائرة في اللغة الانكليزية .

إن الشيعة هم ورثة المعتزلة في نزعة التفلسف وحرية التفكير^(١).
فالمعتزلة ذابوا في التشيع بعد مطاردة المتوكل لهم وصّبوا معظم
تراثهم الفكري فيه . ومن يقرأ كتب الشيعة في الأصول يجد
التفلسف المعتزلي ظاهراً فيها^(٢) .

ومن مشا كل الشيعة أن فقهاءهم يتفلسفون فيما بينهم ولا يظهرون
تفلسهم أمام العامة . فهم مجتهدون في الباطن مقلدون في الظاهر .
وقلما نجد مجتهداً شيعياً يعلن آراءه الحرة على الناس . ومن يجراً منهم
على ذلك بذله من العامة أذى كبير .

نحرد فقهاء الشيعة من عبودية الحكومة فوقعوا في عبودية
العامة . واصبحوا بذلك كمن يستجير من الرمضاء بالنار .
ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه العبودية الفكرية التي كبّلت
عقول المجتهدين تجاه العامة جعلتهم في الوقت ذاته يلتزمون جانب
العامة في ثوراتها على الحكام .



عضد فقهاء الشيعة مختلف الثورات التي حدثت في إيران
والعراق وسوريا في العبود الأخريرة .

والغريب أن نرى حركة الدستور التي قامت في إيران ،
في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحاضر ، كانت مدعومة
من قبل رجال الدين وقائمة على أساس فتاويهم الثورية .

(١) انظر : آدم مزر ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٠٢

(٢) انظر : أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج ٣ ص ٢٦٧ — ٢٦٨

ففي الوقت الذي نجد فيه رجال الدين في الدولة العثمانية يناهضون حركة الدستور ويفتون بكفرها أو تفرنجها ، نجد رجال الدين في إيران والعراق يرفعون راية تلك الحركة ويهيجون العامة في سبيلها .

ولو درسنا حركة التجديد التي قام بها الشيخ محمد عبده في مصر ، نجد أن الذي بذر بذرتها ورعاها فقيه شيعي — هو السيد جمال الدين الأفغاني .

والأفغاني سيد علوي من إيران . ولا يزال أقاربه يعيشون في قرية أسدآباد في إيران حتى يومنا هذا ^(١) . وقد تلقى الأفغاني علومه الدينية والفلسفية في النجف . وكان يزامله في دراسته هناك السيد محمد سعيد الحبوبى الشاعر المعروف ^(٢) .

وعندما ذهب السيد جمال الدين الى مصر أطلق على نفسه لقب الأفغاني من باب التقية . ولولا ذلك لما استطاع أن يحدث تلك الثورة الفكرية الكبرى في مصر .

وفي سنة ١٨٩٠ كانت حكومة فارس قد أعطت حق احتكار الدخان لشركة انكليزية . فاعتنمها السيد جمال الدين فرصة وكتب خطاباً للميرزا حسن الشيرازي كبير مجتهدى الشيعة في ذلك العهد يعيب فيه على الحكومة الفارسية هذا العمل الضار بثروة

(١) انظر : تدري قلمجي ، جمال الدين الافغاني ، ص ٢٣

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ٢٤

البلاد والذي سيمكّن المستعمرين من ترسيخ اقدامهم فيها . وكان من أثر هذا الخطاب أن المجتهد الشيرازي أصدر فتوى حرّم فيها على كل مؤمن تدخين التبناك . وكان من جراء هذه الفتوى أن فسخت الحكومة العقد مع الشركة ودفعت لها تعويضاً عظيماً ^(١) .

روى لي أحد الثقات عن رجل شهد بحجى السيد جمال الدين الى الميرزا الشيرازي في سامراء ، فقال انها اجتمعا عند ذلك اجتماعاً سريعاً ، وظلا يقتناحيان مدة طويلة . ولا يدري أحد ماذا قرر هذان المشاغبان في ذلك الاجتماع . يبدو أن البركان الحامد كان يتعامل بحواجز الخطر في تلك الساعة الرهيبة !

* * *

بعد احتلال الانكليز للعراق في الحرب العالمية الأولى ، رفع فقهاء الشيعة رأية الثورة عليهم . وكان يرأسهم في ذلك الميرزا محمد تقي الشيرازي الذي خلف الميرزا حسن الشيرازي على زعامة الاجتهاد الشيعي في ذلك الحين .

أصدر هذا المجتهد فتواه بوجوب الثورة على المستعمرين ، وفرض على المؤمنين انفاق زكاة أموالهم في تسليح الثوار وإطعامهم .

وقد لعب فقهاء النجف وكربلاء والسكاظية دوراً كبيراً في ثورة ١٩٢٠ . وظلوا بلدها يشيرون الشعب على الحكومة حتى انتهى الأمر الى تسفيرهم الى ايران — كما هو معروف .

(١) انظر : مصطفى عبد الرازق ، محمد عبده ، ص ٥٧

تقول المس بيل : ان رجال الدين كانوا من اكبر دعاة الثورة في العراق خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها ، وهذا مما دعا رجال الحكم الى انشاء المدارس الحديثة لكي يضعفوا بها الدين في نفوس الجيل الجديد ، ويقتلعوا بذلك جذور الثورة من أساسها ^(١) .

إن هذا القول الذي فاهت به المس بيل يدعو الى التأمل حقاً . ولا ندري هل استطاعت سلطات الاحتلال أن تحقق خطتها تلك في إضعاف الشعور الديني في العراق أم لا ؟ .

إن نزعة التدين في شباب العراق الحديث ضعيفة من غير مراء . وهذه ظاهرة اجتماعية لاحظها كثير من أبناء الأقطار المجاورة عند زيارتهم العراق . والظاهر أن المدارس الحديثة التي بدأ بتأسيسها المحتلون كانت من جملة الأسباب التي أدت الى هذه النتيجة .

فالمحتلون رأوا فقهاء الشيعة لا يفتأون بحرّضون العامة ضد الحكم القائم ، لا يهدأون في ذلك ولا يفترون . ولعل المحتلين أرادوا أن يثثوا في عقول الطلاب النزعة العلمانية لكي يكافحوا بها نفوذ أولئك الفقهاء ^(٢) .

(١) قرأت هذا القول في كتاب كنت قد استعمره من مكتبة مدينة

« أوستن » في امريكا . ويؤسفني اني لم احتفظ باسم المصدر ورغم الصفة لكي أرشد القارئ اليهما كما يجب .

(٢) حاولت سلطات الاحتلال أن تضعف بمدارسها الحديثة نفوذ فقهاء

الشيعة فأضعفت بذلك نفوذ جميع الفقهاء في العراق ، حيث اشتغل

الأخضر واليابس في آن واحد ، وأصبح الجيل الجديد عزوفاً عن الدين

ساخراً منه في شتى صورته .

يبدو أن الفقهاء أحسوا بمغزى هذه الفذلكة ، فأخذوا
يحرمون دخول المدارس على أتباعهم . ولكن هذا التحريم صار
سبباً آخر من أسباب تقلص نفوذهم الديني . فالناس شرعوا يدخلون
أبناءهم في المدارس رغم التحريم ، وذلك حينما رأوها تؤدي بهم إلى
الحصول على الوظائف الخلافة والرتبات المغرية .

حرّم الفقهاء الوظائف أيضاً ، فازداد البلاء عليهم زيادة أخرى .
إن أكثر الناس لا يتركون دنياهم في سبيل إرضاء رجال الدين .
فهم يلتزمون الدين عادة حين يرونه ملائماً لمصالحهم الدنيوية . فإذا
وجدوه مناقضاً لها انفضّوا عنه وتركوه وراءهم ظهرياً .

يقول الحسين بن علي : « الناس عبيد الدنيا والدين لعق على
ألسنتهم يحوطونه ما درّت معاشهم فإذا مُحِّصوا بالبلاء قل الديانون » .
انثال الناس على المدارس الحديثة وهم يهتفون : « طلب العلم
فريضة على كل مؤمن » . والواقع انهم انثالوا على المدارس في سبيل
المعاش ثم أخذوا يبرّرون عملهم بأنه فريضة . غاية أحدهم أن ينال
الشهادة ويحصل على الوظيفة ولو خُسفت الأرض بسكانها .

وهنا بدأت الطائفية في العراق تأخذ شكلاً جديداً . فبعد ما
كانت الطائفية نزاعاً مذهبياً أصبحت الآن نزاعاً على الوظائف .
ضعفت نزعة التدين في أهل العراق وبقيت فيهم الطائفية : حيث
صاروا لادنيين وطائفين في آن واحد . وهنا موضع العجب !

ومن الممكن القول ، على أي حال ، ان الطائفية في العراق

هي في طريق الزوال . فهي لا تستطيع أن تبقى في المجتمع مدة طويلة
بعد ذهاب أبيها الدين . إنها الآن في مرحلة الانتقال الى رحمة الله
تعالى . وهي ستلحق بأبيها المرحوم عاجلاً أو آجلاً .

إن الذي أبقى الطائفية في العراق هو حب الوظيفة الحكومية .
وهذه الوظيفة سوف لا تبقى مطمح الأنظار طويلاً . فلقد غصت باب
الوظائف بطلابها ، وأخذ الناس يطلبون الرزق من أبواب أخرى .
قرب ذلك اليوم الذي يفهم الناس فيه حقائق الحياة على نمط
آخر . ففائلة المجتمع لا بد أن تصل الى نهاية مطافها في يوم من الأيام .

* * *

ومما تجدر الإشارة اليه في هذا الصدد : ان ضعف التدين في
العراق أدى الى تضخيم نزعة الثورة فيه بدلاً من تقليصها . أراد
الحكام أن ينشروا في العراق النزعة العلمانية ليكافؤا بها الثورة
فانعكست في أيديهم الآية ، وانقلب عليهم ظهر المجن .

فالجيل الجديد حين ترك التعصب الديني التزم مكانه تعصباً
آخر أشد منه وطأة ، وأخذ يتحمس للمبادئ المستحدثة تحمساً غريباً
لا يضاهيه فيه أي قطر من الأقطار العربية الأخرى . فبعد ما كانت
في العراق طائفة واحدة تنزع الى الثورة . صارت جميع الطوائف في
ثورة واختلط فيها الحابل بالنابل .

* * *

إن النفس البشرية تهوى الايمان بدين ، فاذا فقدت ديناً جاءها
من السماء التمسث لها ديناً يأتيها من الأرض .

الفصل الثاني عشر عبرة التاريخ

كان القدماء يرون أن العدالة الاجتماعية تنشأ عن فكرة مجردة تخطر ببال الحكام فيندفعون بها في طريق العدل . وهذا الرأي لا يستسيغه المنطق الاجتماعي الحديث . فالفكر المجرد عاجز عن توجيه سلوك الانسان . وما الانسان في الغالب إلا آلة بيد ظروفه النفسية والاجتماعية والحضارية ، إذ لا يستطيع الفكر أن يؤثر في سلوك الانسان إلا ضمن نطاق محدود جداً .

إن العدالة الاجتماعية لا يمكن تحقيقها بمجرد أن تعظ الحاكم أو تخوفه من عذاب الله . فالحاكم قد يخاف الله أكثر منك وهو قد يعظك كما تعظه ويتضرع بين يدي ربه مثلاً تتضرع . وأنت لو وعظته ألف مرة لبقى كما كان — يظلم الناس ويقول ساعدني يارب! العدالة ظاهرة اجتماعية لا تتأق في مجتمع إلا بعد تنازع الحاكم والمحكوم فيه . إن الحاكم لا يستطيع أن يكون عادلاً من تلقاء نفسه ، إذ هو قبل كل شيء . إنسان ، فيه من نقائص الطبيعة البشرية ما في غيره . وهو مهما كان تقياً في أعماق نفسه فانه لا يفهم العدل كما يفهمه رعاياه القابعون في الأكوخ البعيدة .

الانسان هو الانسان في كل زمان ومكان . وصديقك الذي تستعذب حديثه وتستطيب مظهره وأدبه ، قد يكون من أظلم الناس

إذا تولى زمام الحكم . هو الآن طيب لأنه بعيد عن مباحج الحكم .
وأنت لا تدري ماذا سوف يفعل إذا جلس على الكرسي وحف به
الجلالوزة والجلادون من كل جانب . يقول المثل الانكليزي :
« إذا أردت أن تعرف حقيقة انسان فاعطه مالا أو سلطة » .

إن صلاح الحكم على كل حال أمر نسبي . فما يرضى عنه قوم
قد لا يرضى عنه آخرون . والحاكم مهما كان صالحاً في ذاته فإنه
لا يدري ماذا يقوم به الأضهار والأعوان والأحباء حوله من
مكائدات ومؤامرات في سبيل الاستغلال والترف . فهؤلاء يبهون
الناس من ورائه وهو لا يشعر . إنه يرى مظهرهم الوديع وابتسامتهم
العذبة فلا يدري ماذا يخفي وراء ذلك من كوارث ومظالم .

كل حاكم محاط بحاشية تحجب الناس عنه . وهو قد يخادع
نفسه فيخرج الى الناس يستمع الى شكواهم : ولكنه لا يستطيع
رغم ذلك أن يفهم عن حقائق المجتمع أكثر مما يستسيغه إطاره
الفكري الذي صنعه له حاشيته والحافون به .

إنه قد يريد الخير للناس ولكنه لا يدري بما يجري في أرجاء
الأرض من شر خفي لا يعرفه إلا أولئك الواقعون بين أنيابه
وهم ساكتون .

إن الحاشية التي تحيط بالحاكم تستطيع أن تجعل الأسود في عينه
أبيض . فإذا هاج الناس يريدون خبزاً قالت الحاشية عنهم
إنهم يريدون البقلاوة . وإذا جاءه متظلم يشكو قالت

عنه انه زنديق يريد أن يهدم دين الاسلام .
ويعمم البلاء حين يحف بالحاكم مرتزقة من رجال الدين . فهو لاه
يجعلونه ظل الله في أرضه ، ويأتون بالملائكة والأنبياء ليؤيدوه في
حكمه الخيث . وبهذا يسمي الحاكم ذئباً في صورة حمل وديع .

* * *

ظهرت الدولة لأول مرة في التاريخ بظهور المدينة . فهي بهذا
الاعتبار حديثة المنشأ ، إذ لم يتجاوز عمرها الستة آلاف سنة تقريباً .
وكان المجتمع البشري قبل ظهور المدينة يعيش في نظام قبلي لا دولة
فيه ولا سلطان يحكم بأمره .

ظهرت المدينة فظهر معها الحكم المستبدون ، وأخذ البشر
يندقون من مظالمهم ما يندقون . أما قبل ذلك فكانوا يخضعون
لزعيم يقودهم في أوقات المحنة ، إذ لا يستطيع أن يستبد بأمرهم إلا
بما يشاؤون .

نشأت الدولة فنشأ معها الظلم الاجتماعي . ولا نكران أن الدولة
قد أفادت البشرية على وجه من الوجوه : فهي قد عمّرت المدن
وشيّدت المعابد وشجعت العلوم والفنون ، ولكنها استعبدت
الناس ونهبت أموالهم في الوقت ذاته . وبعبارة أخرى : ان الدولة
أتمت المدينة وأتمت الاستغلال في آن واحد .

يُعجب بعض السخفاء بآثار المدينيات القديمة وقد يتباهون بها
ويعلمونها من علامات المجد التليد . وليست هي في حقيقة أمرها إلا

دلائل على الظلم الشنيع . فهذه الآثار الضخمة التي يعجب بها اولئك
السخفاء أقيمت بدموع البائسين وعجنت بدمائهم . ولم يبق أثر واحد منها
إلا بعد أن انهالت السياط على آلاف المستعبدين وتمزقت بها جلودهم .
مدح حافظ ابراهيم مصر الفرعونية وتحدث بلسانها فقال

وقف الخلق ينظرون جميعاً
كيف أبني قواعد المجد وحدي

ولو أنصف هذا الشاعر لقال :

وقف الخلق ينظرون جميعاً
كيف أبني قواعد الظلم وحدي

كنت أشهد ذات يوم أثراً دقيق الصنع من بقايا مجدنا
الذهبي ، فهتف صاحب لي كان بجاني قائلاً : « انظر الى عظمة
الأجداد ! » فقلت له : « انظر بالأحرى الى ظلم الأجداد ! » .

كلفت المدنيات القديمة البشر ثمناً غالياً . فهي كانت تقدماً
مادياً يصاحبه تأخر اجتماعي . وكما ازداد مجد السلطان اشتدت وطأته
على رعاياه . وهؤلاء البداء الذين يفرحون بآثار مجدهم القديم
لا يدرون أن آباءهم ربما كانوا اثناء ذلك عبيداً عند السلطان ،
وأمهاتهم جواري في قصوره العائرة .

ليس من العجيب أن يفرح أبناء الجلاوزة بآثار آباءهم ولكن

العجب كل العجب أن يفرح أبناء الصعاليك بها . كأنهم يريدون
اليوم أن يكونوا عبيداً كما كان آباؤهم من قبل .

* * *

شاهد التاريخ القديم نوعين من الأفكار : نوع يدعو الى المجد
والفتح والترف ، وآخر يدعو الى العدالة الاجتماعية . وعلى هذا فقد
كان الناس قسمين : أرباب دولة وأرباب ثورة . وتاريخ المدنيات
القديمة هو عبارة عن تفاعل مرير بين هذين النوعين من الأفكار .
ولذا كان التاريخ مملوءاً بنوعين من الحروب : فتوح في الخارج
وثورات في الداخل . فكلما ازداد توسع الدولة الخارجي ازداد
انقسامها الداخلي .

ومما تجدر الاشارة اليه : ان قادة الثورات في الأزمنة القديمة
كانوا من طراز الأنبياء الذين يأتون بدين جديد . فالعقيدة الدينية
كانت مسيطرة على عقول الناس آنذاك ، وكان الحكم يستأجرون
لهم أعواناً من رجال الدين القديم ، فيظهر تجاه ذلك أنبياء يهدمون
ذلك الدين الذي استأجره الحكم ويأتون بدلاً عنه بدين ثائر .
يقول القرآن : « وما ارسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها :
إننا بما أرسلتم به كافرون » . فالقرآن بهذا يعصّف قادة الناس في
الأزمنة القديمة الى صنفين متضادين : منذرين ومترفين . فالمنذرون
كانوا بهذا الاعتبار زعماء شعبيين ثاروا ضد المترفين من أرباب
المجد التليد .

ولو درسنا سيرة الأنبياء القدامى لوجدناهم ثواراً يتبعهم الفقراء
والساكنين من أبناء الشعب المظلوم . فنوح وإبراهيم وزارا وموسى
وسقراط وأشعيا وبوذا وعيسى ومحمد وغيرهم كانوا من مثيري
الفتن وزعماء الحركات الشعبية .

يحدثنا القرآن عن المترفين في أيام نوح : أنهم كانوا يسخرون
منه ويقولون له : « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي
الرأي ... » والواقع أن أتباع الأنبياء كانوا في معظم الأحيان من
نوع هؤلاء الأراذل — والعياذ بالله .

يرى البعض في هذا العصر أن الدين يدعو الشعوب إلى الخضوع
والاستسلام لحكامهم الظالمين . وهذا الرأي ينطبق على الدين
المستأجر الذي يستخدمه الطغاة . أما الدين الذي يأتي به الأنبياء
المتنكرون فهو دين الثورة بأجلى معانيها .

إننا يجب أن نفرق بين الدين والكهانة — كما يقول الأستاذ
خالد محمد خالد ^(١) . وكل دين يصير كهانة إذا استأجره السلاطين
وجعلوا أربابه وعاظماً لهم .

* * *

إن الثورة نزعة أصيلة من نزعات المجتمع المتعدن ، لا يستطيع
أن يتخلى عنها إلا إذا أراد أن يسير في طريق الفناء . فنذ ظهر نظام
الدولة ظهرت إزاءه نزعة الثورة . وظلت هذه النزعة العارمة تواصل

(١) انظر : خالد محمد خالد ، من هنا .. تبدأ ، ص ٤٦ وما بعدها

ضرباتها جيلاً بعد جيل — لا تهدأ ولا تقتر .
والديمقراطية لم تنشأ في الأمم الحديثة من جراء أفكار
صبيانية تحذلق بها الواعظون . إنما هي في الواقع نتيجة معارك طاحنة
قامت بها الشعوب في وجوه حكامهم المستبدين . والديمقراطية لم تقتر
عن الثورة حتى يومنا هذا . فتاريخها عبارة عن سلسلة متلاحقة من
الثورات لا نهاية لها .

إن نظام التصويت الذي تقوم عليه الديمقراطية الحديثة ليس
هو في معناه الاجتماعي إلا ثورة مقنعة . والانتخاب هو في الواقع
ثورة هادئة . حيث يذهب الناس اليوم الى صناديق الانتخاب ،
كما كان أسلافهم يذهبون الى ساحات الثورة ، فيخلعون حكاهم
ويستبدلون بهم حكاهم آخريين .

يقول المستر ليمان ، الكاتب الأمريكي المعروف ، ان ثوار
الأمم الديمقراطية يستخدمون اوراق التصويت بدلاً من رصاص
البنادق : (Ballots instead of bullets) .

كان القدماء لا يعرفون نظام الانتخاب والتصويت . أو لعلمهم
كانوا يعرفونه ولا يستطيعون تطبيقه . ولذا كانوا يلجأون الى
السيف في ثوراتهم على الحكام . أما في هذا العصر فقد اعتادوا
على استعمال أوراق التصويت ... وبهذا سار التاريخ بهم سيراً
هادئاً مطمئناً .

إن الحكومة الرشيدة في العصر الحديث هي تلك التي تقود

الثورة الشعبية لا تقاومها . فمقاومة الثورة عبث إذ أن التاريخ يسير سيرته المحتومة رغم أنف المقاومين له . فالقافلة تسير والكلاب تنبح — كما يقول المثل البدوي .

والثورة المسلحة لا تحدث في أمة تلتزم طريق الديمقراطية الصحيحة . ذلك لأن الحكومة الديمقراطية تنبعث من صميم الشعب . فهي عبارة عن صورة ظاهرة لرغبة الشعب الباطنة . إنها من الشعب وبالشعب ومن أجل الشعب — كما قال إبراهيم لينكولن .

إن من النادر أن نسمع بحدوث ثورة مسلحة في بلد من بلاد الديمقراطية الحقة . وليس معنى هذا أن أهالي تلك البلاد من طراز الخرفان الذين لا يشعرون . إنهم لا يثورون لأن في ميسورهم أن يجدوا للثورة طريقاً آخر — هو طريق التصويت الهادئ الذي لا يتلاعب به الحكام الأذنياء .

فهم يبدلون حكمهم حيناً بعد آخر . فلا تحدث فتنة ولا تسيل دماء . والحكومة التي لا تدرب رعاياها على اتباع طريق الثورة السلمية الهادئة ، سوف تجابه من غير شك ثورة دموية عنيفة في يوم من الأيام .

* * *

استقرأنا في هذا الكتاب حوادث التاريخ الاسلامي في ضوء المنطق الاجتماعي الحديث ، فوجدنا فيه فريقين يتنازعان البقاء : فريق السلاطين من جانب وفريق الثوار من الجانب الآخر .

أسس معاوية الملك الوراثي في الاسلام ، وأسس علي إزاه
الثورة الجاهجة . وأخذت هاتان النزعتان المتضادتان تتفعلان جيلاً
بعد جيل .

كان السلطان المسلم يأتي الى العرش عن طريق المرحوم أبيه .
فهو لا يعرف من أمور الدولة سوى أن يتمتع بميراث أبيه ، ويداري
الجلالوزة والجلادين الذين يؤيدونه في تدعيم هذا الميراث .

فاذا مات سلطان تهافت الجلالوزة على ورثته يبائعونه بالخلافة .
لقد كانت البيعة في عهد الراشدين انتخاباً .. فأُمسّت بعد ذلك
تمثيلاً مسرحياً ، يقوم الجلالوزة فيه بأدوارهم المفروضة عليهم :
فأحدهم يبائع الخليفة على كتاب الله وسنة رسوله ، والثاني يرتل
آيات من الذكر الحكيم ، والثالث يرفع يديه نحو السماء داعياً أن
ينصر الله الدين والدولة ، والرابع يقرأ الفاتحة ، والخامس
يقول : آمين !

على هذا النوال جرى تاريخ الخلافة في الاسلام . فنهض إزاء
ذلك ثوار متمردون حاربوا الدولة وحاربوا الدين الذي كان
يعشعش في أوكارها .

وانقسم المسلمون بهذا الى جبهتين : إحداهما تدعو الى المجد
والفتح ، وأخرى تدعو الى العدالة الاجتماعية . وكانت كل جبهة
تدعو الله أن ينصرها على أعدائها . ولا ندري من كان الله يريد أن
ينصر من هاتين الجبهتين المتنازعتين .

يقول الدكتور أحمد أمين : « وظني أن لو اجتمعت كلمة المسلمين وقدر الجهد الذي بذل في إخضاع العلويين لبني أمية وبني العباس ، أو إخضاع الأمويين والعباسيين للعلويين — لكان جهداً يكفي لفتح أكثر العالم وإخضاعه للمسلمين ، ولكن بتغير وجه التاريخ تغيراً تاماً ، ويكتب كله من جديد على نمط آخر . ولكن شبهو الحكم دائماً في كل عصر ففرق الكلمة ، وتضيع وحد ، الأمة ، وتحل قوتها ... » (١)

يبدو أن هذا الدكتور يعيش يبدنه في القرن العشرين ، ويعيش بفكره في القرن العاشر . فهو يريد أن ينتصر المسلمون ويفتحوا العالم ، ولا يبالي أن يكون ذلك من طراز الفتح الذي قام به صاحب الجلالة تيمورلنك خان .

لقد نسي الدكتور أن الثورة نزعة أصيلة من نزعات المجتمع المتمدين . فإذا كان الحكم استبدادياً فلا بد أن يكون ظالماً ، ولا مناص إذ ذاك من قيام الثورة عليه عاجلاً أو آجلاً .

فلو لم يثر العلويون ضد الظلم لثار عوضاً عنهم أناس آخرون . التاريخ لا يسير على أساس التفكير المنطقي . إنه بالأحرى يسير على أساس ما في طبيعة الانسان من نزعات أصيلة لا تقبل التبديل . شوه وعاظ السلاطين سمعة العلويين واتهموهم بتهمة الطمع والتكالب على مناصب الحكم . والواقع أن العلويين كانوا بشراً

(١) انظر : أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج ٣ ص ٢٩٨ — ٢٩٩

لا يختلفون عن غيرهم من الناس في ميولهم ونزعاتهم البشرية .
وليس من المستبعد أن يكونوا كما اتهمهم أعداؤهم .

إن المنطق الاجتماعي الحديث لا يميز بين الناس حسب مطامعهم
وأغراضهم . إنما هو يميز بينهم حسب الجبهة التي ينتمون إليها
في تأييد الوضع القائم أو في معارضته (١) .

وتاريخ المدنية ليس إلا تاريخ النزاع بين المؤيدين والمعارضين .
اولئك محافظون وهؤلاء مجددون . والظاهر أن النصر النهائي هو
من نصيب المجددين . إذ أن على اكتافهم تقوم الديمقراطية الحديثة .

من المؤسف حقاً أن نرى العراق الحديث تسوده أفكار من
نوع تلك الأفكار السلطانية . فلقد أصبح كثير من المعلمين
فيه لا يكثر ثوبن بما يصب على رؤوس الفقراء من بلاه . جل همهم
منصب على إعادة المجد التليد .

وهم لم يقتنعوا بمجد الرشيد وحده ، فجاؤنا علاوة على ذلك بمجد
حمورابي وآشور بانيبال . ولو كانوا من أهالي سمرقند لأضافوا إلى
ذلك مجد تيمور لنك خان .

دأبهم أن يشيدوا المتاحف ويعمروا القصور لكي يستحسن
منظرها الأجانب ويرفع بها اسم الوطن عالياً في سماء الخلود ، كما يظنون .
ولو أصغينا إلى الأناشيد التي يترنمون بها كل حين لوجدناها

تردد ذكر « الوطن .. الوطن ... » . ولست أدري ماذا يقصدون بهذا الوطن الذي يتغنون باسمه . إنه في الواقع وطن الجلاوزة والمترفين وأبناء الذوات . أما الفقير فقد بقي ، كما كان في أيام السلاطين ، يفتش الأرض ويلتحف السماء .

فلو أنهم باعوا هذه المتاحف التي يفتخرون بها ، إلى المترفين من أبناء الأمم الأخرى ، ثم شيدوا بأثمانها خزانات يدرأون بها هذا الفيضان الخبيث ، لخدموا بذلك السواد الأعظم من المواطنين . والمصيبة أنهم يريدون أن يفتحوا العالم ولا يريدون أن يفتحوا بلادهم أو ينقذوها من براثن المرض والجمل والفاقة .

مر على العراق يوم كان أولياء الأمر فيه لا يبالون بحالة الفلاح مثلاً يبالون بالرايات والطبول والأناشيد ، إذ بُجّت أصواتهم وهم يهتفون : « إلى الأمام .. إلى الأمام » . ولا أدري ما هو هذا « الأمام » الذي يريدون .

* * *

ضعف نفوذ وعاظ التدين فخل محله نفوذ وعاظ التمدن من دعاة المجد التقليد . والغريب أن الوعاظ « المتفرنجين » لا يختلفون عن الوعاظ « المعميين » إلا بمظاهرهم الخارجية ومصطلحاتهم التي يتمشقدون بها . هؤلاء يصيحون « الدين .. الدين .. يا عباد الله ! » وأولئك يصيحون « التمدن .. التمدن .. يا أبناء الفاتحين ! » . أولئك يهتفون : إلى الأمام ! وهؤلاء يهتفون : إلى الوراء ! .

ولعلمهم يفعلون ذلك لكي يخذروا الناس ويشغلوا أذهانهم عن النظر في مشاكلهم الراهنة التي هي ليست الى الأمام ولا الى الوراء .

وتجد الواعظ المتفرنج قد صغر خده على الناس وشمخ بانفه .
فاذا مر بزقاق قدر من أزقة الأحياء الفقيرة أمسك أنفه بيده وأخذ يتأفف — وربما أغمي عليه . إنه يحسب الفقراء الذين يربهم وحوشاً قدرين . فهو لا يتقرب منهم ولا يدرس مشاكلهم التي يعانونها .
ثم يصيح : الى الأمام !

مر فقير على أحد الواعظ المتفرنجين وأخذ يشكو اليه حاله .
فانتهره المتفرنج قائلاً : « مالك لا تعمل .. من جد وجد ! » .
فهؤلاء لا يهينون سبل الرزق للفقير ثم يقولون له : اسع في سبيل الرزق . فمثلهم في ذلك كمثل الأستاذة ماري انطوانيت حيث قالت لأولئك الجياع الذين جاؤا يطلبون منها الخبز : « كلوا الكعك ! » .
والواعظ المتفرنجون لا يقلون عن المعممين في ولعهم بالنصائح الفارغة . فلا يكاد أحدهم يذهب الى بلد من بلاد الغرب حتى يرجع وقد انتنخت أوداجه غروراً وتحذلقاً ، ويأخذ عند ذلك بتمجيد سجايا الغربيين وسمو أخلاقهم . ثم ينظر الى من حوله من البؤساء فيرمقهم بنظرة ازدراء ويقول : « ما لكم لا تتخلقون بأخلاقهم ؟ »
يفتخر المعممون بأخلاق السلف الصالح ، ويفتخر المتفرنجون بأخلاق الغربيين . وهم جميعاً يريدون أن يضعوا أمام الناس غاية لا تنال على سبيل الالهة والترويع .

إن الأخلاق ما هي إلا نتيجة من نتائج الظروف الاجتماعية .
فالغربيون لم تتحسن أخلاقهم بمجرد أنهم أرادوا ذلك . لقد تحسنت
ظروفهم الحضرية والاقتصادية فتحسنت أخلاقهم تبعاً لذلك . ومن
الظلم أن نطلب من الكادح الذي يعيش في كوخ حقير أن يكون
مهدباً أو نظيفاً أو صادقاً . إنه مضطر أن يكذب وأن يداجي وأن
يسرق لكي يداري معاشه العسير . وليس بمستطاعه أن يكون
نظيفاً لأن النظافة بين أبناء الأكوخ تعد دلالاً ليس له معنى .

يريد الوعاظ من الفقراء أن يكونوا أولي أخلاق فاضلة ، ولعلمهم
يقصدون بذلك تغطية ما يقوم به سادتهم من ظلم وتسل . فهم
يضعون أمام الناس هدفاً مستحيلاً لكي يلقوا عليهم الحجة فيما يعانون
من يؤس . ثم يقولون لهم : « لقد جرت أخلاقكم عليكم البلاء ! »

والمشكلة أنهم يتحدثون في معظم خطبهم ومقالاتهم . فإذا
نطق أحدهم ملاً شديقه بالفاظ الشفري وتأبط شراً . وتراه يضيف
إلى ذلك شيئاً من المصطلحات الغربية التي لا يفهمها العامة ، وهو
يمطط كلماته ليجعلها أكثر غموضاً وترويعاً . وهذا دليل على أنه
يريد أن يصعق بها نفوس الناس ويخلب ألبابهم . وربما أراد بها أن
يضر الناس — لا أن ينفعهم . ومن يدري فلعله قد أستاجر من
أجل ذلك المرعي البعيد .

كان السلاطين ، في عهودهم الغابرة ، يستخدمون نوعين من
الجلالوة : جلالوة السيف وجلالوة القلم . وهم كانوا يبدلون من

الأموال في رعاية جلاوزة القلم مثلما يبنون في رعاية جلاوزة السيف .
فهم يبنون الشكنات والقلاع ومرابط الخيل في نفس الوقت الذي
يبنون فيه المدارس والمساجد ورباطات الدراويش .
والواقع أن الحكم الظالم لا يستتب بقوة السيف وحدها . إنه
يحتاج الى القصاصد والفتاوى والكتب والمواعظ كذلك . والسلطان
الذي يعتمد على السيف وحده في تدعيم حكمه لا يستقيم أمره
أمدأ طويلاً .

* * *

لقد آن الأوان لكي نحدث انقلاباً في أسلوب تفكيرنا .
فقد ذهب زمان السلاطين وحل محله زمان الشعوب . وليس من
الجدير بنا ، ونحن نعيش في القرن العشرين ، أن نفكر على نمط
ما كان يفكر به أسلافنا من وعاظ السلاطين .
آن لنا أن نفهم الطبيعة البشرية كما هي في الواقع ، ونعترف
بما فيها من نقائص غريزية لا يمكن التخلص منها ، ثم نضع على أساس
ذلك خطة الإصلاح المنشود .
أمّا أن نعتبر الانسان ملاكاً ونطلب منه أن يسير في حياته
سيرة الأنبياء والقديسين ، فمعنى هذا أننا نطلب منه المستحيل ونجعله
كالخنفساء الملتأمة في صوف : تسعى من غير طائل . ويبقى الطغاة
حينئذ يعيشون في الأرض فساداً ... وهم آمنون .

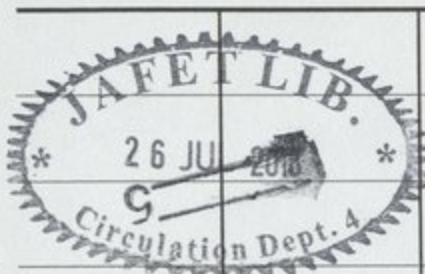
فهرس الكتاب

الفصل	الصفحة	
—	٣	الاهداء
—	٥	المقدمة
الأول	٢٠	الوعظ والصراع النفسي
الثاني	٥٤	الوعظ وازدواج الشخصية
الثالث	٨٤	الوعظ واصلاح المجتمع
الرابع	١٠٧	مشكلة السلف الصالح
الخامس	١٤٧	عبد الله بن سبأ
السادس	١٨٠	قريش
السابع	—	(حذف هذا الفصل لأسباب طارئة)
الثامن	٢٥٦	عمار بن ياسر
التاسع	٢٨٠	علي بن أبي طالب
العاشر	٣٣٤	طبيعة الشهيد
الحادي عشر	٣٤٩	قضية الشيعة والسنة
الثاني عشر	٤٠١	عبرة التاريخ

ابتدأ العمل في تأليف هذا الكتاب في اليوم الأول من نيسان
عام ١٩٥٣ ، وانتهى منه في اليوم الأول من نيسان عام ١٩٥٤ —
والعياذ بالله أولاً وآخرأ .

LIBRARY
OF THE
BUREAU OF
THE ARMY

DATE DUE

LIBRARY



PA.U.E. LIBRARY

301:W26WA:c1

الوردى، علي حسين
وعاظ السلاطين

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01011229

301
W26WA

